The New York Times

أول رواية هولندية تصل إلى قائمة (نيويورك تايمز) للكتب الأكثر مبيعاً

Twitter: @alqareah
2.3.2017

طبعة ثانية

العشاء

هيرمان كوخ

ترجمة: محمد عثمان خليفة

روايات مترجمة

العربي للنشر والتوزيع

هيرمان كوخ

العشاء

رواية

ترجمة: محمد عثمان خليفة

Twitter: @alqareah

العشاء
هيرمان كوخ

ترجمة: محمد عثمان خليفة

الطبعة الأولى: 2014
الطبعة الثانية: 2015

رقم الإيداع: 2015/11693
الترقيم الدولي: 978-977-319-227-3

الغلاف: محمد سيد
تحرير ومراجعة: سليمان إبراهيم سليمان

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60شارع القصرالعيني - 11451 - القاهرة
ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

Her diner © 2009 by Herman Koch
Originally Published by Ambo| Anthos Uitgevers, Amesterdam

Nederlands letterenfonds dutch foundation for literature

This book was published with the support of the Dutch Foundation for Literature.

Twitter: @alqareah

بطاقة فهرسة

كوخ، هيرمان

العشاء: رواية من الأدب الهولندي / تأليف هيرمان كوخ ، ترجمة محمد عثمان خليفة . – ط2. - القاهرة : العربي للنشر والتوزيع ، 2015 ،

ص ؛ سم . تدمك 9789773192273

1- القصص الهولندية

أ- خليفة، محمد عثمان (مترجم)

ب- العنوان 891.853

Twitter: @alqareah

مقدمة الناشر

في إطار السلسلة التي تبنتها العربي للنشر والتوزيع لترجمة الأدب المعاصر من "أغرب البلاد" للتعرف على الثقافات المختلفة، جاء الكتاب هذه المرة من "هولندا". وقد تمكنّا من الحصول على حقوق ترجمة الكتاب بعد مفاوضات بدأت منذ صدور طبعة الأولى في 2009 وانتهت بالاتفاق هذا العام 2013.

وكانت "العربي" بدأت سلسلة لترجمة أعمال أدبية من دول لا نعرف عنها الكثير، التي من خلالها نستطيع أن نتعرف أكثر على هذه البلاد وثقافاتها بقراءتنا لإنتاجها الأدبي المعاصر، والدخول إلى أجوائها ومناخاتها الحقيقية، بعيدًا عن الصورة النمطية المتداولة عنها. لذلك بدأنا هذه السلسلة باختيار بلاد كالنرويج والتشيك وتركيا وهولندا وسلوفاكيا..

رواية "العشاء" تُعد أحد أنجح الروايات الهولندية المعاصرة، والأكثر نقلًا من الهولندية إلى اللغات الأخرى، حيث تمت ترجمتها إلى أكثر من 33 لغة حتى الآن. كما وصلت إلي قائمة الكتب الأكثر مبيعًا في قائمة "نيويورك تايمز"، واحتلت المركز التاسع، وهو ما لم يحدث مع أي روائي هولندي من قبل، لتصل أيضًا إلي قوائم الكتب الأكثر مبيعًا في كلٍ من ألمانيا، فرنسا، إيطاليا وإسبانيا. وقد فازت الرواية بجائزة "كتاب العام" في هولندا عام 2009.

تدور أحداث "العشاء" كلها في ليلة واحدة، حول مائدة العشاء التي يلتقي عليها شقيقان: مدرس سابق لا يعمل وزوجته، وسياسي مرشح لمنصب رئيس وزراء وزوجته. الأربعة يبحثون أحوال أبنائهم – ميشيل وريك، فإلى أي مدى يمكن أن يذهب الآباء من أجل حماية أولادهم.

كُتبت الرواية بأسلوب جديد ومختلف نال الكثير من الاستحسان على مستوى النقاد والقراء على حد سواء.

فهناك الراوي مُدمن الحكايات، يروي بعض الأحداث التي تبدو عادية جدًا، كاجتماع أسرة على مائدة العشاء. ولكن من خلال تفاصيل الحكاية التي

Twitter: @alqareah

تتكشف شيئًا فشيئًا تتضح أبعاد الصراع الذي يدور بين أفراد الأسرة، وبينما تتصاعد الأحداث لتصل إلى الذروة، نتعرف على الشخصيات وتفاصيل حياتها من خلال وجهة نظر الراوي.

قد يبدو أسلوب الرواية غريبًا وغير مألوف بعض الشيء، ولكن بعد فترة من السرد يجد القارئ نفسه في قلب الأحداث، بل يتبنى بعض وجهات نظر الشخصيات ويختلف مع بعضها الآخر، ليبقى أسيرًا للحكاية حتى نهايتها.

الكاتب:

هيرمان كوخ: كاتب وقاص وروائي وممثل ومنتج هولندي. ولد عام 1953 في آرنم. من أشهر أعماله: رواية "العشاء" التي صدرت في 2009، ونالت جائزة كتاب العام في هولندا 2009. وقُدمت الرواية كمسرحية في 2012. ثم حّولت إلى فيلم هولندي في نوفمبر 2013 وفي طريقها إلى هوليوود. وترجم " سام جاريت" الرواية إلى اللغة الإنجليزية في العام 2012، لتحقق شهرة كبيرة في بريطانيا، ولتظهر بعدها في العام 2013 في الولايات المتحدة الأمريكية،وتحقق أعلى المبيعات. ليصبح "كوخ" الكاتب والروائي الهولندي الوحس الذي سجل اسمه في قائمة الكتب الأكثر مبيعًا في أمريكا.

Twitter: @alqareah

مقبلات

1

نحن خارجان للعشاء. لن أخبركم باسم المطعم، حتى لا يمتلئ في المرة القادمة بالناس الذين حضروا للالتقاء بنا. "سيرجي" هو من حجز لنا مكاناً فيه. وهو دوماً من يتولى أمر الحجز. هذا مطعم من النوع الذي يتوجب عليك أن تتصل به قبلها بثلاثة أشهر، أو ستة، أو ثمانية. لو سألتني لأخبرتك بأن من العبث أن يحدد المرء المكان والزمان الذي سيتناول فيه عشاءه بعد ثلاثة أشهر من الآن، ولكن يبدو أن البعض لا يجد عبثاً في هذا. وبعد قرون من الآن، وحينما يرغب المؤرخون في سبر أغوار المجانين الذين عاشوا في مطلع القرن الحادي والعشرين، فكل ما عليهم أن يفعلوه هو التنقيب في ملفات الكمبيوتر التي كانت بحوزة ما يسمونها "المطاعم الكبرى". عرفت أنهم يحفظون بيانات الزبائن في ملفات. فإذا كان السيد "فلان" لا يجد غضاضة في الانتظار ثلاثة اشهر حتى يحظي بمقعد عند واجهة المطعم، فربما ينتظر برضا لخمسة أشهر بعدها لينال طاولة جوار حمام الرجال. هذا ما يسمونه (خدمة العملاء) في المطاعم.

أما "سيرجي"، فهو ليس من النوعية التي تحجز قبلها بثلاثة أشهر، بل يحجز "سيرجي" مكاناً في اليوم نفسه، ويقول بأنه أمر ميسور بالنسبة له. هناك مطاعم بعينها تعرف "سيرجي لومان" وتحتفظ له بأسبقية الحجز،

Twitter: @alqareah

ومطعمنا هذا من بينها. وهي كثيرة، أعترف بهذا. حتى إنني أتعجب أحياناً مما إذا كان هناك مطعم في هذه البلد لا يفقد القائمون عليه وعيهم ما إن يسمعوا اسم "سيرجي لومان" عبر الهاتف. وهو، طبعاً، لا يتصل بنفسه، بل يكلف سكرتيرته أو أحد مساعديه بذلك.

قال لي وأنا أتحدث إليه منذ أيام:

– لا تقلق؛ إنهم يعرفونني هناك، وسأحصل على طاولة لنا.

كان هذا رداً على اقتراحي بأن نتصل بهم، تحسباً لعدم وجود مكان. فماذا نفعل في حال عدم وجود مكان؟ شعرت بنبرة شفقة في صوته الآتي على الطرف الآخر من الخط، بل يخيل لي أنه قد هز رأسه أسفاً. الأمر ميسور بالنسبة له فعلا.

وكانت هناك أمنية تمنيت أن تتحقق ذلك المساء. تمنيت ألا أكون موجوداً لأشهد على هذا الترحيب الحار الذي قابل به صاحب المطعم – أو مديره ربما – "سيرجي لومان" وكأنه صديق حميم؛ أو لأشهد على المضيفة وهي تقوده إلي ألطف طاولة مطلة على الحديقة، أو على تصرف "سيرجي" وكأنه مندهش من تلك المعاملة، وكأنه في قرارة نفسه شخص يعيش على سجيته وسط بقية البشر، ويرتضي ألا يكون متميزاً عن بقية خلق الله.

ولهذا السبب تحديداً أخبرته أننا سنلتقيه في المطعم نفسه وليس، كما اقترح، في المقهي المجاور له. فهو مقهي يرتاده الكثير من العامة. ولن أتحمل أبداً أن أرى "سيرجي لومان" وهو يدخل إليه كغيره من الناس العاديين، وقد تبسم ابتسامة تدل على أنه يسمح لكل هؤلاء بأن يستمروا في الدردشة والشرب والأكل وكأن سموه لم يدخل المكان.. لن أحتمل هذا أبداً.

Twitter: @alqareah

2

قطعنا المسافة مشيا، فالمطعم على بعد عدة بنايات من منزلنا. وهكذا مررنا على المقهي الذي تجنبت أن ألتقي "سيرجي" فيه. يحيط ذراعي بخصر زوجتي، بينما دست هي يدها في مكان ما داخل معطفي. اللافتة خارج المقهي مضاءة في دفء باللونين الأحمر والأبيض، لتعلن عن ماركة البيرة السائدة بالداخل.

قلت لزوجتي:

– مازلنا مبكرين. أعني أننا لو وصلنا المطعم الآن فسنكون في الميعاد بالتمام.

زوجتي؛ على أن أتوقف عن مناداتها بزوجتي. فاسمها "كلير". أسماها أبواها "ماري كلير"، ولكن جاء وقت رفضت فيه "كلير" أن يكون اسمها على اسم تلك المجلة الشهيرة. وأنا أحياناً أغيظها فأناديها "ماري". ولكن نادراً ما أشير إليها بكونها زوجتي، فقط في المناسبات الرسمية، أو في جمل من قبيل: "لن تتمكن زوجتي من الرد على الهاتف الآن"، أو: "زوجتي متأكدة من أنها قد طلبت غرفة تطل على البحر".

في أمسيات كهذه، أحاول أنا و"كلير" استغلال كل لحظة نكون فيها بمفردنا. عندها ننسي كل شيء، ولا نعمل حسابًا لأي شيء، وكأن ذاك الميعاد في المطعم مجرد سوء تفاهم، وكأنه ليس هناك في المدينة سوانا. لو كان لي أن أعرّف السعادة لقلت بأن السعادة لا تحتاج إلي إثبات، فهي السعادة وحسب. "العائلات السعيدة كلها متشابهة، ولكن الأسرة التعيسة فريدة في تعاستها"، هكذا يقول تولستوي في "أنّا

Twitter: @alqareah

كارنينا". وإضافتي هي أن العائلة التعسة – وبالأخص لو كانت التعاسة تخيم على الزوج وزوجته وحدهما – تبقي حبيسة تلك التعاسة، ما لم يستجد جديد. والتعاسة "عشرية" بطبعها. كما أن التعاسة لا تحتمل السكوت، خاصة ذاك السكوت غير المريح، الذي يحط رحاله ويستقر مهيمناً وحيداً.

هكذا تبسمنا لبعضنا ونادل المقهي يضع البيرة أمامنا، فنحن نعرف أننا سرعان ما سنمضي الأمسية كاملة بصحبة آل لومان: ونعرف أن هذه اللحظات وحدها هي الأبهي، ومن بعدها ستأتي الأوقات الأسوأ... فالأسوأ.

عندئذ رغبت ألا أذهب للمطعم. كانت هذه رغبتي منذ البداية. وأنا أجد أن أي موعد يضربه المرء في المستقبل المنظور يكون دوماً على بوابات الجحيم، أما الأمسية التي فيها الموعد فهي الجحيم ذاته. فيندلع الجحيم أمام المرآة صبيحة يوم الموعد؛ ما الذي سترتديه؟ وهل ستحلق ذقنك أم لا؟ ففي مواعيد مثل هذه يكون لكل شيء دلالة، سواءً كنت ترتدي موضة الجينز المبقع المهترئ أم ترتدي قميصاً خرج من تحت المكواة للتو. وإذا لم تحلق ذقنك الذي يكاد يكون ظاهراً يرون أنك تكاسلت عن حلاقته، أما إذا تركته من دون حلاقة ليومين لاعتبروه "نيو لوك" يليق بك، ولكنهم يرون الذقن الذي تجاوز عمره هذين اليومين دلالة على بوادر تدهور في نفسيتك. "هل أنت على ما يرام؟ ألست مريضاً؟". فمهما فعلت، تبقَ أسير آراء الناس فيك. تحلق ذقنك، فتبقي أسيرهم. لا تحلقه، فلن تفلت منهم أيضاً. ستجد الآخرين يتساءلون حين يرونك؛ فأنت قد وجدت هذه الأمسية مهمة لدرجة تجبرك على حلاقة ذقنك. هكذا أنت: تبدأ دوماً مباراتك معهم مغلوبًا: 1 / صفر.

عندها يأتي دور "كلير" لتذكرني بأنها أمسية ليست ككل الأمسيات. و"كلير" أذكي مني. ولا أقول هذا بدافع من مناصرة المرأة أو حتى أكسب النساء إلي صفي. فلا يمكن أن أقول أبداً بأن المرأة أذكي من الرجل، أو أن النساء أرق مشاعر، أو أصدق حدساً، أو أنهن أشد "التصاقاً بالحياة"، أو أي

Twitter: @alqareah

هراء من هذا القبيل، وبالرغم من كل شيء، فإن من يعرف بالرجل "الحساس" دائماً ما يجيد الإلحاح أكثر من النساء أنفسهن.

هكذا تصادف أن "كلير" أذكي مني، وأعترف أني عاندت هذه الحقيقة وقتاً قبل أن أسلم بها. قلت لنفسي في سنين الزواج الأولي إنها ذكية، ولكنه الذكاء بمعناه العادي؛ ذكاء تتوقع أن تكون زوجتي عليه. فهل كان يمكن لي أن أحتمل زوجة غبية لفترة أطول من شهر؟ لقد كانت "كلير" ذكية بما يكفي لأمكث معها فترة أبعد من ذاك الشهر الأول. ويكفي أن تعلم أننا زوجان منذ قرابة العشرين عاماً.

نعم، "كلير" أذكي مني، ولكنها وفي أمسيات مثل هذه لا تزال تطلب رأيي حول ما ينبغي عليها أن ترتديه، وأي قرط مناسب، وهل عليها أن تعقص شعرها لأعلي أم تتركه منسدلاً. والقرط لدي المرأة مثل الحلاقة لدي الرجل؛ كلما كان القرط أكبر كانت الأمسية أهم ولابد أن يحتفي بها. ولدي "كلير" ترسانة من الأقراط المجهزة لأية مناسبة. يقول البعض إن من غير المستحسن أن يفقد المرء الثقة فيما ينبغي عليه أن يرتديه. ولكنني أخالفهم الرأي؛ فالمرأة الغبية هي التي تظن أنها ليست بحاجة إلي أية مساعدة. وقد تجد المرأة الغبية تقول: "وما الذي يعرفه الرجل عن أمور مثل هذه؟"، ثم تمضي لتتخذ القرار الخطأ.

جربت أحياناً أن أتخيل "بابيت" وهي تسأل "سيرجي" إن كانت ترتدي الفستان المناسب أم لا، وعما إذا كان وهل زاد شعرها طولا أم لا، وعن رأيه في حذائها. هل تجد الكعب عالٍ زيادة عن اللزوم؟

ولكني كلما حاولت تخيل الصورة وجدت أن بها شيئا ما خطأ، شيئًا لا يصل إليه خيالي. أكاد أسمع "سيرجي" وهو يعبر لها عن رضاه عن اختياراتها، ولكنه لا يلقي لها بالا من الأصل، لم يكن ليهتم بأمور كهذه، وحتى لو ارتدت زوجته الفستان غير المناسب فسيبقي الرجال منجذبين إليها أينما حلت. يليق بها كل رداء. فلماذا تشتكي بحق السماء؟

ليس هذا من مقاهي النخبة، ولا يرتاده المهتمون بالموضة؛ إنه ليس (كوول) كما كان "ميشيل" يصفه. سواده الأعظم من عامة الشعب. ليس

Twitter: @alqareah

الجميع من الشباب وليسوا كذلك من العجائز، بل هم مجموعة من الشباب والعجائز معًا؛ عامة الشعب. إنه المقهي كما ينبغي أن يكون.

كان مزدحما؛ وقفنا متلاصقين، بجوار باب حمام الرجال. تمسك "كلير" البيرة بيد، وتتشبث برسغي بأصابع اليد الأخري.

قالت لي:

- يخامرني مؤخرا شعور بأن "ميشيل" يتصرف بغرابة. ليس إلي تلك الدرجة من الغرابة، ولكنه مختلف، بعيد. ألم تلحظ ذلك؟

- أوه، أجل. أعتقد أن هذا صحيح.

حرصت على ألا أنظر إلي "كلير"، فعيناي ستفضحانني ما إن أنظر إليها، بعد كل هذه العشرة. تظاهرت بأني مشغول بتأمل البشر داخل أرجاء المقهي، وكأنني أجد في أناس عاديين منخرطين في أحاديث مفتعلة فرجة تستحق الاستغراق فيها. كنت مرتاح الأعصاب بعدما تبين لي أن خططي لن تتغير وأننا لن نلتقي آل لومان إلا حينما نصل إلي المطعم، بل وتخيلت "سيرجي" وهو يمرق عبر الباب الفرنسي للمقهي، وعلي محياه تعبير مشجع لرواده على أن يستمروا فيما يقومون به؛ وألا يحدقوا فيه وحده دون غيره.

سألتني "كلير":

- ألم يتكلم معك في شيء؟ أعني أنكما تتكلمان في أمور شتي. أتعتقد أن للأمر علاقة بوجود فتاة في حياته؟ كيف سيشعر براحة وهو يتحدث معك عن هذا الأمر؟

في تلك اللحظة انفتح باب الحمام الرجالي، وكان علينا أن نتنحي جانبا، فنزداد التصاقا. وارتطم كوب "كلير" بكوبي.

سألتني مجدداً:

- أتعتقد أن للأمر علاقة بوجود فتاة في حياته؟

Twitter: @alqareah

قلت لنفسي ليت هذا الأمر صحيح. علاقة مع فتاة.. كم هذا رائع، رائع وطبيعي؛ تلك الفوضي والمراهقة العادية.

ـ هل يمكن لـ"شانتال / ميريل / روز" أن تبيت هنا الليلة؟

ـ أيدري والداها بذلك؟ لو لم يكن لدي والديها مانع، فليس لدينا مانع. طالما أنك لم تنس أن.. وطالما أنك (واخد بالك).. هاه.. أنت تعرف قصدي، (مش لازم أنبه عليك). اتفقنا؟ "ميشيل"؟

وهكذا تغدو الفتيات إلي منزلنا وتروح، وكل واحدة أجمل من الأخري، وتجلسن على الأريكة أو على طاولة المطبخ، وتلقين على التحية بأدب عندما أدخل المنزل.

ـ مرحبا، سيد "لومان".

ـ لا داعي للسيد "لومان"هذه.. ناديني "بول".

وهكذا ستناديننني "بول"، إلي أن يأتي اليوم الذي تناديننني فيه السيد "لومان" من جديد.

وأحيانا أصادف إحداهن على الهاتف، وبينما أسألها عن الرسالة التي تود مني توصيلها لـ"ميشيل"، سأغلق عينيّ محاولاً أن أربط بين صوت تلك الفتاة على الطرف الآخر من الخط ـ نادراً ما يذكرن أسماءهن، بل يبادرن بسرعة: هل "ميشيل" موجود؟ ـ وبين صورة وجه أياً منهن. "لا، لا بأس، سيد "لومان". لقد اتصلت على هاتف المنزل فقط لأن هاتفه المحمول مغلق".

ومرة أو مرتين، وقتما أعود إلي المنزل على غير موعدي المعتاد، يراودني انطباع بأنني سأدخل في الوقت المناسب لأجده مع فتاة في وضع غير مناسب، أو سأجد "ميشيل" و"شانتال / ميريل / روز" جالسين يشاهدان قناة "إم تي في" بكل براءة: ولكنني أتصور أنهما كانا منذ لحظات يعربدان، وأنهما قد سارعا بهندمة ملابسهما وشعرهما حينما سمعاني أدخل. سيكشفه دوماً ذلك الاحمرار الذي يغطي وجهه في تلك اللحظات.

Twitter: @alqareah

وللأمانة، أقول بأني لست متيقنًا من حدوث مثل تلك الأمور، وربما كانت كل تلك الفتيات يأتين لابني كصديق لطيف وسيم يمكن الخروج معه إلي الحفلات؛ فتي يثقن فيه، وتحديدا لأنه ليس من النوع الذي يتلاعب بهن من أول وهلة..

- كلا، لا أعتقد أن للأمر علاقة بفتاة.

الآن أنظر إلي عيني "كلير" مباشرة. تنطوي السعادة على جانب ظالم يجبرك على أن تصبح كالكتاب المفتوح أمام الآخرين: فلو أنني تعمدت مجدداً ألا أنظر إليها الآن، فستتيقن من أن هناك سرًّا ما؛ أن هناك فتاة، أو ما هو أسوأ.

قلت لها:

- أظن أنه أمر له علاقة بالمدرسة؛ لقد أنهي تلك الامتحانات للتو؛ ولابد أنه مرهق، ولابد أنه لم يعطِ لهذه السنة الدراسية حقها الكافي.

هل بدوت مقنعا؟ والأهم: هل ارتسم هذا الإقناع على وجهي؟ كانت نظرات "كلير" تتحرك بسرعة بين عيني اليمني وعيني اليسري؛ ثم مدت يدها إلي ياقة قميصي، وكأن بها ما يستوجب الاعتناء به الآن، حتى لا أبدو أبله ونحن ندلف إلي المطعم.

ابتسمت وهي تضع راحة يدها على صدري. أشعر بإصبعين على جلدي، تماماً في موضع الزر العلوي لقميصي، لو كان مزرراً.

- ربما كنت على حق. أرى أن نحرص على ألا يأتي يوم يتوقف فيه عن مصارحتنا بالأشياء. والأسوأ أن نعتاد نحن على هذا.

- بالطبع. ولكنه في عمره هذا يحق له أن تكون لديه أسرار. وليس علينا محاولة أن نعرف عنه كل شيء، وإلا سينغلق على نفسه تماماً.

أحدثها وأنا أنظر في عينيها. شعرت في تلك اللحظة أنها زوجتي. لماذا لا أناديها زوجتي؟ إنها زوجتي. طوقتها بذراعي وجذبتها نحوي. قلت لنفسي:

Twitter: @alqareah

سنبقي "أنا وزوجتي"، ولو لهذه الأمسية فحسب. زوجتي وأنا نود أن نلقي نظرة على قائمة النبيذ.

قالت لي:

- علام تضحك؟

نظرت إلي كوبي البيرة. كان كوبي فارغاً، بينما كان كوبها ممتلئًا لثلاثة أرباعه. كالعادة؛ زوجتي لا تشرب بمثل سرعتي، وهو سبب آخر من أسباب حبي لها. وكان حبي لها هذا المساء أكثر من أية أمسية مرت علينا من قبل.

- لا شيء. كنت أفكر.. أفكر فينا.

حدث هذا بسرعة؛ ففي لحظة كنت أنظر إلي "كلير"، أنظر إلي زوجتي، نظرة حب، أو بلمحة حب، وفي اللحظة التالية غطي ستار من الدموع عينيّ.

لم يكن لها أن تلحظ شيئًا من هذا، فقد دفنت وجهي في شعرها، واحتضنتها بقوة وأنا أتشمم شعرها: شامبو. رائحة الشامبو تمتزج برائحة أخري. رائحة دافئة - هي رائحة السعادة.

عندئذ قلت لنفسي..

علي أي حال كانت ستمر هذه الأمسية لو أنني - منذ ساعة لا أكثر - اكتفيت بالانتظار أسفل الدرج حتى نخرج من المنزل، بدلاً من قيامي بصعود الدرج إلي غرفة "ميشيل".

علي أي وجه كانت ستمضي حياتنا بعد تلك الأمسية؟

أكانت رائحة السعادة التي وجدتها في خصلات شعر زوجتي ستبقي حاضرة، وليس كما وجدتها أنا الآن، مجرد ذكري بعيدة، مجرد رائحة لشيء يمكن للإنسان أن يفقده هكذا.. في لمح البصر؟

Twitter: @alqareah

3

- "ميشيل".

كنت أقف عند باب غرفته. لم يكن فيها. ولكنني لن أضحك على نفسي؛ كنت أعلم أنه ليس فيها، هو في الحديقة يحاول إصلاح العجلة الخلفية في دراجته.

تصرفت وكأني لم ألحظه، وتظاهرت أنني ظننت أنه بغرفته.

- "ميشيل".

طرقت الباب الذي كان مواربا. في الآن نفسه، كانت "كلير" تفتش خزانة الملابس في غرفتنا تفتيشاً ذاتياً؛ فقد كان علينا أن نغادر إلي المطعم خلال أقل من نصف الساعة، وهي لا تزال مترددة بين الجيب السوداء مع البوت الأسود أو البنطلون الأسود مع حذاء ماركة "دي كا ان واي".

ستسألني بعد دقائق:

- أي قرط أرتدي؟ هذا أم هذا؟

وسأجيبها بأن الصغير يليق بها أكثر، وأنه يليق مع الجيب أو البنطلون.

هكذا كنت في غرفة "ميشيل". ورأيت على الفور ما كنت أبحث عنه.

علي أن أقول لكم إني لم أقم بهذه الفعلة من قبل، أبداً. فحينما يدردش "ميشيل" مع صديقاته عبر الكمبيوتر، كنت أقف جواره، وظهري للمكتب

Twitter: @alqareah

تقريبًا، وبالكاد أرى شاشة الكمبيوتر. أتعمد أن أدفعه إلي الظن بأني لا أتجسس عليه أو أحاول أن ألتقط من ورائه ما يكتبه بسرعة على الشاشة. وأحياناً ما يطلق هاتفه المحمول رنينًا يعلن عن استقبال رسالة. وهو مهمل يترك هاتفه في أي مكان. ولا أنكر أني أضعف فأتلصص على هاتفه في بعض الأحيان، وخاصة حينما أتأكد أنه بالخارج.

من هذا الذي يراسله نصيا؟ ما الذي كتبه (أو كتبته) له؟

ذات مرة وقفت في مكاني ومحمول "ميشيل" في يدي، وأنا أعلم أنه لن يعود من الجيم قبل ساعة، وأنه نسي هاتفه كالعادة. هاتفه قديم، "سوني إريكسون"، من النوع العتيق. على الشاشة: "1 رسالة"، وتحتها أيقونة المظروف. لم أدري بنفسي إلا وأنا أقرأ الرسالة. ربما لن يكتشف هذا أحد، وربما يعرف أني قرأتها. هو لن يتفوه بشيء، ولكنه سيبقي حذرًا مني ومن أمه؛ ومع مرور الوقت قد يصاب الولد بالفصام. وعندئذ سينقلب حال عائلتنا السعيدة هذه رأساً على عقب.

ما هي إلا بضع خطوات إلي مكتبه أمام النافذة. ولو ملت بجذعي لشاهدته في الحديقة، قابعاً عند باب المطبخ يصلح إطار العجلة، ولو تطلع "ميشيل" لأعلي لرأي والده واقفاً عند نافذة غرفته.

التقطت هاتفه المحمول، سامسونج حديث أسود اللون، وفتحته. لم أكن أعرف كلمة السر، فلو كان يستخدم واحدة لكنت قد عجزت عن فعل أي شيء إزاء ذلك، ولكني وجدت الشاشة تنير على الفور وبخلفية عليها علامة "نايك" الشهيرة، ربما صورها من على تي شيرت، أو حذاء، أو قبعته الرياضية السوداء التي لا يخلعها عن رأسه أبداً، حتى في أشهر الصيف أو في داخل المنزل، بل يتعمد أن يحكمها حتى تكاد تغطي عينيه.

تصفحت أيقونات القائمة الرئيسية، وهي تقريبا على نفس الترتيب الموجود في هاتفي، السامسونج أيضاً، ولكن هاتفي أكبر منه بستة أشهر، وهكذا صار

Twitter: @alqareah

موضة قديمة بالفعل. ضغطت بإصبعي على أيقونة "ملفاتي" ثم على أيقونة "مقاطع فيديو". وهكذا وفي لمح البصر عثرت على ما كنت أبحث عنه.

حدقت حتى شعرت بأن رأسي يبرد شيئاً فشيئاً. تلك القشعريرة التي تصيبك حينما تأخذ قضمة كبيرة من كونو الآيس كريم أو رشفة هائلة من شراب مثلج.

برودة مؤلمة، وقشعريرة تتوه عقلك.

عاودت النظر، ثم عاودت النظر. وجدت أن المقاطع كثيرة، ولكنني لم أعرف عددها بالضبط.

- أبي..

أتاني صوت "ميشيل" من الأسفل، وسمعت خطواته على الدرج. سارعت بإغلاق الهاتف ووضعه في مكانه على المكتب.

- أبي..

فات أوان المسارعة بالخروج من الغرفة، أو أن أتناول قميصا أو سترة من الدولاب وأتظاهر بالوقوف بها أمام المرآة؛ خياري الوحيد هو الخروج من غرفة "ميشيل" بكل هدوء وثقة في النفس، وكأني كنت أبحث عن شيء ما.

أو كأني كنت أبحث عنه هو.

- أبي..

توقف عند أعلي الدرج، وأخذ يتطلع إلي ما هو خلفي، إلي غرفته. ثم نظر إلي. يرتدي قبعته "النايك"، ويتدلي الآيبود الأسود من قلادة تصل إلي صدره، بينما استقرت سماعة حول عنقه؛ وأنا أشهد له بصراحة، فهو من النوع العملي الذي لا تهمه المظاهر، فبعد بضعة أسابيع من شرائه الآيبود قرر أن يستبدل سماعته الصغيرة بأخري كبيرة من النوع الذي يستخدم مع الكمبيوتر. فهي تعطيه قوة الصوت التي ينشدها.

Twitter: @alqareah

"كل العائلات السعيدة متشابهة". كان هذا أول ما خطر لي في تلك اللحظة من المساء.

- كنت أبحث عن.. كنت أبحث عنك.

لم أقل لك إن "ميشيل" كاد أن يولد ميتاً. ولا زلت أتذكر حتى اليوم رؤيته وهو قطعة لحم زرقاء قابعة في الحضانة بعد خروجه قيصرياً من بطن أمه. فمجرد وجوده حولي هدية حبتني بها السماء؛ تلك هي السعادة بعينها...

- كنت أصلح عجلة الدراجة. وكنت أبحث عنك لأسألك إن كان لدينا صمامات هنا في المنزل.

- صمامات؟

لست من النوع الذي يهوي إصلاح عجلة دراجة مثقوبة، من أصلا يفكر في هواية كهذه. أما ابني – وبرغم كل شيء – فلا يزال يؤمن بصورة أخرى رسمها لأبيه، صورة الأب الذي يعرف من أين يأتي له بصمامات للعجلة.

سألني بغتة:

- وما الذي كنت تفعله داخل غرفتي؟ قلت إنك كنت تبحث عني، فلماذا كنت تبحث عني؟

حدقت فيه، حدقت في العينين الصافيتين أسفل القبعة السوداء، العينين الصادقتين، اللتين أعترف دوماً بأنهما جزء لا يتجزأ من السعادة التي تنعم بها أسرتنا.

قلت:

- أوه، لا شيء. كنت أبحث عنك وحسب.

Twitter: @alqareah

4

لم يصلا إلي هناك بعد بالطبع.

أقول، ومن دون أن أكشف لكم عن الكثير حول المكان، بأن مطعمنا متوار عن أنظار المارة في الشارع خلف صف من الأشجار. وكنا قد تأخرنا نصف ساعة بالفعل، وبينما نمشي نحو المدخل فوق الممر المغطي بالحصي وتنيره مصابيح صغيرة تراصت على امتداد جانبيه، تحدثت مع زوجتي حول احتمال أن نكون، ولو لمرة واحدة، هذه المرة فحسب، قد وصلنا بعد وصول "آل لومان" بزمان.

قلت:

- تراهنينني؟

- من غير رهان، أقول لك إنهما ليسا بالداخل.

استقبلتنا فتاة ترتدي تي شيرت أسود ومريلة سوداء طويلة، وتسلمت معطفينا. بينما أخذت فتاة أخري بنفس الزي تقلب في دفتر الحجز المفتوح أمامها بحثا عن اسمينا.

أدركت أنها تتظاهر بعدم سماعها اسم "لومان" من قبل، وأدركت أنها ممثلة بليدة.

- "لومان"؟

Twitter: @alqareah

رفعت حاجبا، ولم تخف خيبة أملها حينما عرفت أن الواقف أمامها ليس هو "سيرجي لومان" بشحمه ولحمه، ولكنه شخص آخر نكرة ومعه زوجته النكرة، بالنسبة لها على الأقل.

كان يمكنني أن أساعدها فأخبرها أن "سيرجي" في طريقه إلي هنا، ولكنني قررت ألا أفعل.

كانت المنضدة الطويلة التي فوقها الدفتر منيرة بواسطة مصباح طويل نحيف نحاسي اللون. بدا لي موضة قديمة في تلك اللحظة. وكذلك شعر الفتاة، الأسود بنفس لون التي شيرت والمريلة، المعقوص ذيل حصان، وكأن هذا الاستايل مصمم ليتماشي مع استايل "الآرت ديكو" الذي يميز هذا المطعم، وحتى الفتاة التي تولت أمر معطفينا كانت تعقص شعرها ذيل حصان، مثل توأمها الواقفة عند الدفتر. ربما هي التعليمات، تعليمات النظافة والنظام، مثل ارتداء كمامات داخل غرفة الجراحة. فالمطعم يفتخر بالأساس بأنه ينفرد بتقديم الأكلات "الأورجانيك". فاللحم من حيوانات حقيقية فعلا، ولكنها حيوانات عاشت قبل موتها حياة مدللة للغاية.

ومن فوق شعرها المهندم، رمقت الطاولة، أو على الأقل أول طاولتين أو ثلاث طاولات ظاهرة أمامي. وإلي يسار المدخل يقبع "المطبخ المفتوح". هناك شيء ما في طور التخليق داخله في تلك اللحظة بالذات، عرفت هذا من سحابة دخان زرقاء وما تحته من لهيب متراقص.

عاودني الإحساس بعدم الارتياح لوجودي هنا. وتجسدت في عقلي ثانية تلك الصورة التي رسمتها للأمسية وبكل قوة هذه المرة، راودني إحساس خفيف بالدوار، وتنميلة في يديّ، وبوادر صداع ينبثق من خلف أذني اليسري. ولكن هذا لم يكن كافياً لأن أضحي متعباً أو أخر فاقد الوعي في مكاني.

كيف سيكون رد فعل ذات المريلة السوداء وهي تجد أمامها ضيفًا يخر فاقد الوعي حتى من قبل أن يجتاز "مرحلة الدفتر". هل سيحاولون إبعادي عن هذه المرحلة، وسحبي حتى غرفة المعاطف؛ حتى لا يراني بقية الضيوف

Twitter: @alqareah

المقدمين على الدخول إلي نفس المرحلة؟ وربما أجلسوني فوق كرسي طويل خلف المعاطف، بأدب ولكن بحزم، وربما يطلبون لي سيارة أجرة. اخلصوا! اخلصوا! من هذا الرجل! أعجبني في الفكرة أنها كانت ستفسد على "سيرجي" أمسيته، وارتحت لمجرد فكرة أن أقلبها امامه رأساً على عقب.

فكرت في تبعات موقف كهذا. سنعود أدراجنا إلي المقهي ونطلب طبق طعام عادي؛ ويا حبذا لو كان طبق "ريش" مع بعض البطاطس المقلية، فهذا ما كانت تقوله الورقة المعلقة فوق البار، هذا هو طبق اليوم. "ريش وبطاطس مقلية: 11.50 يورو"، وهذا أقل من عُشر ما ستخسره جيوبنا في هذا المطعم.

أو نتوجه رأساً إلي المنزل، بعدما نلتقط فيلماً من محل "الدي في دي"، ونجلس سوياً لنشاهده على الشاشة في غرفة نومنا، فوق فراشنا الرحب، مع زجاجة نبيذ، ومعها مزة مقرمشات وقطع الجبن، نشتريها أيضاً ونحن في طريقنا للمنزل، وهكذا تكون الليلة المثالية التي أتوق إليها.

وعدت نفسي أن أكون على سجيتي، وأن أدع "كلير" تختار الفيلم بنفسها، حتى ولو كان هذا يعني أن أشاهد واحداً من الأفلام الدرامية الكلاسيكية: "الكبرياء والهوي"، "غرفة ذات إطلالة"، أو حتى "جريمة قتل في قطار الشرق السريع". أجل، هذا احتمال، وقلت لنفسي إن بوسعي فعلاً أن أفقد الوعي مقابل أن نعود إلي المنزل. ورغم هذا وجدت فمي يقول:

- "سيرجي لومان.. الطاولة قرب الحديقة.

رفعت الفتاة عينيها عن صفحة الدفتر:

- ولكنك لست السيد "لومان".

عندئذ لعنت كل شيء؛ المطعم، الفتاة المتشحة بالسواد، هذه الأمسية التي فسدت حتى من قبل أن تبدأ. ولكن "سيرجي" كان صاحب النصيب الأكبر من اللعنات، فهو من كان حريصاً كل الحرص على الترتيب لهذا العشاء، العشاء الذي لم يجد في نفسه القدر الكافي من الإتيكيت فيأتيه في الموعد المضبوط. هو

Twitter: @alqareah

اعتاد ألا يصل أبداً في الموعد. وجميع من له مصلحه في البلدية يضطر إلي انتظار طلعته البهية. ربما هناك ما أخر "سيرجي" المشغول أصلا، ذلك الاجتماع الحكومي الذي ربما طال فوجد "سيرجي" نفسه محاصرا في زحام المرور في شارع ما، هو لا يقود بنفسه؛ فقيادة سيارة ستكون مضيعة للوقت بالنسبة لشخص مثل "سيرجي"، بل لديه سائق خصوصي، حتى يتفرغ هو لتخصيص وقته الثمين في مطالعة المستندات والوثائق.

– بل أنا هو؛ اسمي" لومان".

تسمرت عيناي بثقة على عيني الفتاة، فرمشت هي لا إرادياً، وفتحت فمي لأتفوه بالجملة التالية التي ستحوز لي هذا الانتصار، ولكن وجدت فمي – غاوي الهزيمة – يخونني مرة أخري، ويعترف:

– أنا أخوه.

Twitter: @alqareah

5

– نود أن نقدم لكما في بداية هذه الأمسية.. شامبانيا وردي.

لم يكن المدير، أو المتر، أو المشرف، أو رئيس الخدم – أو أياً كان ما يسمونه في مطاعم راقية كهذه – يرتدي مريلة سوداء، بل بدلة من ثلاث قطع. البدلة زيتونية اللون وبها خطوط رفيعة زرقاء، ويخرج من جيب السترة الأمامي منديل أزرق على شكل مربع نصف ظاهر.

كان صوته خفيضا، لدرجة أننا سمعناه بالكاد وسط جلبة قاعة الطعام. هناك شيء غريب في الأجواء الصوتية لهذا المكان، وقد أدركنا هذا ما إن جلسنا إلي طاولتنا، عند الحديقة! ولا تسألوني كيف كان تخميني صحيحا! فعليك أن تتحدث بصوت عال وإلا راحت كلماتك هدرا، وتبخرت عاليا نحو السقف الزجاجي، الذي كان بدوره أعلي بكثير من أن يكون سقف مطعم. وقد تجد في ارتفاعه هذا عبثاً، إذا لم تكن تعلم تاريخ هذا البناء. فقد كان في السابق مصنع ألبان، أم أنه كان محطة صرف صحي، لا أدري يقيناً.

مد المدير إصبعه الصغير مشيراً إلي شيء ما على طاولتنا. ظننت في البداية أنه يشير نحو موضع الشمعة الموضوعة لتدفئة الشاي. كل طاولة هنا عليها مدفئ شاي بديلاً عن الشموع، ولكن لا. فقد كان الإصبع الصغير يشير إلي طبق الزيتون الذي من الواضح أنه قد وضعه للتو. وعلي كل حال، أنا لا أذكر أنه كان هنا من قبل، ليس حينما سحب لنا المقاعد لنجلس. فمتي وضع

Twitter: @alqareah

الزيتون على الطاولة؟ انتابني فزع عابر حينئذ. لاحظت أن هذا الأمر صار يحصل لي مؤخراً. حيث تتبدد بغتة قطع من البازل في حياتي، قطع من الزمن، لحظات خاوية خلالها تتوه أفكاري.

– هذا زيتون يوناني من بيلوبونيسي، كان محفوظًا في زيت زيتون بكر من ساردينيا، وتم تلميعه بالروزماري من..

مال المدير فوق طاولتنا قليلاً وهو يتحدث، ورغم هذا كنا نسمعه بصعوبة، بل إننا لم نسمع آخر كلمات في جملته، وهكذا بقي مصدر الروزماري سراً غامضًا لا نعرفه. وأنا في العادة لا ألقي أي بال لهذا النوع من المعلومات. ولا فارق عندي بين أن تأتي الروزماري من الرور أو الأردينيس، كما أنه يثرثر كثيراً حول طبق زيتون صغير، ولكني لا أنوي أن أفلته دون عقاب بهذه السهولة.

ثم ما هذا الخنصر الصغير؟ كيف يمكن لأحد أن يستخدم الخنصر في الإشارة إلى أي شيء؟ وهل لهذا معنى معين؟ هل لهذا علاقة بهذه البدلة الزيتونية المقلمة بالأزرق أم أن لديه ما يخفيه؟ فقد كانت بقية أصابعه مختفية عن ناظرينا طوال الوقت؛ وكان يبقيها مضمومة، بعيداً عنا، ربما كان مصاباً بالأكزيما أو يعاني من أعراض مرض لا علاج له.

قلت له:

– تلميعه؟

– أجل، تلميعه بالروزماري. تلميعه يعني أنه..

– أعلم ما يعنيه هذا.

يبدو أن نبرة المقاطعة هذه كانت عالية نسبياً، فقد توقف رجل وسيدة في الطاولة المجاورة عن الكلام للحظات وهما ينظران إلينا. كان الرجل ملتحيًا بلحية مبالغ فيها، تكاد تغطي وجهه بالكامل، أما السيدة فبدت أصغر سناً منه بكثير، وواضح أنها في أواخر العقد الثاني من عمرها؛ قلت لنفسي إنها زوجته

Twitter: @alqareah

الثانية، أو ربما التقطها من مكان ما وأتي بها إلي هنا ليتباهي أمامها ليس إلا. كررت ولكن بصوت خفيض هذه المرة:

- أنا اعرف معني كلمة تلميع. أنت تقصد غسله بالطبع، وليس التلميع الذي نقصده عندما نتحدث عن الأحذية مثلا..

لمحت بطرف عيني "كلير" وقد انشغلت بالتحديق عبر النافذة. لم تكن الأمور تجري على نحو مريح بالنسبة لها؛ لقد فسدت الأمسية بالفعل، ولا ضرورة لأن أزيد أنا الطين بلة، حتى ولو لأجل خاطر زوجتي.

إلا أن المدير قام بأمر لم أتوقعه. كنت أنتظر أن يفغر فاه في دهشة واستغراب، وأن ترتجف شفته السفي وربما يحمر وجهه، وبعدها يتمتم بكلمات اعتذار مبهمة، كلمات تعلم أن يتمتم بها كنوع من بروتوكول التعامل مع الضيوف الوقحين أمثالي. ولكنه، وبدلاً من كل ذلك، انفجر ضاحكاً. الأغرب أنها كانت ضحكة حقيقية صافية، وليست مصطنعة أو حتى متأدبة.

بعدها قال وهو يضع يده على فمه:

- أنا متأسف.

لا تزال أصابعه مضمومة كما كانت وقت ان أشار ناحية الزيتون منذ برهة، ووحده الخنصر ممدود.

- لم يخطر لي أن أفكر في هذا المعني من قبل.

Twitter: @alqareah

6

سألت "كلير":

- ما هي حكاية بدلة هذا الرجل؟

كان هذا بعد أن اتفق كلانا على تناول مشروب المطعم وانصرف المدير بعيداً عن طاولتنا.

مدت "كلير" يدها تربت على خدي برقة:

- حبيبي..

- لا، اسمعيني، هذا غريب، إنه يرتديها لسبب مقصود، أليس كذلك؟ لا تقولي لي إنه ليس له غرض من وراء ذلك.

اكتفت زوجتي بابتسامة ودودة، من النوع الذي تستعين به دوماً حينما تري أنني أبالغ في رد فعلي على أمر لا يستحق. ابتسامة تخبرني من خلالها أنها تجد كل هذا مسلياً، ولكن على ألا أفكر ولو للحظة أنها ستأخذه على محمل الجد.

- ثم ما هذا؟ مدفئ شاي؟! لماذا لا يضعون دبدوبًا بالمرة؟ أو يخصصون حارساً صامتاً لكل طاولة؟

تناولت "كلير" زيتونة "بيلوبونيسية" ووضعتها في فمها:

- مممم.. لذيذة. ولكنك تشعر في طعمها بمذاق الروزماري، وهذا هو عيبها.

Twitter: @alqareah

الآن جاء دوري لابتسم؛ فقد أخبرنا المدير أنهم يزرعونه في صوبة زجاجية خلف المطعم، وقلت لها وأنا أفتح المينيو:

- ألم تلحظي كيف كان يشير نحو الطبق بإصبعه الخنصر طوال الوقت؟

ما كنت أنتويه في الواقع هو مجرد إلقاء نظرة على أسعار المقبلات. وكم تدهشني الأسعار في مطاعم مثل هذا المطعم. وهنا على أن أبادر فأصارحكم أنني لست بخيلا بالفطرة، فلا علاقة لهذا الأمر به؛ ولن أدعي أن المال ليس مهما، ولكنني على بعد سنين ضوئية عمن يرون أن من "مضيعة المال" تناول الطعام في مطعم في حين أن بمقدورك "أن تطهي في المنزل أطباقًا أفضل". كلا، من يقولون هذا لا يفهمون أي شيء، وليس لهم علاقة لا بالطعام ولا بالمطاعم.

اندهاشي هنا يعود إلي ما أسميه ذلك الانفصال التام بين الطبق نفسه والسعر الذي عليك أن تدفعه لأجله. كما لو أن هذين المتغيرين؛ المال من ناحية، والطعام من ناحية أخري، لا علاقة تربطهما ببعضهما، وكأنهما في عالمين مختلفين؛ فمن الغريب أن يضمهما مينيو واحد بين دفتيه.

هذا هو ما كنت أنتويه. سأقرأ أسماء الأطباق، ومن ثم الأسعار المطبوعة أمامها، ولكن عيني تعلقت بشيء في الصفحة اليسري.

أخذت أنظر وأنظر، ثم تلفت حولي أنظر في أرجاء المطعم لعلي ألمح بدلة المدير.

سألتني "كلير":

- ما الأمر؟

- ألم تلحظي ما هو مكتوب هنا؟

نظرت إلي زوجتي في استغراب.

- مكتوب، المشروب المخصوص.. 10 يورو.

- أوه!

Twitter: @alqareah

- ولكن هذا جنون، أليس كذلك؟ لقد قال الرجل بأنه يود أن يقدم لنا مشروب المطعم المخصوص. ومشروب المطعم هو شامبانيا وردي، أليس من الطبيعي هنا ومن كلامه أن يكون هذا المشروب على حساب المطعم، أم أنني أهذي؟ فمن يقدم لك شيئاً عليك أن تقبله. فلا يمكن أن تقول لي إني أقدم لك هذا، وبعدها تخبرني بأن ثمنه 10 يورو. الطبيعي أن يكون مجاناً!

- كلا، انتظر لحظة، ليس هذا هو الحال دائما. فلو أن المينيو يقول "ستيك ألا ميزون"، فإن هذا يعني أنه طبق ستيك يعده المطعم بطريقة خاصة وبوصفة ينفرد بها. لا، ليس هذا مثالاً جيدًا.. النبيذ الخاص! نبيذ المطعم. هذا لا يعني أنك تحصل عليه مجاناً، أليس كذلك؟

- حسناً، لا بأس، هذا واضح. ولكن هذا مختلف. فأنا لم أجد فرصة لمطالعة المينيو، وإذا بي أجد من يسحب لي المقعد مرتديا بدلة من ثلاث قطع، ثم يضع طبق زيتون لا قيمة له وبعدها يعرض عليك مشروب المطعم. أليس في هذا لخبطة للعقل؟ ثم أنه يقولها بنبرة من يهديك شيئاً ولا يعرفك بأنك ستدفع مقابل ذلك 10 يورو. 10 يورو! عشرة! انظري إلي الأمر من هذه الزاوية. هل كنا سنطلب كأساً من الشامبانيا الوردي لو أننا نعرف أنه سيكلفنا 10 يورو؟

- طبعا لا.

- هذا ما أقصده؛ إنهم يحتالون عليك بعبارة مشروب المطعم المخصوص.

- معك حق.

نظرت إلي زوجتي، فوجدتها تنظر إلي بصدق:

- لا، أنا لا أقصد أن أهدئك وحسب، بل معك حق. الأمر فعلاً مختلف عن الستيك ألا ميزون أو النبيذ المخصوص. فعلاً غريب. وكأنهم متعمدون، ليروا إن كنت ستنخدع بذلك أم لا.

- كنت على حق إذن.

Twitter: @alqareah

وعلي البعد شاهدت البدلة ذات الثلاث قطع وهي تمرق إلي المطبخ المفتوح؛ فرفعت يدي ولوحت، ولكن لم يلحظني سوي تلك الفتاة ذات المريلة السوداء. فهرعت نحونا.

قلت لها وأنا أقدم لها المينيو:

- اسمعيني جيداً.

كنت أنظر بطرف عيني إلي "كلير". ربما طلبا لمساندتها، لتقديرها، وربما مجرد نظرة متفهمة، نظرة تقول بأن لا سبيل لأحد أن يخدع كلينا، ليس حينما يتعلق الأمر بما يسمونه مشروبًا مخصوصًا من المطعم. غير أنني وجدت عينيها تنظران إلي شيء ما بعيداً عني، شيء خفي، عند مدخل المطعم.

- لقد وصلا.

Twitter: @alqareah

7

عادة ما تجلس "كلير" في مواجهة الحائط، ولكننا هذه الليلة فعلنا العكس.

- لا، لا، الآن حان دورك لتغيري موضع جلوسك.

قلت لها عندما سحب المدير مقعدينا، واتجهت هي تلقائيا نحو المقعد المطل على الحديقة.

دوماً ما أكون أنا من يجلس وظهري إلي الحديقة أو الجدار أو المطبخ المفتوح، وذلك لسبب بسيط ألا وهو أنني أريد أن أكون قادراً على رؤية كل شيء. و"كلير" تحب أن تتركني أفعل ما يحلو لي. تعلم أنني أمقت أن أبقي محدقاً في الجدران أو الحدائق، وأنني أفضل أن أراقب الناس.

- أتريد أن تجلس هنا؟

قالت لي والمدير واقف ينتظر في أدب، ويداه خلف ظهر المقعد الذي ينظر نحو بقية أرجاء المطعم.

لا أقول إن "كلير" قد غيرت من طريقتها في إرضائي. بل هو شيء بداخلها، نوع من الهدوء الداخلي أو العمق الذي يجعلها راضية بالجلوس قبالة جدران فارغة ومطابخ مفتوحة، أو ـ مثلما هو الحال هنا ـ مع رقع قليلة من العشب بين مسارات الحصي، وبركة مستطيلة وعدد قليل من أحواض النباتات خارج نافذة تمتد من السقف الزجاجي حتى الأرض. لابد أن هناك أشجارًا أيضا، في

Twitter: @alqareah

مكان ما، إلا أن الظلام الذي بدأ يرخي أستاره والزجاج العاكس يجعل من المستحيل بالنسبة لي أن أحدد مكانها.

يبدو أن هذا هو كل ما تحتاجه: هذا، ومطالعة محياي.

- ليس الليلة.

فكل ما أود أن أراه الليلة هو أنتِ، كنت أود أن أضيف لها هذه العبارة، ولكنني عجزت عن أن أبوح بها والمدير واقف أمامنا ببدلته المقلمة هذه.

كل ما أردته ذلك المساء هو تأمل وجه زوجتي، ولكن كان هناك سبب آخر، ليس مهماً، دفعني إلي الجلوس مطلاً على الحديقة. فهذا يعني أنني لن أشهد دخول أخي للمكان بكل طقوسه؛ الصخب عند الباب، والتذلل المتوقع من جهة المدير وفتياته ذوات المرايل، ردود أفعال بقية الضيوف. ولكن عندما جاءت تلك اللحظة في نهاية المطاف، وجدت نفسي أحول وجهة مقعدي وأتابع تلك الطقوس رغماً عني.

انتبه الجميع، بطبيعة الحال، لوصول "آل لومان". بل كان هناك ما يمكنك أن تصفه بالتجمهر عند المدخل؛ ثلاث فتيات في المريلات السوداء تتنافسن على تدليل "سيرجي" و"بابيت"، بينما يحوم المدير حولهما. وكان هناك شخص آخر أيضاً؛ رجل ضئيل الحجم ذو شعر رمادي خشن، لا يتشح هو الآخر بالسواد من أعلي رأسه لأخمص قدميه، بل يرتدي ببساطة الجينز وفوقه قميص قطني أبيض بياقة مدورة. خمنت أنه صاحب المطعم.

أجل، لابد أنه صاحب المطعم، فقد تقدم ليرحب بحرارة بـ"سيرجي" و"بابيت".

أخبرني "سيرجي" منذ بضعة أيام بأنه معروف هناك. وهو يعرف ذا القميص الأبيض، الذي لا يخرج من مطبخه المفتوح ليرحب بأي شخص والسلام.

أما بقية ضيوف المكان فتظاهروا بعدم الانتباه. فربما كانت قواعد الإتيكيت، في مطعم يكون عليك فيه أن تدفع عشرة يورو مقابل كأس مشروب

Twitter: @alqareah

فاتح للشهية، لا تسمح بالبوح بمثل هذا الاهتمام. بدا أن كل واحد وواحدة منهم تعمد أن يميل لمسافة محسوبة نحو طبقه، ويبذل قصاري جهده للاستمرار في أحاديث وهمية، لتجنب أن يخيم الصمت عليهم، هذا لأن صوت الهرج والمرج قد ارتفع بشكل مسموع في المكان كله.

وبينما يصاحب المدير ـ فقد اختفي أبو ياقة مدورة بيضاء مرة أخري في المطبخ ـ "سيرجي" و"بابيت" عبر الموائد، بدا لي الجمع كأنهم موجة بالكاد محسوسة تمرق عبر المطعم، نسيم هب عبر سطح البركة الرائق، رياح لطيفة تداعب حقل حبوب. هذا أقرب تشبيه رسمه عقلي لما أراه أمامي.

ارتسمت على محيا "سيرجي" ابتسامة عريضة وهو يفرك يديه ببعضهما، بينما بقيت "بابيت" على مسافة خطوات وراءه. وخمنت من خطواتها القصيرة التي تخطوها وراءه أن كعب الحذاء أعلي مما ينبغي.

- "كلير"!

اقترب فاتحاً ذراعيه، وكانت زوجتي قد نهضت عن مقعدها بالفعل، وتبادلا ثلاث قبلات على الخدين كما هي العادة. اضطررت إلي النهوض بدوري، فبقائي جالساً أمر سيستدعي مني البحث عن عديد من التفسيرات.

صحت وأنا أجذب زوجة أخي من مرفقها:

- "بابيت"..

الحقيقة أنني كنت أعتمد على أن تدير خدها ناحيتي لأجل القبلات الثلاث التقليدية، على أن تقبل الهواء جوار خدي، ولكنني وبدلاً من ذلك شعرت بانطباع فمها على خدي الأيمن، ثم على خدي الأيسر، والثالثة جاءت قوية نوعاً ما، ليست على فمي بالضبط، ولكن جواره مباشرة، بدرجة اقتراب خطيرة من الفم. نظرنا إلي بعضنا؛ كانت ترتدي نظارة، كما هي عادتها، ولكنها بدت مختلفة عن تلك التي كانت ترتديها آخر مرة رأيتها فيها. على الأقل لا أتذكر أن نظارتها كانت ذات عدستين داكنتين كهذه.

Twitter: @alqareah

كما سبق لي أن أخبرتك، فإن "بابيت" من النساء اللاتي يليق عليهن أي شيء، حتى النظارة. غير أنها هذه المرة مختلفة، شيء ما متغير فيها. وكأنه تغيير في ديكور غرفتك لا تلحظه عند النظرة الأولي، ولكنك سرعان ما تدركه إن أنت أرجعت بصرك كرّتين.

كما أنها تمتلك حضوراً قوياً لا يستهان به. أعرف رجالاً كانوا يشعرون بالخوف أو على الأقل التوجس من شخصيتها. هي لم تكن بدينة، كلا؛ ولا علاقة للسمنة أو النحافة بهذا الحضور الطاغي، ويمكنك أن تقول إن هناك تناغم، تناغمًا واضحًا في تقاسيم جسدها. ولكن كل شيء فيها كبير عريض؛ يديها، قدميها، رأسها؛ كل شيء كبير جدا وعريض جدا، وهكذا يلجأ كل من يراها من الرجال إلي تلميحات حول الحجم والطول والعرض والسمك في أرجاء جسدها، كما لو أن هذه هي وسيلتهم التي يتوسلونها للتخفيف مما يمثله حضورها القوي أمامهم من تهديد.

في الثانوية كان لي صديق طوله متران. ومازلت أذكر كم كان يرهقني أن أقف إلي جوار شخص يظللني كشجرة باسقة أو برج شامخ، وكأنني أحتمي في ظله – حرفيا – وكأنه بدوره يمنع عني أشعة الشمس. حتى خيل إلي أحياناً أنني قد حرمت نصيبي منها. هذا بالطبع خلاف ما أصاب رقبتي من تصلب بسبب اضطراري إلي أن أمطها لأعلي بين الحين والآخر كلما حاولت أن أنظر إلي وجهه، ولكن هذا كان أهون الأمور. فكنا خلال الصيف نمضي الإجازة معاً؛ ورفيق الثانوية هذا لم يكن ضخم الحجم، بل نحيفًا فارع الطول فحسب، وكنت أعاني مع كل حركة يقوم بها سواءً بذراعيه أو ساقيه، أو قدميه حينما تبرزان من حقيبة النوم وصولاً إلي حقيبتي التي أنام فيها. معاناة كنت أشعر بأنني سبب فيها نوع ما، وخاصة حينما أستيقظ صباحاً فأجد قدميه بارزتين من مدخل الخيمة التي نبيت تحتها. كيف لهم ألا يصنعوا خياماً أكبر حجماً، حتى يتسني لكائن مثله أن ينام أسفلها بكل أمان؟!

Twitter: @alqareah

عندما أتواجد مع "بابيت" في مكان واحد أتعمد دوماً أن أبدو كبير الحجم في نظرها، فأتطاول بقامتي أو أنفخ كل عضلة في جسدي. فأنا أريد أن أكون "على قدم المساواة" معها؛ نداً لند.

قرصت ذراعي وهي تقول:

- تبدو بأحسن حال.

إن تبادل المجاملات حول المظهر أمر لا غضاضة فيه بين الرجال والنساء في كل مكان وزمان، ولكنه مع "بابيت" – وكما اكتشفت عبر السنين – يعني الكثير. فهي لا تعلق على مظهرك مجاملة أبداً، بل تقرر الحقيقة كما تراها، وويلك إن كانت تراك في حالة مزرية؛ فعندها لن تتواني عن فضح ذلك بصوت عال.

وهكذا، شعرت عندما قالت لي إنني أبدو على أحسن حال بأن على أن أبدي بدوري رأيي في مظهرها، أو بالأحرى أن ألقي بالاً لهذا الأمر بصورة تفوق المعتاد.

فتطلعت ثانية إلي عينيها، من وراء تلك النظارة التي تعكس عدستاها منظر المطعم كله تقريباً. فعليها تري مرتاديه، والمفارش البيضاء، ومدافئ الشاي.. أجل، ها هي عشرات مدافئ الشاي تلتمع في العدستين، وقد تبين لي الآن أنهما داكنتان في الجزء العلوي منها فحسب. وتخف هذه الدكانة تدريجياً من أعلي لأسفل، وهكذا كنت أرى عيني "بابيت" بوضوح.

كان اللون الأحمر يكسو حوافهما، وكانتا أكبر من المعتاد. علامة لا يخطئها لماح على أنها كانت تبكي بشدة منذ وقت ليس ببعيد، بل هو بكاء انتهي للتو، بكاء داخل السيارة، في الطريق إلي المطعم.

ربما تمهلت داخل موقف السيارات وحاولت أن تخفي آثاره، ولكن واضح لي أن هذه المحاولة لم تجدِ. ربما غابت هذه الحقيقة عن صاحب المطعم بقميصه القطني الأبيض وعن المدير صاحب البدلة ذات القطع الثلاثة وفتياته المتشحات بالسواد عند استقبالها، بسبب هذه النظارة الداكنة، ولكنها لم تغب عني أنا.

Twitter: @alqareah

أيقنت في تلك اللحظة أن "بابيت" لا تحاول أن تخفي هذا عني. فقد كانت قريبة مني على غير المعتاد، وكادت تطبع قبلة على شفتي. ولم يكن أمامي سوي النظر إلي عينيها الدامعتين وأن أستخلص بنفسي التفسيرات.

رمشت بعينيها وهي تهز كتفيها. وهذا – بلغة الجسد – يعني: "أنا آسفة".

وقبل أن أتفوه بأية كلمة اقتحم "سيرجي" المشهد، وهو يكاد يدفع زوجته بجسده بينما مد يده يصافحني بقوة. لم يسبق له أن صافحني بهذه القوة، ولكنه أدرك في السنوات الأخيرة أن عليه التعامل مع "أهل هذه البلد" بقبضة قوية؛ فهم لن يمنحوا أصواتهم أبداً لصاحب اليد الطرية.

- "بول".

كان لا يزال يبتسم، ولكنها ابتسامة رتيبة من دون إحساس. تكاد تري أوامر مخه وهي تردد: حافظ على هذه الابتسامة. كانت ابتسامة من نفس نوعية هذه المصافحة. وهما معا، وبعد سبعة أشهر من اليوم، سيقودانه إلي نصره الانتخابي. وحتى لو قدر لهذا الرأس أن يرشق بالبيض الفاسد، فحتما ستبقي هذه الابتسامة كما هي. وحتى من وراء بقايا فطيرة يسحقها على وجهه أحد الناشطين الغاضبين، ستجد أنها ابتسامة وجدت لتبقي، وأنها لن تتلاشي أبداً من أمام الناخبين.

- مرحبا، "سيرجي". كيف حالك؟

كانت "كلير"، ومن خلف ظهر "سيرجي"، تتبادل التحية مع "بابيت". تبادلتا القبل – أقصد أن زوجتي هي من قبلت خدي زوجة أخي زوجها – والأحضان، والنظرات.

فهل لاحظت "كلير" ما لاحظته أنا؟ هل لاحظت نفس الحزن الأحمر اللون من وراء النظارة الداكنة؟ ولكن "بابيت" كانت في تلك اللحظات تضحك بابتهاج، وفاتني أن أرى كيف تظاهرت بتقبيل خدي "كلير"، دون أن تقبلهما حقاً.

Twitter: @alqareah

جلسنا. "سيرجي" قبالتي وإلي جوار زوجتي، بينما غاصت "بابيت" – وبمساعدة من المدير – في المقعد المجاور لي. لمحت واحدة من المتشحات بالسواد "سيرجي" وهو واقف للحظة ويده في جيبه ينظر عبر أرجاء المطعم، قبل أن يقرر الجلوس أخيراً.

قال المدير:

– المشروب المخصوص لهذا اليوم هو شامبانيا وردي.

تنهدت بعمق، ويبدو أن التنهيدة كانت عميقة لدرجة لاحظتها زوجتي، فنظرت لي نظرة تحاول بها أن تخبرني بالكثير. هي نادراً ما تلجأ إلي قلب عينيها أو النحنحة بحنجرتها، ولم يسبق لها أبداً أبداً أن ركلتني من أسفل الطاولة في قدمي تحذرني من أن أبادر بحماقة لا داعي لها. كلا، هي ليست من هذا النوع.

كانت عيناها الذكيتان تقولان "لا"، بنظرة تغيب حتما عن اللاهي، نظرة تمزج الخبث بالنصيحة المخلصة.

"لا".

وبينما قالت "بابيت" ببهجة:

– مممم.. شامبانيا.

أجابه "سيرجي" بكل ثقة الدنيا:

– حسنا.. لا بأس.

غير أنني وجدت نفسي أقول:

– انتظر لحظة.

Twitter: @alqareah

8

استعرض علينا مدير المطعم:

- هذه استاكوزا متبلة في صوص خل الطرخون بزيت الزيتون وقطع البصل الأخضر.

كان واقفاً عند طبق "سيرجي" الآن، مشيرا بخنصره:

- وهذا مشروم التشانتيريليس من فوج.

يتقافز الخنصر فوق الاستاكوزا مشيراً إلي قطعتي مشروم بني، مقطعتين بالطول، وبدا الـ"تشانتيريليس" كما لو أنه قد اجتث من الأرض منذ بضع دقائق فحسب، فهذا الملتصق بأسفله لا يمكن أن يكون سوي طين الأرض.

أشهد أنه يعتني بيديه جيداً هذا الرجل، وهذا ما تيقنت منه وهو يفتح زجاجة (تشابليس) التي طلبها "سيرجي". وعلي الرغم من شكوكي السابقة، فلم يكن لديه ما يخجل من إظهاره لنا؛ بشرة يده نظيفة، وأظافر معتني بها، ولا يرتدي أية خواتم، لا أثر لأي شيء مزمن، ولكنها مع ذلك يد غريب، وشعرت

Twitter: @alqareah

أنها تقترب أكثر مما ينبغي من طعامنا، فتحوم فوق الاستاكوزا، ويكاد الخنصر يلامس الـ"تشانتيريليس".

لا أعتقد أنني سأجلس خاضعًا لهذه اليد، وتلك الخنصر، تحوم فوق طبقي، ولكنني تمالكت أعصابي لخاطر ألا تفسد هذه الأمسية.

هكذا حسمت أمري؛ سألتزم ضبط النفس. سأكون رابط الجأش، وكأني أحبس أنفاسي تحت الماء، وسأتصرف كما لو أن لا غرابة على الإطلاق في تلك اليد الغريبة التي تحوم فوق طبقي.

ولكن وللأمانة، فقد بدأت أفقد أعصابي، وذلك بسبب الوقت الطويل الذي يستغرقه. فحتى وهو يفتح زجاجة التشابليس، كان المدير يتقافز حولنا. أولاً حينما وضع المبرد - ذلك السطل ذو المقبضين الذي تضعه على حافة الطاولة، مثل كرسي طفل- وحينما قدم لنا الزجاجة، إلي "سيرجي" بالطبع. وكان "سيرجي" قد استأذننا في أن يختار هو النبيذ، على الأقل كان متحضراً بما يكفي لأن يقوم بذلك، غير أن ما يغيظني أشد الغيظ هو هذا التظاهر المتعالي بأنه خبير في شؤون النبيذ.

لا أستطيع أن أتذكر بالضبط متي قدم نفسه لنا كذواقة، ويبدو لي أن هذه الموهبة قد تقمصته فجأة. فما بين عشية وضحاها صار هو من يلتقط قائمة النبيذ ويتمتم شيئا عن ذلك "الطعم الترابي" للنبيذ البرتغالي وارد أليتيجو، إنه شيء أقرب إلي انقلاب دكتاتوري، فمنذ ذلك اليوم صارت قائمة النبيذ قائمة تنتقل تلقائيا في يد "سيرجي".

بعد أن قدمها لنا ونال رضا أخي، بدأ المدير يفتح الزجاجة. فأدار الفتاحة، فاتضح لي على الفور أنه ليس خبيراً أبداً في الفتح. حاول التمويه على ذلك بعض الشيء بهز كتفيه والضحك على لخبطته، ولكني أيقنت من حيرته أن هذه هي أول مرة يقع في هذه الورطة.

أخيراً قال مستسلماً:

Twitter: @alqareah

- يبدو لي أن الزجاجة ترفض التعاون.

الآن صار المدير أمام معضلة؛ هل يحاول أن يجذب السدادة بقوة، هنا على الطاولة، تحت أعيننا المراقبة أم أنه سيكون من الحكمة أن يعود بالزجاجة إلي المطبخ المفتوح ليطلب مساعدة خبير؟

ومع الأسف لم يفكر في أبسط حل؛ أن يدفع السدادة العنيدة لأسفل إلي داخل الزجاجة بمقبض شوكة أو ملعقة. وقد تكتشف بعد ذلك وجود سدادة فلين في زجاجتك، وماذا في ذلك؟ من سيهتم؟ كم هو ثمن زجاجة تشابليس هذه؟ ثمانية وخمسون يورو؟ إن السعر لا يعني شيئا على أي حال. أو على الأكثر يعني بالنسبة لك أنك مضحوك عليك، وأنك في الغالب ستجد الزجاجة نفسها على رف أي سوبر ماركت وعليها السعر: 7.95 يورو أو أقل.

قال لنا:

- معذرة، سوف أحضر زجاجة أخري لكم.

ثم هرع قبل أن نتفوه بكلمة عبر بقية الموائد.

فقلت:

- آه، حسناً. أرى أن هذا المطعم أشبه بمستشفي. فها نحن نصلي لأجل أن تأخذ إحدي الممرضات عينة الدم وليس الأخصائي بنفسه.

ضحكت "كلير" بصوت عال، وكذلك ضحكت "بابيت"، وقالت:

- إنني مشفقة عليه.

أما "سيرجي"، فقد جلس واجماً. كانت النظرة على وجهه محزنة، كما لو أنك أخذت منه شيئا عزيزاً عليه؛ لعبته الأثيرة، فرصته للتباهي بخبرته في النبيذ والعنب الأصيل. هكذا انعكست لعثمة المدير، بشكل غير مباشر، فهو بنفسه الذي اختار الزجاجة ذات الفلينة الفاسدة. كان يطمع في عملية منظمة؛ قراءة الملصق، إيماءة الموافقة، ثم ما سيقوم المدير بصبه في كأسه. وهذه الخطوة

Twitter: @alqareah

الأخيرة هي الأهم، وهي التي لم أعد أحتملها بعد الآن، لا أن أراها ولا حتى ان أسمعها؛ تلك الشمشمة، والمضمضة، ورشفة النبيذ التي سيتلاعب بها أخي بلسانه قبل أن تجد طريقها إلي المريء، ومن ثم العودة مرة أخري. كان على دائما أن أشيح بوجهي بعيداً.

قال لنا:

– لنأمل ألا يكون في الزجاجة الجديدة المشكلة نفسها. سيكون هذا مؤسفاً، فهو نبيذ ممتاز حقاً.

واضح أنه في حالة يرثي لها. فهو الذي اختار هذا المطعم، وهم يعرفونه هنا، الرجل ذو الياقة المدورة البيضاء يعرفه بل خرج خاصة من المطبخ المفتوح لمصافحته. وتساءلت عما كان سيحدث لو كنت أنا الذي اخترت المطعم، مطعمًا مختلفًا، مطعمًا لم يرتده من قبل، وتساءلت عما سيحدث لو أن مدير ذلك المطعم أو نادله فشل في نزع سدادة النبيذ في جذبة واحدة. يمكنك الرهان على حياتك أنه سيبتسم في شفقة، ثم يهز رأسه، طبعا، أجل، فأنا أعرف أخي جيدا بما فيه الكفاية الآن، وكان سينظر لي نظرة برسالة تقول: أنت "بول"، تأخذنا دائما إلي أغرب الأماكن.

نعرف ساسة كبارًا هوايتهم الطهي، وشغل المطبخ، وجمع قصص الكوميكس، أو امتلاك قارب خشبي صنعه السياسي بنفسه. وعادة ما تكون الهواية التي يختارونها على النقيض من الشخصية التي يعرفها العامة لهذا السياسي. فلا تتعجب من أن تري شخصية لها كل الكاريزما والهيبة وقد استحالت فجأة طاهيا لأطباق فرنسية رائعة في منزله في وقت فراغه، ليصدر ملحق الجريدة الأسبوعي لجريدتك وعلي غلافه صورته بالألوان الكاملة، وهو يرتدي قفازات الفرن ويمسك بطاسة مليئة برغيف محشو باللحم الممتاز. وما سيلفت نظرك، بخلاف المريلة التي عليها صورة لإحدي لوحات (تولوز لوتريك)، هي ابتسامته المصطنعة، وكأن لا بهجة ولا متعة يجدها في حياته إلا وهو متقمص لدور طباخ. فهي ليست ابتسامة بقدر ما هي انفراجة فم يخشي

Twitter: @alqareah

أن تظهر أسنانه، وهي من النوع الذي ترسمه على وجهك حينما تستحيل عجوزاً هرماً وطال عمرك فقط لتبوح بذكرياتك لغيرك، كما أنها وقبل كل شيء تدل على ارتياح وسعادة لأن رغيف اللحم لم يحترق ويتفحم في الفرن.

ما الذي كان يدور في عقلك يا "سيرجي" حينما قررت أن يكون النبيذ هو هوايتك؟ سيأتي يوم وأسأله عن هذا. وربما أسأله هذا المساء. حرصت على ألا أنسي هذا، وحتى لو أن هذه اللحظة غير مناسبة للسؤال، إلا أن الليلة لا تزال في بدايتها.

عندما كنا صغارا ولا نزال في منزل الأسرة كان لا يشرب سوي الكولا، وبكميات كبيرة، ولا مشكلة لديه في أن يجرع زجاجة عائلية كبيرة كاملة خلال العشاء. ثم يأخذ في التجشؤ بصورة مستمرة، وبصوت عال، حتى يؤمر بالتزام غرفته، وهناك يستمر في التجشؤ لعشر ثوان متصلة أو أكثر، بأصوات مثل هزيم الرعد الذي يتفجر من مكان ما في أعماق بطنه. وهو ما أكسبه شهرة في مدرستنا، بين الفتيان، الذين يعرفون أن أكثر ما يضايق الفتيات هو التجشؤ والفساء.

وكانت الخطوة التالية تحول دولابه الفوضوي إلي قبو للنبيذ. فقد اشتري أرففاً لرص الزجاجات عليها، حتى "يعتق" النبيذ، على حد تعبيره. وعندما يكون لدينا ضيوف على العشاء يبدأ في إلقاء محاضرات عن النبيذ الذي نقدمه. وكانت "بابيت" مأخوذة بذلك؛ وربما كانت هي أول من سبر أغواره، وأول من لا يؤمن به تماما ولا بهوايته. وأتذكر أنني ذات مرة اتصلت بهما لأتحدث مع "سيرجي" وردت على في تلك الظهيرة "بابيت". فلم يكن "سيرجي" موجودا هناك.

أخبرتني:

- إنه يتذوق النبيذ في لوار فالي.

كان هناك شيء ما في نبرة صوتها، في طريقة نطقها لعبارتي "يتذوق النبيذ" و"لوار فالي". فهي نبرة تستخدمها المرأة عندما تخبرك بأن زوجها لا يزال في المكتب يعمل، بينما هي تعلم بأنه يخونها ومنذ عام مع سكرتيرته.

Twitter: @alqareah

قلت لكم من قبل إن "كلير" أذكي مني. ولكنها لا تلومني على أنني لست على نفس قدر ذكائها. ما أقصده هو أنها لا تتعالى على أبداً، ولا تتنهد بعمق أو تقلب عينيها في فروغ صبر عندما لا "أفهمها وهي طايرة". فمن الواضح أن لا سبيل لدي لأعرف كيف تتحدث عني في غيبتي، ولكنني متيقن تماماً من أن "كلير" لن تستخدم أبداً تلك النبرة التي وجدتها في صوت "بابيت" يوم أن أخبرتني:

– إنه يتذوق النبيذ في لوار فالي.

وما أعنيه أيضاً أن "بابيت" أذكي من "سيرجي" بكثير. ولن أخوض في هذا كثيراً، ولكنها حقيقة تفرض نفسها. فكل ما أود أن أحكيه لك هنا عبارة عن أشياء سمعتها ورأيتها خلال تواجدنا معاً في ذلك المطعم، في تلك الأمسية.

Twitter: @alqareah

9

- هذا الطبق معد من اللحم بعد ان نقعنا رقبة الحمل في زيت الزيتون المستورد من سردينيا وقمنا بتغطيته بالبقسماط وأضفنا اليها طماطم مجففة ومستوردة من بلغاريا.

هكذا شرح المدير، الذي كان قد وصل الآن إلي طبق "كلير" ويشير بخنصره إلي قطعتي لحم لا تكاد تراهما بالعين المجردة.

أول ما يلفت انتباهك في طبق "كلير" هو ذاك الفراغ الشاسع. أنا بالطبع مدرك أنك حينما تكون في أفضل المطاعم فعليك أن تتوقع أسبقية للكيف على الكم، ولكني لا أرى أمامي سوي خواء يتبعه خواء. فأيقنت أن المبدأ هنا هو إبراز جمال الفراغ في أطباق الطعام، هي مسألة مبدأ إذن.

وكأن الطبق الفارغ يتحداك أن تقول شيئًا عنه، أن تتشجع وتتوجه إلي المطبخ وتعترض أو تطلب تفسيرًا. إنه يقول لك: "أتحداك أن تجرؤ على ذلك!"، ويسخر منك.

حاولت أن أتذكر السعر؛ كان ثمن أرخص فاتح شهية هو تسعة عشر يورو، والمقبلات تتراوح بين ثمانية وعشرين إلي سبعة وأربعين يورو. ومن ثم هناك ثلاث قوائم محددة ما بين سبعة وأربعين، وثمانية وخمسين وتسعة وسبعين يورو.

- هذا جبن ماعز دافئ مع صلصة الصنوبر والجوز.

Twitter: @alqareah

كانت اليد ذات الخنصر قد وصلت الآن إلي طبقي أنا. وقاومت بشدة الرد: "أعرف هذا، لأن هذا هو ما طلبته"، ولكني كنت مركزا على الخنصر.

كان المدير قد اختار في النهاية الحل الأسهل وعاد إلينا من المطبخ المفتوح بزجاجة جديدة، وكانت سدادتها بارزة أكثر من عنقها.

فبعد قبو النبيذ والرحلة الي لوار فالي، اجتاز تلك الدورة التدريبية عن النبيذ والتي كانت مدتها ستة أسابيع. ليس في فرنسا، ولكن في أحد الفصول الدراسية في مدرسة ليلية. ثم علق "سيرجي" دبلومها في ردهة منزله، في مكان بارز لا يمكن أن يفوت أحدًا. والزجاجة التي تأتيك وسدادتها الفلين تبرز منها تدفعك إلي الاعتقاد بأنها قد تحوي شيئاً مختلفاً عن ذلك المكتوب على الملصق. ولابد أنه قد درس هذا خلال درسه الأول في تلك الدورة. ربما قد تلاعب أحد بها؛ شخص خبيث يمكن أن يخفف النبيذ بماء من الصنبور، أو يسيل لعابه إلي داخل الزجاجة عبر فوهتها.

بعد المشروب وسدادة الفلين المكسورة، كان من الواضح أن "سيرجي لومان" ليس في مزاج يسمح بمزيد من هذه الهرجلة. فمسح شفتيه بالمنديل وتمتم مثنياً على النبيذ، من دون أن ينظر إلي المدير:

- ممتاز.

في تلك اللحظة كنت أحملق في "بابيت". كانت عيناها من وراء العدستين الملونتين مثبتتين على زوجها، ومع أنه كان يستحيل على أن أتيقن من هذا، ولكنني أكاد أقسم أنها قد رفعت حاجباً في اندهاش من رأيه في النبيذ قبل أن يتذوقه. فهو الذي تسبب في أن تبكي في السيارة، وهما في الطريق إلي المطعم، ولكن عينيها أضحتا الآن أقل انتفاخا. تمنيت أن تعلق بأي شيء، شيء تسترد به منه بعض كبريائها؛ فهي قادرة تماما على ذلك، وبوسعها أن تكون ساخرة وباقتدار لو أنها عزمت على ذلك. وهل لي أن أنسي يوم أن قالت لي بنبرة سخرية: "إنه يتذوق النبيذ في لوار فالي".

Twitter: @alqareah

كنت في ذهني أشجعها على القيام بذلك. كل عائلة تعسة تكون كذلك على طريقتها. ولو سألتني عما أتمناه في قرارة نفسي، لقلت لك إن أفضل شيء يمكن أن أشهده الآن هو خناقة ضخمة وحاسمة بين "سيرجي" و"بابيت"، وليت ذلك يكون قبل أن يأتينا الطبق الرئيسي. عندها سأتدخل ببعض الكلمات مهدئا، وأتظاهر بعدم الانحياز لأحد الجانبين، ولكنها ستدرك في قرارة نفسها أن بوسعها الاعتماد علي.

ومن أسف أن "بابيت" لم تتفوه بأي شيء على الإطلاق. تستطيع أن تتفهم الطريقة التي ابتلعت بها تعليقها القاتل على سدادة الفلين. ولكن أمرًا ما حدث فأحيا آمالي في انفجار الوضع بينهما لاحقاً هذا المساء. كان مثل ظهور مسدس في مشهد بمسرحية. عندما تلوح شخصية بمسدس خلال الفصل الأول، فإنك تراهن بكل ثقة أن شخصية أخرى ستصرع قبل أن يسدل الستار. قانون الدراما. القانون الذي ينص على أن المسدس لا يظهر إذا لم تكن إحدي الشخصيات ستستخدمه فعلا.

- إليكم سلطة الذرة.

هكذا أعلن المدير؛ بينما نظرت أنا إلي الخنصر، الذي كان على بعد أقل من سنتيمتر واحد عن ثلاث أو أربع وريقات خضراء وسط جبن الماعز، ثم نظرت إلي يده بالكامل، والتي كانت قريبة جدا لدرجة أنني كنت أقاوم رغبة ملحة في أن أميل نحوها فأقبلها.

لماذا طلب طبق المقبلات هذا، بينما أنا من الأصل لا أحب جبن الماعز؟ ناهيك عن سلطة الذرة. هذه المرة جاء بخلهم في صالحي. فطبقي كان فارغًا في معظمه، وإن لم يكن بقدر فراغ طبق "كلير"؛ حتى كان بمقدوري التهام الوريقات الثلاث في قضمة واحدة، أو أن أتركها بكل بساطة في الطبق، وعندها لن يكون هناك فارق كبير.

وأنا كلما شاهدت سلطة الذرة تذكرت قفصاً صغيراً كان يحوي هامستر أو خنزيرًا بريًا وقد وضعوه على حافة نافذة فصلنا في المدرسة الابتدائية. وضعوه

Twitter: @alqareah

هناك حتى نتعرف على الحيوانات، ونتعلم رعاية الحيوانات، على ما أعتقد. وأنا لا أتذكر إن كانت الوريقات التي كنا ندفعها إليه من خلال قضبان القفص كل صباح هي سلطة الذرة أم لا، ولكنها كانت تشبهها كثيراً. كان الهامستر أو الخنزير البري يتشمم تلك الأوراق ثم يقضي بقية اليوم قابعا في نفس الركن. وذات صباح وجدناه ميتاً، تماما كما حصل لسلحفاة صغيرة سبقته، وقبلها فأران صغيران أبيضان وحشرات العصا. وهم في الفصل لم يعلمونا ما كان يفترض أن نتعلمه من معدل الوفيات المرتفع هذا.

أما سبب أنني أجد أمامي طبق جبن ماعز دافئ وآخر يحوي سلطة الذرة، رغم عدم حبي للاثنين، فكان أبسط من ذلك بكثير. فقد كنت آخر من أملى طلباته. ونحن لم نتحدث قبلاً عما سنطلبه، أو ربما تحدثنا، ولكنني نسيت. وعلي كل حال، فقد استقررت على طلب "فيتيلو توناتو"، ولكن "بابيت" طلبت الشيء نفسه، وهو مأ ألقي الرعب في قلبي.

ورغم ذلك لم تكن مشكلة، فبوسعي دوماً اللجوء إلي خياري الثاني، الاستاكوزا. ولكن "سيرجي" كان عليه أن يملي طلبه قبلي. وهكذا وقعت في ورطة كبيرة لما سمعته يقول: "استاكوزا". لم تكن لدي أي رغبة في أن طلب طبق مقبلات طلبه غيري، وبالطبع لن أطلب نفس الطبق الذي طلبه أخي. كان بوسعي من الناحية النظرية أن أعود إلي خيار "الفيتيلو توناتو"، ولكن هذا من الناحية النظرية البحتة. ولكن هذا لن يريحني أنا، ليس فقط لأنني سأبدو غير قادر على اختيار طبق مقبلات لم يطلبه غيري، ولكن هذا كفيل بإثارة شكوك "سيرجي" في أني أحاول لفت أنظار زوجته. وبالطبع كانت هذه شكوكًا في محلها، ولكن لا يمكن أن ألجأ إلي حيلة على هذا القدر من الوضوح.

كنت قد أغلقت المينيو بالفعل ووضعتها جوار طبقي. ولكنني فتحتها الآن من جديد. مررت بعينيّ على قائمة المقبلات بسرعة، وعلي وجهي رسمت تعبير الاستغراق في التفكير، كما لو أنني أبحث عن طبق اخترته بالفعل ولكنني فقط أريد أن أشير إليه في المينيو، ولكن يبدو أن الأوان كان قد فات.

Twitter: @alqareah

فقد سألني المدير:

- وبالنسبة لك، سيدي؟

- جبن الماعز وسلطة الذرة.

خرجت نبرة صوتي لتنم عن شخص كان قد حسم اختياره منذ زمن، وبكل ثقة. لم يلحظ "سيرجي" و"بابيت" أي شيء من هذا، ولكنني لمحت عبر الطاولة نظرة اندهاش على محيا "كلير".

هل تحاول أن تحميني من نفسي؟ هل ستقول: "ولكنك لا تحب جبن الماعز؟". أشك في هذا؛ ففي هذه اللحظات عيون كثيرة تحدق في ولن يمكنني أن ألمح لها بشيء، كما أنني لا أفكر في القيام بهذا أصلاً.

قلت:

- سمعت أنكم تأتون بجبن الماعز طازجاً من مزرعة. من ماعز تعيش على مراعٍ في الهواء الطلق.

في النهاية، وبعد أن تأكد أن "بابيت" تريد الفيتيلو توناتو، الفيتيلو توناتو الذي كان سيصبح اختياري أنا، تركنا المدير فصار بوسعنا استئناف حديثنا. ولا أجد أن كلمة "استئناف" هي الكلمة المناسبة؛ فكما اتضح فيما بعد، فإن أحداً منا لم تكن لديه أدنى فكرة عما كنا نتحدث عنه قبل المقبلات. وكان هذا واحدا من عيوب ما يسمونها بالمطاعم الراقية، كل هذه المقاطعات، كل هذا الاستعراض المبالغ فيه.

عليك أن تعرف أنني سافرت كثيراً، ودخلت مطاعم عديدة في بلدان مختلفة، ولكني لم أجد أبداً – وأنا أعني هذا حرفياً – أي مطعم يفرض عليك ملء كأسك بالمشروب فرضاً كلما لاحظوا أنه فارغ. إنهم في الخارج يجدون في هذا وقاحة. فقط في هولندا تجدهم لا ينقطعون عن التردد على طاولتك في كل وقت؛ ليس فقط لملء الكؤوس، ولكن أيضاً لإلقاء نظرة سريعة على الزجاجة كلما اقتربت من نهايتها. نظرات تقول لك: "ألم يحن وقت أن تطلب زجاجة جديدة؟".

Twitter: @alqareah

أعرف شخصاً، صديقًا قديمًا، قضي بضع سنوات يعمل في أفضل المطاعم الهولندية. أخبرني ذات مرة أن خطتهم تعتمد على دلق أكبر قدر ممكن من النبيذ في بطنك، لكونهم يبيعون لك النبيذ بسعر يوازي سبعة أضعاف سعر من يورده إليهم، ولهذا السبب يتركونك لفترة طويلة قبل أن يعودوا إليك بالمقبلات، وكذلك لفترة قبل تدوين الطلبات الرئيسية، فالزبائن تطلب المزيد من النبيذ لمجرد كسر الملل وقتل كل هذا الوقت، وهم يستغلون هذا أيما استغلال. كما أخبرني صديقي هذا أن المقبلات عادة ما تصلك بسرعة كبيرة، لأنه إذا أخذت وقتاً طويلاً سيبدأ الزبون في الشكوي. ويشك في حسن اختياره للمطعم، ولكن نفس الزبون وبعد فترة من تناول الشراب ما بين المقبلات والطبق الرئيسي يتوقف عن الشكوي بعدما فقد الإحساس بالزمن. وذكر لي مواقف كان فيها الطبق الرئيسي جاهزًا منذ فترة طويلة، لكنهم يبقونه في المطبخ إلي أن يسأل الزبون عنه بنفسه. وحينما يلاحظون أن أحاديث الزبائن قد بدأت تصبح رتيبة وتهدأ كانوا يبادرون بوضع الأطباق في الميكروويف لأنهم يعلمون أن الزبائن ستبدأ حينئذ في التساؤل عنها.

فما الذي كنا نتحدث عنه قبل وصول المقبلات؟ لا أجد أن تذكر ذلك بأمر ذي بال، فلا يمكن أن يكون شيئاً مهما، ولكن هذه النقطة تحديداً هي التي كانت تضايقني. فقد كان بوسعي تذكر ما كنا نتحدث عنه قبل حكاية الزجاجة وسدادتها، ولكني أعجز عن تذكر ما كنا نتكلم عنه قبل وصول هذه الأطباق.

التحقت "بابيت" بصالة جيم جديدة، وأخذنا نتحدث عن هذا لبعض الوقت؛ عن إنقاص الوزن، وأهمية أن يبقي المرء نشيطاً، وعن الرياضة الأمثل لكل شخص. كانت "كلير" تفكر في الالتحاق بنادٍ صحي، بينما قال "سيرجي" إنه لا يطيق الموسيقي التي يشغلونها في مثل تلك الأمكنة. ولهذا اختار الركض، كما يقول، لأنه يتيح له فرصة الخروج في الهواء الطلق. يتكلم وكأنه أول من اخترع فكرة الركض في الهواء الطلق. ونسي أنني قد بدأت أركض منذ عام مضي، كما نسي أنه لم يفوت أية فرصة ليسخر فيها من "أخينا الذي دوخنا من كثرة الجري والتنطيط".

Twitter: @alqareah

أجل، هذا ما كنا نتحدث عنه في البداية، ورغم أن الموضوع قد شغل وقتاً أطول من اللازم، إلا أنه كان موضوعاً بريئاً. كان استهلالة نموذجية لأمسية في مطعم كهذا. وماذا عن بقية الأمسية؟ لا أعتقد أن هذا يهمني أنا. نظرت إلي "سيرجي"، ثم إلي زوجتي، وبعدها إلي "بابيت". في تلك اللحظة كانت "بابيت" تهاجم "الفيتيلو توناتو" بالشوكة، فتقطع شريحة لترفعها إلي فمها.

قالت والشوكة معلقة في الهواء أمام فمها:

– ولكنني نسيت الآن تماماً. هل قلتما لي من قبل أنكما قد شاهدتما فيلم "وودي الين" الجديد؟

Twitter: @alqareah

10

ما إن يتحول الحوار إلي موضوع السينما حتى أدرك أن هذا علامة على ضعف الحوار. ما أقصده هو أن الحديث عن الأفلام شيء يليق بنهايات الجلسة، وحينما يكون كل موضوع آخر قد قُتل حديثاً فيه. وأنا حقيقة لا أعرف السبب، ولكن حينما يبدأ الناس في التحدث عن السينما يراودني إحساس بالانقباض، مثل أن تستيقظ بعد ليلة سيئة فتكتشف أن الظلام قد حل ثانية بالخارج.

أسوأ هؤلاء هم من يسترسلون في وصف أفلام بأكملها؛ فهم لا يتورعون عن سرقة خمس عشرة دقيقة من وقتك - خمسة عشر دقيقة لكل فيلم – وهم لا يهتمون حقا إذا كنت قد رأيت الفيلم أم لا، أو إذا كنت قد رأيته منذ فترة طويلة. فمثل هذه الاعتبارات غير موجودة في أجندتهم، فقد بدأوا بالفعل التحدث عن أحداثه. وحتى تكون مهذبا عليك التظاهر بالاهتمام في البداية، ولكنك سرعان ما تتخلي عن هذه المجاملة، وتبدأ في التثاؤب علنا، والتحديق في السقف والتململ في مقعدك. عليك أن تفعل كل ما في وسعك حتى تجبر هذا الحكاء على أن يخرس، ولكن بلا جدوي؛ فهو مستغرق لدرجة أنه لن يلحظ لغة جسدك، كما أنه مستغرق في ذاته وفي رأيه الأحمق الذي يبديه عن الأفلام.

وأعتقد أن أخي هو من بدأ الحديث عن فيلم "وودي الين" الجديد.

- تحفة.

Twitter: @alqareah

قالها من دون أن يسأل عما إذا كنا – أنا و"كلير" – قد شاهدناه أم لا. أومأت "بابيت" برأسها مؤمنة، فقد شاهداه معاً الأسبوع الماضي، على الأقل هذا شيء من الأشياء النادرة التي يتفقان حولها. قالت:

– حقاً روعة. عليكما الذهاب لمشاهدته.

وجدت "كلير" تقول بأننا قد شاهدناه بالفعل، فعقبت بدوري أن هذا قد حدث منذ شهرين. كانت هذه معلومة غير ضرورية، ولكنني شعرت أن على أن أقولها، موجهاً الكلام إلي أخي. رغبت في أن أدعه يعرف بأنه متخلف عن ركبنا بكثير، هو وتحفته.

في تلك اللحظة وصل سرب كامل من الفتيات المتشحات بالسواد ومعهن المقبلات، ويتبعهن المدير وخنصره، وعندئذ فقدنا طرف خيط الحديث حتى التقطته "بابيت" مرة أخري بسؤالها حول ما إذا كنا قد شاهدنا فيلم "وودي الين" الجديد أم لا. يبدو أنها قد نسيت أننا قد أجبنا على هذا السؤال بالفعل.

قالت "كلير":

– أعتقد أنه كان فيلمًا رائعًا.. حتى إنه أعجب "بول"، أليس كذلك يا "بول"؟

كانت تغمس قطعة طماطم جافة في زيت الزيتون بطبقها قبل أن ترفعها إلي فمها.

هذه هي عادة "كلير": تورطني بطريقة يصعب على الفكاك منها. ها هما يعرفان الآن أنني معجب بالفيلم، وقولها: "حتى إنه أعجب بول" يضمر بداخله معني واحدًا لا غير: "حتى "بول" الذي لا يعجبه في المعتاد أي فيلم، وخاصة لو كان لـ"وودي الين".

نظر "سيرجي" في وجهي، ولقمة مقبلات لا تزال في فمه، كان يمضغها، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يقول لي:

– تحفة، أليس كذلك؟ إنه حقا رائع.

Twitter: @alqareah

تابع المضغ قبل البلع:

- و"سكارليت يوهانسون"، يا الله، ما كل هذا الجمال؟!

سماع أخيك الأكبر وهو يصف فيلماً - أنت نفسك تعتقد أنه جيد جدا - بكلمة "تحفة" أقرب إلي اضطرارك إلي أن ترتدي ملابسه القديمة، تلك التي صارت صغيرة جدا عليه، ولكنك تعتبرها وقبل كل شيء قديمة جداً عليك. أي إن خياراتي كانت محدودة؛ فالاعتراف بأن فيلم "وودي الين" تحفة سيكون مثل التسليم بتلك الملابس القديمة، فلن تجد كلمة تفوق "تحفة". وبالتالي فإن كل ما يمكنني القيام به هو محاولة أن أثبت لهم أن "سيرجي" لم يفهم الفيلم أصلاً، وأنه يعتبره تحفة وفق اعتبارات خاطئة، ولكن هذا سينطوي على الكثير من الجهد، وربما لا يكون وقعه مريحاً على "كلير"، وربما على "بابيت" كذلك.

الحقيقة أنه قد بقي أمامي خيار وحيد، وهو أن أسرد أحداث فيلم "وودي الين". ولن يكون هذا صعبا علي. فهناك ما يكفي من نقاط الضعف التي يمكن أن أشير إليها، نقاط ضعف لا تهم حقا عندما يعجبك الفيلم ولكن يمكنك أن تستغلها في حالات الطوارئ، من أجل أن تكره نفس الفيلم. سترفع "كلير" حاجبيها في البداية، ولكني أتمني أن تفطن في النهاية إلي ما أقوم به. إن خيانتي لتقديرنا المشترك لهذا لفيلم ترمي إلي خدمة نضالنا ضد جميع مظاهر التغطرس والمباهاة الحمقاء بخصوص الأفلام عموماً.

مدت يدي إلي كأس التشابليس، وأنا أنوي في البداية أن أرتشف منها رشفة متأملة قبل الشروع في تنفيذ خطتي، ولحظتها خطر لي مخرج آخر. فما هذا الذي قاله أخي الغبي عن "سكارليت يوهانسون": يا الله.. ما كل هذا الجمال؟! لم يكن لدي علم برد فعل "بابيت" تجاه عبارة مثل هذه، ولكني أعرف أن "كلير" تكون دوماً متحفزة حينما تسمع رجلاً يتغزل في امرأة. كنت أنظر إليه وقت أن قالها، لذا فاتني التعرف على رد فعلها، ولكن هذا لم يكن ضرورياً.

لدي انطباع، راودني مؤخراً، أنه قد بدأ يفقد ارتباطه بالواقع، وأنه يعتقد بجدية أن امرأة مثل "سكارليت يوهانسون" قد تقبل بأن تشاركه الفراش. بل

Twitter: @alqareah

أشك في أن نظرته إلي النساء لا تختلف عن نظرته إلي الطعام، وخاصة وجبته اليومية الساخنة. وللأمانة هو كان كذلك منذ وعيته، ولم يتغير.

حينما يكون جائعاً يبادرك بقوله:

- أريد أن آكل أي شيء.

سيقول لك ذلك حينما تكون معه في مكان غير مناسب بالمرة، مثل بقعة ما من متنزه ناءٍ، أو وأنت تقود السيارة في الطريق السريع بعيداً عن أي طريق فرعي. فلا يكون بيدي سوي أن أرد:

- وما المانع؟ ولكن ليس بجعبتي الآن أي شيء يمكن أن تأكله.

- ولكنني جائع الآن. على أن آكل الآن.

إنك لترثي لحاله، ولهذا التصميم والعزم الذي ينسيه كل شيء آخر – من هم حوله، وما هو حوله - ليركز فقط على هدف وحيد: أن يشبع جوعه. في لحظات مثل هذه يذكرني بحيوان يجد عقبة في طريقه، أو بطائر لا يفهم أن الزجاج في النافذة مصنوع من مادة صلبة ويظل يصطدم به مرارا وتكرارا.

وعندما كنا نجد في النهاية مكاناً لتناول الطعام، لا يكون منظرنا جذاباً على الإطلاق. فهو يأكل بنفس الطريقة التي تملأ بها خزان بنزين سيارتك؛ يلتهم ساندويتش الجبن بالخبز الأبيض أو كعكة اللوز بسرعة وكفاءة، ليتأكد من وصول الوقود إلي بطنه في أسرع زمن ممكن، فمن دون وقود لا يمكنك التحرك إلي أي مكان. أما تناول الطعام الراقي فأتاه لاحقاً، تماماً مثلما أتاه علم النبيذ؛ فعند نقطة معينة قرر أن هذا أمر ضروري، ولكنه لم يتخل عن السرعة والكفاءة، وحتى يومنا هذا، يبقي دائما أول من ينتهي من صحنه.

أدفع نصف عمري لأراه وأسمعه وهو مع "بابيت" في غرفة النوم. ولكن هناك جزءًا مني سيقاوم هذه الرغبة بكل عناد، وعلي استعداد لدفع النصف المتبقي من عمري لكي لا أرى ولا أسمع.

Twitter: @alqareah

سيخبرها أنه يريد أن يمارس الجنس معها، وعندها تتعلل "بابيت" بأن لديها صداعًا، أو أنها في الدورة الشهرية، أو أن لا مزاج لديها في هذه الليلة بالذات لأن تتعامل مع جسده، مع ساقيه، مع رأسه، مع رائحته. "ولكنني أريدك الآن". أراهن أن أخي يمارس الجنس بنفس الطريقة التي يتناول بها الطعام، وأنه يتعامل مع زوجته كما يتعامل مع قطعة لحم يحشو بها فمه؛ مجرد إشباع لجوع.

قلت، بفجاجة فاقت ما انتويته:

- إذن فأنت كنت بالأساس تحدق طوال الفيلم في جسد "سكارليت يوهانسون" أم أنك قصدت شيئاً آخر بكلمة "تحفة"؟

عندها حلت معجزة الصمت، صمت من النوع الذي لا تسمعه إلا في المطاعم: صمت المفاجأة، وازدياد الوعي بحضور الآخرين، وصوت الملاعق والأشواك والسكاكين فوق صحون أكثر من ثلاثين مائدة أخري. صمت تتقدم فيه كل أصوات الخلفية لتتصدر المشهد.

كانت ضحكة "بابيت" هي أول ما كسر هذا الصمت؛ ورمقت زوجتي، التي كانت تحدق في بخيبة أمل، ثم نظرت ثانية إلي "سيرجي"؛ الذي كان يحاول أن يضحك بدوره، ولكنه لم ينجح في التمثيل، كما أن الطعام كان يملأ فمه:

- أتحاول أن تجعل من نفسك قديساً يا "بول"؟ كما أنها فاتنة بالفعل، وهو أمر لا يمكن أن ينكره أي رجل له عينان في رأسه، أليس كذلك؟

لا يمكن لمثل هذا الكلام أن يعجب "كلير"، أنا أعلم ذلك. إن لها تعبيراتها الخاصة في وصف الجمال. يمكن أن تصف رجلاً بأنه وسيم، ولكن ليس بكلمة "فاتن" هذه. وقالت لي ذات مرة إن من العيب أن تتحدث النساء عن جمال الرجال بكلمات غير وقورة. قالت لي:

- وكأنك تري امرأة تدخن البايب أو تبصق على الأرض وهي تسير.

Twitter: @alqareah

يبقي "سيرجي" جلفاً مهما حدث، جاهلا قحًّا، نفس الجاهل الذي اعتاد أن يطرد من على مائدة الطعام لأنه ضرط.

قلت له:

- رأيي أن "سكارليت يوهانسون" امرأة جذابة للغاية. ولكن يبدو لي أنك تجد أن هذا هو أهم ما في الفيلم. صوبني إن كنت قد أخطأت.

- الأمور لا تسير كما اشتهي البطل، ما كان اسمه، ذلك الإنجليزي، مدرب التنس، لأنه عجز عن ألا يفكر فيها. سيطرت على عقله. حتى إنه اضطر إلي أن يطلق عليها النار فقط لينال ما يبتغيه منها.

صاحت "بابيت":

- ما الذي قلته؟! لقد حرقت عليهما أحداث الفيلم، إن كانا لم يشاهداه بعد!

خيم صمت قصير، كانت أنظار "بابيت" خلاله تنتقل ما بيني وبين "كلير"، قبل أن تعقب:

- تباً، يبدو أنني كنت نائمة، فأنتما قد شاهدتما الفيلم بالفعل!

Twitter: @alqareah

11

ضحكنا جميعنا، في لحظة بددت التوتر، ولكن الإفراط في مثل هذا التبديد غير مستحسن، فيلزم المرء أن يحتفظ بشيء من التربص دوماً. والحقيقة أن "سيرجي لومان" كان وسيماً بالفعل، وأنا سمعتها من نساء كثيرات بنفسي. وهو يعرف أنهن يجدن فيه جاذبية، ولا غضاضة بالطبع في ذلك، فوجهه (فوتوجينيك) كما يقولون، ويمتلك جاذبية ما، أعتقد أنها تنبع من فظاظته، فظاظة لا يتورع عن أن يطلقها في وجهك، ولما أدركت ذلك عرفت أن هناك من النساء من تفضل تلك الفظاظة، مثلما تفضل الأثاث الأصيل المصنوع بلا تعقيدات من أخشاب قديمة كانت في الأصل جزءاً من بوابات استوردوها من شمالي إسبانيا أو من بايدمونت.

عادةً ما كانت صديقات "سيرجي" يهجرنه بعد أشهر قليلة؛ ففي تلك الجاذبية يكمن جانب ملل رتيب، سرعان ما يفرض نفسه ويطغي على هذا الوجه الفوتوجينيك. ويبدو أن "بابيت" هي الاستثناء لتلك القاعدة، فقد مكثت معه حتى الآن ثمانية عشر عاماً، وهي معجزة في حد ذاتها، فقد كانا في شجار ونقار طيلة هذه السنوات الثماني عشرة، بل كان واضحا جدا أنهما لا يناسبان بعضهما في كل شيء، ولكن هذا مشهد معتاد في مثل هذه الزيجات؛ حيث يكون هذا الاحتكاك المستمر بين الزوجين هو المحرك الحقيقي لزواجهما، وتكون كل معركة بينهما مجرد مداعبة لابد منها قبل معاهدة الصلح التي يشهد عليها الفراش.

Twitter: @alqareah

ولكنني أحياناً ما أرى أن الموضوع أبسط من ذلك بكثير، وأن "بابيت" قد اختارت لنفسها حياة إلي جوار سياسي ناجح، وأن أي انفصال سيكون بمثابة إهدار لعمرها الذي استثمرته في هذه العلاقة، تماماً كما تجد نفسك غير قادر على أن تنحي كتاباً رديئاً جانباً بعدما تكون قد قرأت أكثر من نصفه، فأنت مضطر إلي قراءته للنهاية؛ وهكذا هي، قررت أن تبقي إلي جوار "سيرجي"، فربما عوضتها النهاية عن كل هذه الرداءة.

أنجبا "ريك"، الذي كان في عمر "ميشيل"، و"فاليري"، وهو صبي في الثالثة عشرة من عمره ويعاني من بوادر توحد ولكنه وُهب جمالاً ملائكياً. وهناك "بيو"، وهو في الأصل من أبناء بوركينا فاسو ولكن المطاف انتهي به عند "سيرجي" و"بابيت" من خلال أحد مشروعات التنمية. تلك التي تقوم فيها بمساعدة أطفال العالَم الثالث بأن تشتري لهم الكتب وبقية المستلزمات، ومن ثم تتبناهم. في البداية يكون التبني عن بعد، من خلال الرسائل والصور وبطاقات البريد، ولاحقاً يكون التبني عن قرب. حيث يأتي الطفل المختار إلي عائلته الهولندية التي كفلته ليقيم لبعض الوقت، وإن سارت الأمور حسنةً توافق الأسرة على استمرار الطفل معها. وكأنه اتفاق لشراء تركة، إن صح تشبيهي. أو مثل قط تجلبه إلي المنزل من مأوي حيوانات ضالة، فإن بدا القط شقياً مفسداً لأثاث منزلك، فإنك حينئذ تسارع بإعادته إلي حيث كان.

وأنا أتذكر عدداً من تلك الصور والبطاقات التي أرسلها "بيو" من بوركينا فاسو. وتري في الصورة ـ التي مكثت لدي أطول وقت مقارنة ببقية الصور ـ الولد واقفاً أمام بناية بالقرميد الأحمر سقفها من الصاج، ولد أسود يرتدي سترة بيجاما مقلمة تصل إلي أسفل ركبتيه، وقد وضع قدميه في صندل مطاطي.

كتب أسفل الصورة بخط صبي في المدرسة:

'Merci beaucoup mes parents pour notre école'

"شكرًا كثيرًا لاهلي على المدرسة".

Twitter: @alqareah

- أليس جميلاً؟

قالتها "بابيت" وهي تعرض علينا الصورة. لقد سافرا إلي بوركينا فاسو وتركا هناك قلبيهما، كما وصف "سيرجي" و"بابيت" حالهما لنا.

ولكنهما في الرحلة التالية أكملا الإجراءات، وما هي إلا أسابيع حتى كان "بيو" في مطار "شيبول" في أمستردام.

سألتهما "كلير" ذات مرة:

- هل تدركان ما أنتما مقدمان عليه؟

كان ذلك حينما كان هذا التبني لا يزال في مرحلة البطاقات البريدية. وكان ردهما ساخطا. ألا يساعدان إنسانًا؟ طفلا لن تتاح له في بلاده نفس الفرص التي ستتاح له في هولندا؟ نعم، كانا يعرفان جيدا ما كانا مقدمين عليه، كما أدركنا أن هناك عددًا كبيرًا جدا من البشر في هذا العالم لا يفكرون إلا في أنفسهم.

ليس بوسعك أن تتهمهما بالأنانية الصريحة. فقد كان "ريك" في الثالثة من عمره في ذلك الوقت، بينما لم يتجاوز "فاليري" بعد بضعة أشهر من العمر، فهما لم يكونا مثل معظم الآباء الساعين إلي التبني بعدما عجزوا عن إنجاب أطفال من صلبهم. ولكنني أجد في سعيهم إلي جلب طفل ثالث، ليس من لحمهما ودمهما، أنانية بحتة، خاصة وأنه طفل محتاج يري أمامه حياة جديدة في هولندا.

فما هذا الذي أقدما عليه؟

وضح من كلام "سيرجي" و"بابيت" أنه لم يكن لنا أن نطرح مثل هذا السؤال، وهكذا قررنا ألا نطرح عليهما بقية الأسئلة. هل لدي "بيو" أب وأم أم هو يتيم؟ أب وأم وافقا على أن يرحل ابنهما عنهما، أم أنه يتيم وحيد في هذا العالم؟ رأيي أن "بابيت" كانت أكثر تعصباً لفكرة التبني من "سيرجي"، فقد كان "مشروعها" من البداية، شيئا خططت لتنفيذه بنجاح مهما كلفها ذلك. فعلت كل ما تستطيع لتمنح طفلها بالتبني نفس القدر من الحب الذي تمنحه لطفليها.

Twitter: @alqareah

وفي النهاية صار من الممنوع أن يستخدم أحد كلمة "تبني" نفسها. قالت لنا:

- "بيو" ابن لنا، وهذه هي كلمتنا الأخيرة. لا فارق بينه وبين ابنينا.

وأومأ "سيرجي" برأسه مؤمناً:

- نحبه بنفس قدر حبنا لـ"ريك" و"فاليري".

هناك احتمال، بطبيعة الحال، أنه كان يعرف حتى ذلك الحين - وأنا لا أريد إصدار حكم أو أن اتهمه بأنه قد تصرف عن تدبر - ولكن الرياح أتت فيما بعد على هواه. ذلك الطفل الأسود من بوركينا فاسو الذي كان يحبه كابنه الذي من صلبه. هذا أمر مغاير لمعرفته بشؤون النبيذ، ولكن كان له نفس التأثير بالضبط. فقد أكسبه هذا صيتاً إضافياً. "سيرجي لومان"، السياسي الذي يتبني صبياً من أبناء أفريقيا.

بدأ يظهر في جميع صور الأسرة؛ فبدا أمراً طيباً أن ترى "سيرجي" و"بابيت" جالسين على الأريكة وعند قدميهما الأطفال الثلاثة. وأضحى "بيو لومان" الدليل الحي على أن هناك سياسيًّا يتصرف من منطلق وازع آخر خلاف المصلحة؛ وأنه – ولو خلال مرحلة ما في حياته – أعطي مثالاً للعطاء. أما ولداه فقد اقتنعا وتقبلا في نهاية المطاف فكرة أن يكون لهما أخ بالتبني وارد من بوركينا فاسو. تلك كانت الرسالة؛ أن يكون "سيرجي لومان" على استعداد لأن يتعامل مع مسائل أخري بوازع لا يستهدف تحقيق مصلحته الشخصية.

اقتربت إحدي الفتيات وأعادت ملء كأس "سيرجي"، ثم كأسي؛ بينما كان كأسا "بابيت" و"كلير" نصف ممتلئتين. كانت فتاة جميلة، ذات شعر أشقر ذهبي مثل "سكارليت يوهانسون". أخذت وقتاً أكثر من اللازم في ملء الكأسين، وبدا واضحاً أنها جديدة في هذا المكان. فقد التقطت الزجاجة من المبرد ثم جففت سطحها تماماً بالفوطة البيضاء الصغيرة المسجاة فوق المبرد؛ كما أن طريقة صبها للشراب لم تكن تنم عن اعتياد أبداً، فقد وقفت جوار مقعد "سيرجي" بزاوية جعلت مرفقها يصطدم عن دون قصد برأس "كلير".

Twitter: @alqareah

بادرت وقد احمر وجهها بشدة:

- أوه، أنا آسفة.

وبالطبع جاوبتها "كلير" أن لا بأس، ولكن الفتاة كانت قد سقطت بالفعل ضحية هذا الاضطراب فبالغت في صب الشراب في كأس "سيرجي". ولم تكن هناك مشكلة في ذلك أيضاً، إلا بالنسبة لصاحبنا ذواقة النبيذ.

- ما هذا؟ ما هذا؟ أتحاولين أن تجعليني ثملاً؟

تراجع بمقعده إلي الوراء بضع أقدام، وكأن الفتاة قد سكبت الشراب على سرواله. الآن زاد توتر واضطراب الفتاة أكثر، وأخذت أجفانها ترتجف بعصبية، حتى إني توقعت أن تنفجر باكية. وكغيرها من المتشحات بالسواد، كان شعرها معقوصاً لأعلي ذيل حصان، ولكن اللون الذهبي الأشقر لشعرها جعل هذه التصفيفة طاغية عليها أكثر من غيرها.

وجهها حلو، حتى إنني عجزت عن أن أمنع نفسي من تخيلها وهي تنزع رباط شعرها فينسدل ذيل الحصان وتتحرر خصلاته، ساعة أن تكون ليلتها في المطعم قد انتهت، ستخبر صديقتها ـ وربما صديقها ـ أنها كانت ليلة فظيعة؛ أتدري ما حصل لي اليوم؟ كنت غاية في الغباء! تعلمين كيف أني أمقت كل هذا الإتيكيت الخاص بزجاجات النبيذ، والليلة كنت فاشلة تماماً في هذا الأمر. ولكن أتدرين من كان الجالس إلي الطاولة التي كنت أقوم بملء كؤوسها؟

عندها ستحدق الصديقة – أو يحدق الصديق – في هذا الشعر الذهبي الأشقر المنسدل تمامًا ويقول:

- كلا، أخبريني. من كان الجالس إلي المائدة؟

وحتى يكون للخبر وقعه المنشود، فإنها ستسكت لحظات قبل أن تقول بكل حماس:

- "سيرجي لومان"!

Twitter: @alqareah

- من؟

- "سيرجي لومان"! الوزير! أو ربما هو ليس وزيراً بالمعني المفهوم، ولكنك تعلم قصدي، لقد كان في الأخبار أمس، ذلك الذي سيربح الانتخابات. كنت غبية جداً، وكانت هناك سيدة تجلس إلي نفس المائدة، وقد اصطدم كوعي برأسها.

- أو، يا إلهي! وما الذي حدث؟

- لا شيء، فقد كان لطيفاً حقاً، ولكنني كنت سأموت من الخجل!

لطيف حقاً.. نعم، كان "سيرجي" لطيفا حقا، بعد أن تراجع بمقعده بضع أقدام ثم رفع رأسه ونظر إلي الفتاة لأول مرة. وفي جزء من مائة جزء من الثانية، أسرع من أن تراه بالعين المجردة، رأيت ذاك التغير في تعبير وجهه؛ من تصنع الجزع والانزعاج من هذا التعامل غير الماهر مع زجاجة التشابليس إلي ود وتعاطف كاملين. كيف ذاب على هذا النحو؛ حينما اكتشف مدي الشبه بينها وبين "سكارليت يوهانسون" التي كان يتحدث عن جمالها منذ قليل. فقد رأي "مخلوقة حلوة"، حلوة ومحمرة الوجه خجلاً، وتحت رحمته بشكل كامل. فمنحها ابتسامته الأكثر سحرا.

قال لها، وهو يرفع كأسه فيسقط الكثير من النبيذ الأبيض في طبق الاستاكوزا نصف الفارغ:

- لا بأس. سوف أشربه على أية حال.

- أنا في غاية الأسف، سيدي.

- لا داعي للأسف. كم عمرك؟ هل أنتِ في سن يسمح لك بالتصويت؟

ظننت أنني أتوهم ما سمعته. هل هذا ما قاله حقاً؟ ولكن أخي وفي تلك اللحظة تحديداً كان يلتفت نحوي ويغمز لي غمزة صريحة.

- أنا في التاسعة عشرة، سيدي.

Twitter: @alqareah

– حسناً، سأعقد معك اتفاقاً. فلو أنك منحت صوتك للحزب الأصلح في الانتخابات القادمة، فسوف أبذل ما بوسعي لكي أتغاضى عن تلك المهارة في صب النبيذ.

احمر وجه الفتاة مجدداً، حتى استحالت بشرتها إلى اللون الأحمر الصريح، وللمرة الثانية في غضون دقائق، خيل إلي أنها ستبكي. نظرت نحو "بابيت"، ولكني لم أجد ما ينم على أنها معترضة على سلوك زوجها. بل قد لا أبالغ لو قلت إنها كانت تتسلى بما يجري أمامها؛ فها هو السياسي الشهير "سيرجي لومان"، زعيم أكبر أحزاب المعارضة، الخليفة المنتظر لرئيس الوزراء، يمازح علنا نادلة في التاسعة عشرة من عمرها ويجعلها تستحي. ربما كان هذا لطيفا، وربما فيه تأكيد على سحره الذي لا يقاوم، أو ربما كانت "بابيت" تحب أن تكون زوجة لرجل مثل أخي. رجل دفعها في السيارة وهما في الطريق إلى هنا أو داخل موقف السيارات– إلى البكاء بحرارة. ولكن ما بيدها أن تفعله، على أية حال؟ هل تهجره هكذا فجأة وتتركه في وضع حرج، الآن، وبعد ثمانية عشر عاما؟ وقبل ستة أو سبعة أشهر من الانتخابات؟

حاولت أن أنظر إلى عيني "كلير"، ولكنها بدت مستغرقة في مشهد كأس "سيرجي" الممتلئة حتى ثمالتها وسط تلعثم الفتاة وخجلها. مررت يدها على رأسها، فوق البقعة التي اصطدم بها كوع الفتاة؛ فمن يدري، ربما كانت الصدمة أقوى مما بدت عليه، ثم سألت:

– هل ستذهبان إلى فرنسا مجدداً هذا الصيف أم أنه ليس لديكما أية خطط بعد؟

Twitter: @alqareah

12

يصطحب "سيرجي" و"بابيت" أولادهما في كل عام إلي منزلهما في دوردوني. فهما ينتميان إلي تلك الفئة من الهولنديين التي تجد عظمة في كل شيء فرنسي: من الكرواسون إلي الخبز الفرنسي بجبن الكمبر، ومن السيارات الفرنسية ـ وهما يمتلكان سيارة بيجو حديثة ـ إلي الأغاني الفرنسية والأفلام الفرنسية. ولكنهما في نفس الوقت لا يدركان أن أهالي دوردوني يكادون يتقيئون كلما شاهدوا الهولنديين، وأنهم يمقتونهم. بل وهناك عبارات كراهية ضد الهولنديين كتبت على جدران العديد من المباني في الأحياء الأفقر، ولكن أخي لا يراها سوي "أقلية". ألا يعاملك الكل بلطف كلما دخلت متجراً أو دلفت إلي مطعم؟ يقول لي:

ـ هذا يعتمد على نظرتك للأمور.. وأرى أنها مجرد ترهات.

كنا قد زرناهم هناك للمرة الأولي قبل عام، ثلاثتنا، ونحن في طريقنا إلي إسبانيا، وكانت أول مرة وآخر مرة، كما قالت "كلير" بعد أن استأنفنا رحلتنا بعدها بثلاثة أيام. كان إصرار أخي وزوجته في كثير من الأحيان على أن نقوم بزيارتهم ملحاً لدرجة أنه قد صار من المحرج أن نؤجل الزيارة أكثر من ذلك.

المنزل في موقع جميل، على تلة، مندس وسط الأشجار. يبزغ نوره على البعد من خلال الأغصان، ويمكنك أن تري في الوادي أدناه منحنيًا في نهر دوردوني. كان الجو رطباً وحاراً طوال وقت مكوثنا هناك، ولم نجد نسمة واحدة. خنافس

Twitter: @alqareah

وذباب ضخم، بحجم لم يسبق لي أن رأيت مثيله في هولندا، تحلق بأزيز عال وسط أوراق الشجر، أو تطير نحو النوافذ فتضرب زجاجها بقوة مسموعة.

قاما بتقديمنا إلي "البناء" الذي بني لهم المطبخ المفتوح، وإلي "المدام" التي تدير المخبز، وإلي صاحب "مطعم صغير متواضع تماماً"، أثناء جولة في دوردوني، تساءلت خلالها عن سبب اختفاء جميع أهالي البلدة. كلما قدمني "سيرجي" إلي أحد يقول بفرنسية واثقة: "مون بيتي فرير". يبدو لي مرتاحاً وهو وسط الفرنسيين، وربما كان هذا لأن جميعهم من العامة. فهو التواق دوماً للظهور كأيقونة وسط عامة الشعب الهولندي، فلماذا لا يكون كذلك وهو هنا أيضاً؟

يبدو أنه قد فاته أن هؤلاء يكتسبون مبالغ كبيرة منه، من هذا الهولندي بمنزله الصيفي وأمواله الطائلة، ولهذا السبب يمعنون في إبداء كل هذا الاحترام وهذه الحفاوة.

- لطفاء.. كرماء.. أين يمكنك أن تجد مثل هذا في هولندا هذه الأيام؟

لم يلحظ، أو ربما هو غض الطرف فحسب، كيف كان البناء ينصب له فخاً وهو يتحدث عن سعر شحنة من القرميد الأصلي الريفي لتسقيف المطبخ الذي سيبنيه لهم في الهواء الطلق بالخارج. وكيف أن المدام في المخبز ترغب في الاستمرار في خدمة زبائنها، ولكنها آثرت أن تقف منتبهة لـ"سيرجي" وهو يقدم لها "مون بيتيه فرير"، بينما هؤلاء الزبائن يتبادلون الغمزات واللمزات الخبيثة؛ غمزات ولمزات ساكتة ولكنها تقول الكثير والكثير عن تلك الفظاظة الحقيرة التي يتسم بها الهولنديون. كيف يجلس مالك المطعم الصغير المرح القرفصاء جوار طاولتنا، ليقول بلهجة تآمرية إنه قد استلم اليوم، اليوم بالذات، كيسا من قواقع "اسجارجو" من أحد المزارعين المحليين من النوع الذي يحتفظ به عادة لنفسه. ورغم صعوبة شراء هذا النوع، إلا أنه سيكون مسروراً لو أنه باعه بسعر خاص جداً لـ"سيرجي" وعائلته العطوف؛ ويتبع ذلك بالتشديد على أننا لن نجد طعماً مماثلاً لها في أي مكان آخر. بينما تغافل "سيرجي" عن حقيقة أمامه، وهي أن زبائن المطعم من الفرنسيين يقلبون في قائمة بسيطة تعرض عليهم "ريلاي دو

Twitter: @alqareah

جور"؛ وجبات رخيصة تتكون كل منها من ثلاثة أطباق وبأقل من نصف سعر طبق واحد من القواقع المعروضة عليه. أما لو سألتني عن ممارسته لطقوس تذوق النبيذ في هذا المطعم الصغير، فلن أرد عليك على الإطلاق.

مكثت و"كلير" لثلاثة أيام. قمنا خلال تلك الأيام الثلاثة بزيارة قصر، حيث كان علينا الوقوف في طابور أمام منزل وسط مئات غيرنا من الأجانب، معظمهم من الهولنديين، قبل أن يقودنا مرشد عبر اثنتي عشرة غرفة مثيرة مؤثثة بأسرة ومقاعد كلاسيكية. وأمضينا بقية الوقت في حديقة خلت من الهواء. حاولت "كلير" أن تقرأ؛ بينما وجدت الجو حاراً لدرجة تمنعني من فتح كتاب، خاصة وأن الصفحات البيضاء تؤذي العينين في هذا الجو. ولكن كان من الصعب على أن أجلس دون أن أفعل أي شيء على الإطلاق. بينما كان "سيرجي" دائما مشغولا بشيء، فهناك أشياء في المنزل يقوم بها بنفسه، وأشياء أخري يضطر أن يطلب لها صانعًا محليًّا من البلدة.

يقول لي:

– الناس هنا يبدون لك احتراماً خاصاً ما إن يروك تعمل بيديك في منزلك. لاحظت هذا بعد فترة.

وهكذا أخذ يدفع عربة اليد حوالي أربعين مرة ذهابا وإيابا بين المطبخ في الهواء الطلق والطريق السريع بهذه المقاطعة، حيث كان ينقل القرميد الريفي من هناك إلي حيث سيبني سقف المطبخ. ولم يخطر لي أن أنبهه أن قيامه بالعمل بنفسه سيقتطع جزءاً غير قليل من ساعات عمل البناء التي دفع له عنها أجراً بالفعل.

كما أنه كان يقطع خشب المدفأة بنفسه كذلك؛ حتى خيل لي أنه ينتظر من وراء ذلك أن يلتقط له أحدهم مجموعة صور فيستغلها للدعاية الانتخابية: "سيرجي لومان"، مرشح الشعب، وهو يدفع العربة، وهو يمسك بالمنشار والحطب، رجل عادي مثله مثلهم، والفارق الوحيد هو أن قليلين هم من يقدرون على امتلاك منزل صيفي في دوردوني. وربما كان هذا هو السبب الحقيقي وراء عدم سماحه لطاقم تصوير بالدخول إلي "ملكيتة"، كما يسميها.

Twitter: @alqareah

- هذا مكاني الخاص، لي ولعائلتي، ولا شأن لأحد بنا.

وحينما لا يقوم بنقل القرميد أو بنشر الخشب، فإنه يتسلى بالخروج لجمع التوت، الأسود أو الأزرق. يجمعه ثم تقوم "بابيت" بصنع مربي منه، فتمضي أياماً منشغلة بهذه المربي التي تخزنها في مئات البرطمانات. فتجد "كلير" نفسها مضطرة إلي أن تعرض عليها المساعدة، تماما كما أجد نفسي مضطراً إلي أن أساعد "سيرجي" وقراميده.

سألته بعد سابع مرة يعود فيها بالعربة المحملة بالقرميد:

- هل لي أن أساعدك؟

- الآن قررت أن تعرض على هذا.

سالتني "كلير" تلك الليلة ونحن في الفراش:

- متي يمكننا الرحيل؟

كان هذا حينما أصبحنا وحدنا أخيراً، وأمكننا الرقاد جوار بعضنا، ليس إلي حد الاحتضان، فقد كان الجو حاراً لدرجة تمنعنا من هذا. كانت أصابعها مزرقة بفعل التوت، بينما شاب شعرها لون أزرق أشد دكانة وكذلك بدت خطوط منه على خديها.

- في الغد.. أوه، لا.. بعد الغد.

في ليلتنا الأخيرة، دعا "سيرجي" و"بابيت" الأصدقاء والمعارف إلي العشاء في الحديقة. كانوا أصدقاء ومعارف هولنديين، وهم جميعا لديهم منازل صيفية في نفس المنطقة. قال لي "سيرجي":

- إنها دعوة عادية، فهؤلاء مجموعة صغيرة من الأصدقاء. أناس لطفاء، جميعهم، حقا.

Twitter: @alqareah

تحلق سبعة عشر هولنديًّا، غيرنا، حول الحديقة في ذلك المساء ومعهم الصحون والكؤوس. من بينهم ممثلة عجوز من دون عمل ومن دون زوج'، هكذا وصفتها "كلير" لي في صباح اليوم التالي، ومصممة رقصات نحيلة لا تشرب سوي مياه فيتيل فقط ومن زجاجات نصف لتر أحضرتها بنفسها، وزوجان مثليا الجنس، هما كاتبان، أمضيا المساء كله ينتقدان بعضهما.

وضعت "بابيت" فوق المائدة بوفيه من السلطات، والجبن الفرنسي، والنقانق والخبز. وفي الوقت نفسه، كان "سيرجي" مهتماً بالشواء؛ يرتدي مريلة لونها أحمر في أبيض، ويشوي الشيش كباب والهامبرجر مع الفلفل والبصل. أخبرني قبل ساعات من هذا العشاء:

- سر الشواء الجيد يكمن في نجاحك في صنع نار جيدة، أما الباقي فهو أسهل من السهولة.

كانت مهمتي هي جمع الأغصان الجافة. وكان "سيرجي" يفرط في الشراب أكثر من المعتاد؛ وجواره على العشب زجاجة نبيذ بجانب منطقة الشواء، فربما يكون عصبياً ويريد لهذه الأمسية أن تنجح كما يأمل.

- هم الآن في هولندا لا يتناولون سوي البطاطس والمرق. هل تتخيل هذا؟ بينما هذه هي الحياة الحقيقية، يا رجل!

أشاح بشوكته نحو الأشجار والشجيرات التي تحفظ الحديقة عن أعين الفضوليين.

أخبرني بقية الهولنديين الذين التقيتهم ذلك المساء الأمر نفسه مع تنويعات، بل قد يكون بنفس الكلمات. يرثون لحال أهلهم هناك، والذين أجبرتهم أحوالهم المادية على المكوث في هولندا. قالت لي إحدي السيدات:

- نحن هنا في فرنسا في غاية السعادة.

عرفت منها أنها عملت لسنوات في مجال الحمية الغذائية. ظننت أنها تمزح، لولا أنها قد أخبرتني بذلك بنبرة صادقة قوية، كما لو أنها تتعمدها.

Twitter: @alqareah

تطلعت حولي في بقية الشخصيات الممسكة بكؤوسها الصغيرة في الوهج الأصفر الذهبي المنبعث من المصابيح التي اتخذت مواقع استراتيجية في جميع أنحاء الحديقة، وسمعت في مخيلتي صوت ذاك الممثل القديم الذي ظهر في إعلان تلفزيوني منذ عشر – أو عشرين – سنوات: "أجل، هذا صحيح، أنت أيضا يمكن أن تكون في غاية السعادة والبهجة في فرنسا. مع كأس طيبة من الكونياك والجبن الفرنسي الحقيقي..".

مجرد خاطر جلب معه نفحة من رائحة جبن البورسين، كما لو أن أحدهم قد وضع على شريحة من الخبز المحمص أقذر أنواع الأجبان الفرنسية ثم وضعها تحت أنفي. كان هذا المزيج من الإضاءة ورائحة البورسين كافياً ليعميني عن حقيقة أن حفل الحديقة الذي اقامه أخي وزوجة أخي ليس سوي إعلان تلفزيوني قديم عفا عليه الزمن منذ عشرين عاما أو أكثر. فتماما كما الجبن المقلدة التي لا علاقة لها البتة بالجبن الفرنسي، أجدني هنا، في قلب دوردوني، حيث الجميع يتظاهر بكونه في فرنسا، في حين أن الفرنسيين أنفسهم هم أبرز الغائبين.

وكلما تحدثت عن تلك الكتابة على الجدران التي تفيض مقتاً للهولنديين، كانوا يهونون من الأمر زاعمين أنها كتابات: "مراهقين متطرفين!"، على الأقل كان هذا هو وصف الممثلة العاطلة عن العمل، بينما قال لي مؤلف إعلانات – كان قد باع وكالته الإعلانية من أجل أن يستقر في دوردوني – مطمئناً لأن تلك العبارات موجهة إلي السياح الهولنديين الذين يأتون للتخييم في المنطقة، لكونهم يأتون بكل ما لديهم من بقالة من هولندا في مقطورات ولا ينفقون سنتاً في المتاجر المحلية.

– أما نحن فلسنا مثلهم. فنحن نأكل في مطاعمهم، ونشرب في مقاهيهم ونقرأ صحفهم. ومن دون أناس مثل "سيرجي"، وكثيرين غيره، تتفشي البطالة في أوساط الكثير من عمال البناء والسباكين في جميع أنحاء هذه المنطقة.

عقب "سيرجي" على كلامه رافعاً كأسه:

– ودعونا لا ننسي صناع الخمور المحلية! في صحتكم!

Twitter: @alqareah

هناك، بعيداً عن الأضواء في أحلك جزء من الحديقة جوار السور، كانت مصممة الرقصات النحيلة منسجمة مع ذلك الكاتب الشاب الشاذ المتزوج من صاحبه. رأيت يداً تنسل داخل قميص، فأشحت بوجهي.

سألت نفسي: وماذا إذا لم يتوقف الأمر عند حد مجرد كتابات على الجدران؟ الأغلب أنهم لا يحتاجون إلي كثير من الجهد لترويع هذه المجموعة من الجبناء. والهولندي معروف عنه الخوف والرعب من مجرد التهديد بالعنف. قد يبدأ الأمر بأحجار تلقي على النوافذ، وإن لم يجدِ ذلك يمكن إحراق بعض الممتلكات. ممتلكات غير ذات قيمة كبيرة بالطبع، هذا لأن الهدف الحقيقي هو استعادة كل هذه الممتلكات وإعادتها إلي من يطالبون بها، الشباب الفرنسي المتزوج حديثاً والذي أجبرته أسعار العقارات ـ التي أضحت خرافية هنا ـ على المكوث مع عائلاتهم في نفس المنزل. لقد خرب الهولنديون السوق العقارية على الأهالي المحليين؛ كانوا يدفعون مبالغ فلكية مقابل منازل متواضعة. وعن طريق البنائين الفرنسيين بأجورهم غير الكبيرة نسبياً، كانوا يحولون هذه المنازل المتواضعة إلي قصور، ومن ثم لا يمكثون فيها إلا فترات محدودة من العام. فإذا نظرت للمسألة من هذه الزاوية، وبكل حيادية، لأدركت أنها لمعجزة في حد ذاتها أن تكون هذه الحوادث محدودة، وأن الأهالي المحليين ارتضوا أن ينفثوا عن غضبهم من خلال هذه الكتابات البسيطة وحدها.

ارتحلت نظراتي عبر المرج. كان صوت "إديث بياف" يصدح بالمكان. وكانت "بابيت"، التي اختارت فستانًا أسود شفافًا مسترسلا، ترقص بخطوات غير متزنة على نغمات:

'Non, je ne regrette rien ...'

قلت لنفسي إن لم تنجح النوافذ المكسورة والحرائق في تحقيق مأربها، فبوسعهم أن يطردوا هؤلاء الجبناء الهولنديين من منازلهم بحيلة بسيطة؛ أن تخبره أنك تعرف مكانًا أفضل وأرخص لبيع الخمور ومن ثم تأخذه على حين غرة وتلقي به في حقول الذرة ولا تصفعه وتركله فحسب، بل وتستعين بأداة أشد قوة؛ مضرب بيسبول مثلاً.

Twitter: @alqareah

أو إذا رأيت واحدا منهم يمشي وحده، عند منعطف طريق، عائداً من السوبر ماركت ومعه أكياس مليئة بالباكيت والنبيذ الأحمر، فما المانع إذا تركت سيارتك تسير على راحتها قليلاً، وكل شيء سيجري بعد ذلك بالصدفة وتصاريف القدر. ولو اتهمك أحد بشيء فقل له: "لقد ظهر أمامي فجأة، وارتطم بالسيارة في لمح البصر"، والأفضل ألا تقول شيئاً البتة، وأن تترك هذا الهولندي صريعاً على حافة الطريق، ولا تنسى بعد أن تصل إلى منزلك أن تغسل أية آثار علقت بسيارتك. لا بأس من هذا، طالما أن الرسالة وصلت: أيها الناس أنتم لستم من هنا! ارحلوا عنا واذهبوا إلى حيث جئتم! عودوا إلى دياركم وتظاهروا بأنكم في فرنسا ولكن افعلوا هذا في بلادكم، بكل هذا الباكيت والنبيذ الأحمر، ولكن ليس هنا، ليس في بلادنا!

- "بول"..! "بول"..!

كانت "بابيت"، وهي واقفة في منتصف المرج، وفستانها الذي يتلاعب به الهواء يكاد يلامس لهب الشعلة، تمد ذراعيها إلي. كانت أغنية Milord تصدح من مكبرات الصوت. إنه نداء الرقص. الرقص فوق العشب مع زوجة أخي. غاية السعادة والبهجة في فرنسا. نظرت حولي ورأيت "كلير" واقفة عند طاولة الجبن وقد رأتني في اللحظة ذاتها.

كانت تتحدث مع الممثلة التي بلا عمل وحدجتني بنظرة ذات معني. نظرة تعني في الحفلات التي نحضرها في هولندا: "ألن نرحل من هنا، لو سمحت؟"، ولكننا هنا لا يمكن أن نرحل، بل محكوم علينا أن نكابد كل هذا حتى النهاية، حتى الغد. في الغد سيسمحان لنا بالرحيل. كان في نظراتها نداء استغاثة.

أومأت إلي زوجة أخي بإيماءة تعني: "لا أقدر الآن"، ولكنني على استعداد فيما بعد أن أقترب منك ونرقص على المرج، ومشيت نحو طاولة الجبن. "إديث بياف" تغني:

'Allez riez! Milord ... Allez chantez! Milord!'

هناك بالطبع شخصيات عنيدة بين هؤلاء المئات من الهولنديين أصحاب المنازل الصيفية في دوردوني. أشخاص يغمضون أعينهم عن الحقيقة، ولا يقرون بحقيقة كونهم أجانب غير مرغوب فيهم هنا. أناس، وبرغم كل ما يدل على خلاف ذلك،

Twitter: @alqareah

يصرون على أن هذه الأفعال استثناء من القاعدة، النوافذ المحطمة والتخريب. لذا لابد من المزيد من العنف حتى يخرج هؤلاء العنيدون من ضباب أوهامهم.

تذكرت في هذه اللحظة فيلمي "كلاب القش" و"النجاة"، وهما فيلمان يخطران لي كلما وجدت نفسي في مأزق، وأنا هنا في هذا المأزق، في دوردوني، فوق التل حيث أقام أخي وزوجة أخي ما أسمياه "جنة فرنسية صغيرة". ففي فيلم "كلاب القش" Straw Dogs، يثأر السكان المحليون بطريقة مروعة من القادمين الجدد الذين ظنوا أنهم قد اشتروا منزلاً لطيفاً في الريف الاسكتلندي. أما في فيلم "النجاة" Deliverance، فتجد أهالي منطقة نائية أمريكية يهجمون بكل وحشية على مجموعة مغامرين من أهل المدينة. القاسم المشترك بين الفيلمين هو القتل والاغتصاب.

حدجتني الممثلة بنظرة من أعلى رأسي إلي أخمص قدمي قبل أن تتكلم:

- زوجتك تخبرني أنكما سترحلان غدا.

في صوتها حس حلو بشكل مصطنع، مثل تلك المادة التي في كوكا كولا لايت، أو الحشو الذي يستخدمونه في شوكولاتة مرضي السكر، والتي يكتبون على غلافها إنها لن تجعلك بديناً. نظرت إلي "كلير"، التي قلبت عينيها قليلا، نحو السماء المرصعة بالنجوم.

- وأنكما ذاهبان إلي إسبانيا تحديداً.

تذكرت واحدًا من مشاهدي المفضلة في فيلم "كلاب القش". كيف سيخرج هذا الصوت المصطنع لو أن اثنين من البنائين المخمورين جروا صاحبته إلي حظيرة؟ مخمورين لدرجة أنهما يعجزان عن التمييز بين امرأة وأطلال كوخ لم يبق منه سوي الجدران. هل ستبقي تصيح وتصرخ وهذان البناءان يعملان على تصحيح أساسها؟ هل سيخرج هذا الصوت لا إرادياً من حنجرتها وهما يسلخانها طبقة بعد طبقة؟

في تلك اللحظة بالذات، سمعنا ضجة عند طرف الحديقة، وليست تلك الحافة المظلمة ذات الشجيرات حيث تقبع مصممة الرقصات مع الكاتب الشاذ، ولكن أقرب إلي المنزل، على طول الممشي المؤدي إلي الطريق المعبدة.

Twitter: @alqareah

كانت مجموعة من حوالي خمسة رجال. أدركت على الفور أنهم فرنسيون، ومن الصعب أن أحدد سبب هذا؛ ربما ملابسهم، التي بدت ريفية بدرجة مبالغ فيها وغير مهندمة مقارنة بهؤلاء الهولنديين الذين يتظاهرون بأنهم في فرنسا. وكان مع أحدهم بندقية معلقة على كتفه.

لعل الأولاد قد قالوا شيئا، ربما طلبوا الإذن بمغادرة الحفل والذهاب إلي القرية، تماما كما كان "ميشيل" يصر في اليوم التالي. ومن ناحية أخري، لم أكن قد لاحظت حقا أنهم لم يكونوا موجودين خلال الساعات القليلة الماضية. فقد كانت ابنة "سيرجي"، "فاليري"، في المطبخ أغلب المساء، تشاهد التلفزيون؛ وخرجت فقط لتوديع الجميع، ولتطبع قبلتين على خدي العم "بول".

الآن أجد "ميشيل" واقفا بين الفرنسيين، محني الرأس. شعره الأسود، الذي كان قد تركه ينمو حتى كتفيه ذلك الصيف، يغطي وجهه، وأحد الرجلين يمسكه بقوة من كتفه. وكذلك كان ابن "سيرجي"، "ريك"، ممسوكًا ولكن ليس بنفس القوة؛ الفرنسي يكتفي فقط بوضع يده برفق على كتفه، كما لو انه لم يعد يشكل تهديدا له.

وبالطبع كان "بيو" – الابن بالتبني وارد بوركينا فاسو الذي وصل إلي هنا ضمن الهولنديين في دوردوني مع والديه الجديدين – هو المقبوض عليه بكل عنف. كان يركل الهواء ويحاول التملص؛ بينما يلوي فرنسيان ذراعيه خلف ظهره وما لبثا أن قاما بتثبيته على الأرض، فصار وجهه ملاصقاً لعشب حديقة أخي.

– مسيو..! مسيو..!

سمعت "سيرجي" يصيح وهو يهرع بخطوات واسعة نحوهم. ولكن كان السكر بادياً عليه، حتى إنه يجد صعوبة في الركض في مسار مستقيم.

'Messieurs! Qu'est-ce qu'il se passe?'

Twitter: @alqareah

13

توجهت إلي دورة المياه، ولكنني حينما عدت وجدت أنهم لم يقدموا الطبق الرئيسي بعد. ولكن كانت هناك زجاجة نبيذ جديدة على المائدة.

لقد بالغوا كثيراً في ديكورات وتأثيث دورة مياه الرجال هذه، حتى إنني أجد أن تسميتها بدورة مياه أو بمرحاض أمر مسيء لها. فالماء ينساب في كل مكان بسلاسة، ليس فقط على امتداد جدار المبولة المصنوع من الصلب المقاوم للصدأ، ولكن أيضا عبر المرايا الطويلة بإطاراتها المصنوعة من الجرانيت. يمكنك أن تقول - وبحق - إنها جميعها ديكورات تتسق مع الكل؛ مع ذيل حصان النادلات، والمريلات السوداء، ومصباح الآرت ديكو على منصة سجل حجز الطاولات، واللحوم الأورجانيك، وبدلة المدير المقلمة. المشكلة الوحيدة في رأيي هي: إلي أين سيفضي هذا الكل؟! فكل هذا لا يعدو أن يكون أشبه بنظارة صممها مصمم شهير، فهي لا تضيف شيئاً إلي شخصية من يرتديها؛ بل على العكس من ذلك، فهي تلفت الانتباه إليها هي أولا وقبل كل شيء، لتقول لمن يراها: أنا نظارة، وإياك أن تنسي ذلك أبداً!

لم أكن بحاجة ملحة للذهاب إلي دورة المياه، ولكنني رغبت في الابتعاد للحظة، بعيدا عن طاولتنا وكل هذه الثرثرة حول الأفلام والعطلات. ولكنني حينما أخذت وضع التبول أمام المبولة الفولاذية المقاومة للصدأ، وفتحت "السوستة"، وجدت أن لصوت هذا الماء المنساب مع صوت موسيقي البيانو في الخلفية تأثيراً جعلني أرغب في التبول بالفعل.

Twitter: @alqareah

في تلك اللحظة سمعت الباب ينفتح ليدخل زائر جديد لدورة المياه. أقول لك بأني لست من هؤلاء الرجال الذين يخجلون فينقطع بولهم فجأة ما إن يدخل شخص آخر المكان، ولكن التبول حينئذ يأخذ مني وقتاً أطول، أحتاج إلي وقت أطول حتى أعاود التبول من جديد. وعندئذ لعنت نفسي لاختياري المبولة بدلاً من الدخول إلي أحد المراحيض.

تنحنح الوافد الجديد عدة مرات؛ وكان يدندن بأغنية بدت مألوفة لي، وسرعان ما عرفتها من نغمها: 'Killing Me Softly'

"يقتلني بنعومه بأغنيته.." .. تغنيها المغنية... تباً، ما كان اسمها؟ آه! "روبيرتا فلاك!" دعوت الله أن يتوجه الرجل إلي أحد المراحيض، ولكنني لمحته بطرف عيني وهو يتجه إلي المبولة وعلي بعد متر واحد مني فحسب. قام بالحركات المعهودة، وما هي إلا ثوان حتى سمعت صوت بوله ينساب قوياً منتظماً ليلتحق بالماء المنساب على جدار المبولة.

تشعر أن هذا الرجل يبول بكل رضا عن النفس، وأنه لا يرغب في أي شيء سوي أن يظهر من خلال البول كم هو على صحة جيدة، وأنه كان من أولئك الفتيان الذين كانوا يتباهون، وهم في المدرسة الابتدائية، بقدرتهم على الوصول ببولهم إلي أبعد مسافة ممكنة.

نظرت فرأيت صاحب البول؛ إنه نفس الرجل الملتحي الذي كان يجلس مع صديقته التي تصغره بكثير في الطاولة المجاورة. في تلك اللحظة، وجدت الرجل ينظر إلي. أومأنا لبعضنا إيماءة غامضة، كعادة أي رجلين يتبولان ولا يفصل بينهما سوي ثلاث أقدام. ومن بين اللحية، ظهر فم الرجل مبتسما ابتسامة المنتصر، هكذا تخيلتها، ابتسامة من يتباهي بقوة بوله، ابتسامة من يتسلي برؤية غيره وهو يعاني ويكابد فقط ليتبول.

أليس البول القوي علامة على الرجولة؟ أليس كذلك؟ ربما، ألا يعطي صاحبه الحق في أن يكون له الأولوية في أي صراع على امرأة؟ وعلي العكس، ألا يعتبر البول الضعيف مؤشرا على أن هناك أشياء أخري عجزت عن أن تتدفق مع

Twitter: @alqareah

البول؟ الحقيقة أن نجاة الجنس البشري ستكون محل شك في حال لم تكن المرأة تكترث أو تنجذب إلي كل صاحب بول قوي.

لم يكن هناك حاجز يفصل بيننا؛ وليس بيدي سوي أن أخفض عيني لألح عضو ذلك الملتحي. ولو اعتمدت على قعقعة بوله، لقلت بأنه عضو كبير، من النوع الذي لا يخجل منه صاحبه، بعروق زرقاء سميكة تحت سطح جلد رمادي داكن يتمتع بالصحة والقوة؛ ذلك النوع الذي قد يغري صاحبه بقضاء عطلته في معسكر العراة، أو بشراء تلك المايوهات الصغيرة التي تظهر أكثر مما تخفي.

أما سبب أنني استأذنت وذهبت إلي دورة المياه فهو أنني عجزت عن احتمال المزيد مما يجري حولي. فقد جرنا الحديث عن أماكن العطلات وعن دوردوني إلي الحديث عن العنصرية. وكانت زوجتي تساندني في موقفي ورأيي أن تجاهل العنصرية والتظاهر بعدم وجود المشكلة يزيد الطين بلة. وجدتها بغتة، ومن دون أن تنظر حتى إلي وجهي، تقول: "أعتقد أن ما يعنيه "بول" هو.. ".

هكذا هي عادتها، أن تصيغ بالكلمات ما تظن أنني أحاول أن أقوله. ولو كان هذا الكلام قد صدر عن واحدة غير "كلير" لكان قد بدا مشوهًا لسمعتي، كما لو أنني عاجز عن التعبير عن آرائي بكلمات يمكن لأي شخص آخر أن يفهمها. ولكنها حينما تأتي من "كلير": "أعتقد أن ما يعنيه "بول" هو.." فإن هذا تعني وحسب أن الآخرين يجدون صعوبة في فهم رأي يطرحه زوجها أمامهم بصورة واضحة جلية، وإنها قد بدأت تفقد صبرها.

بعد ذلك عدنا للحديث عن السينما. قالت "كلير" إن فيلم (خمنا من هو القادم على العشاء؟) "أشد الأفلام عنصرية". الكل يعرف حكاية الفيلم. حيث تقوم ابنة زوجين من البيض الأثرياء ـ يلعب دورهما "سبنسر تريسي" و"كاثرين هيبورن" ـ بدعوة خطيبها الجديد إلي منزلها ليلتقي والديها. ويظهر استياءهما الكبير حينما يتبين أن خطيبها "سيدني بواتييه" أسود. وخلال العشاء، تتضح الحقيقة تدريجيا؛ فهذا الرجل الأسود مهذب، ذكي يرتدي حلة جميلة، وهو أستاذ جامعي. فهو من حيث الفكر والثقافة أفضل بكثير من والدي خطيبته الأبيضين، ولكنهما من الطبقة المتوسطة العليا، الطافحة بالتحيز ضد السود.

Twitter: @alqareah

علقت "كلير":

- تكمن العنصرية في هذه الأحكام المسبقة تحديداً. فصورة السود في مخيلة الأبوين هي تلك التي تشكلت من التلفزيون ومما سمعاه عن الأحياء التي يخشيان الذهاب إليها، فهم فقراء كسالي، مجرمون محبون للعنف. ولكن خطيب ابنتهما، ولحسن الحظ، شاب أسود مثقف ارتدي حلة الرجل الأبيض الأنيقة ذات القطع الثلاث. حتى يبدو أقرب إلي الشاب الأبيض ما أمكنه ذلك.

نظر "سيرجي" إلي زوجتي نظرة منصت مهتم، ولكن لغة جسده تشي بأنه يجد صعوبة في الإنصات إلي أية سيدة لا تندرج ضمن تصنيفه للنساء "الجميلات بحق".

استطردت "كلير": "ولاحقاً في الفيلم يظهر أولئك السود الذين بقوا كما هم. السود الذين يرتدون قبعات البيسبول ويقودون السيارات المبهرجة اللامعة. السود محبو العنف القاطنون أسوأ أحياء المدينة. ولكنهم على طبيعتهم، وغير متكلفين. وليسوا نسخة مخففة من الرجل الأبيض".

في تلك اللحظة سعل أخي وتنحنح. اعتدل في جلسته، ثم مال بجذعه فوق الطاولة، كما لو أنه يبحث عن الميكروفون. هذا هو بالضبط منظره الآن؛ تؤكد لك كل حركة تبدر منه أنه هو ذاك السياسي الوطني، زعيم بلادنا القادم، ولكنه يوشك الآن أن يستبدلها بصورة امرأة تقف أمام ميكروفون بين الحضور في قاعة محلية وتهم بالإدلاء بدلوها.

- وما العيب في أن يقلد السود البيض، "كلير"؟ أنا أسمعك فأفهم منك أنك تريدين منهم أن يبقوا كما هم، حتى ولو كان هذا يعني أن يستمروا على عنفهم وقتل بعضهم في أحيائهم خلال تصارعهم على المخدرات. من دون أي أمل في أن تكون حياتهم أفضل.

نظرت إلي زوجتي. كنت أشجعها من دون أن أتكلم، وأتمني منها أن تفحم أخي، فهو الذي جلب هذا على نفسه، وحانت فرصتها لتسدد له لكمة قاضية، كما يقولون. كان الأمر جد مروعًا بالنسبة لي، تلك الطريقة التي يحاول بها أن

Twitter: @alqareah

يتقمص دوره الحزبي في ثرثرة طبيعية عن الناس والاختلافات بينهم. "أن تكون حياتهم أفضل".. عبارة واحدة لا أكثر، ولكنها تلخص كل الحماقات التي يوعز بها إلي أهل دائرته.

ردت "كلير" عليه بقولها:

- أنا لا أتحدث عن الحياة الأفضل هنا، "سيرجي". بل أتحدث عن الأسلوب الذي ننظر به نحن ـ الهولنديين البيض الأوروبيين ـ إلي الثقافات الأخري. تلك الأشياء التي نخشاها. إذا اقتربت جماعة من سود البشرة نحوك على الرصيف أفلن تشعر برغبة قوية في عبور الشارع إن وجدتهم يرتدون قبعات البيسبول وليس الملابس المهندمة الأنيقة؟ كملابسك وملابسي؟ أو أقرب إلي دبلوماسيين أو موظفين؟.

- أنا لا أرغب أبداً في عبور الشارع، بل أؤمن بأن علينا التعامل مع الكل على قدم المساواة. أنت ذكرت الأمور التي نخشاها. وأنا متفق معك على ذلك. وإذا تجاوزنا مخاوفنا فسيكون بوسعنا المضي قدماً في إيجاد أرضية تفاهم بيننا.

- "سيرجي"، أنا لست مجادلة ترغب في أن تبهرها بعبارات من قبيل التفاهم والارتقاء والحياة الأفضل، أنا زوجة أخيك. ولا يوجد سوانا نحن الأربعة هنا؛ أصدقاء؛ أسرة واحدة.

وجدت نفسي أقول:

- القضية تتعلق بحق المرء في أن يكون أحمق.

خيم صمت قصير، من النوع الذي تسمع خلاله صوت الإبرة إن وقعت، بل خيل لي أن المطعم كله قد وقع أسير هذا الصمت. ولا أبالغ إن قلت إن كل الرؤوس في المطعم التفتت نحوي. هكذا صرت محور الاهتمام، حينما ضحكت "بابيت": "بول.. !".

عقبت على كلامي فقلت:

- لا، ولكنني تذكرت فجأة برنامجاً تلفزيونياً كان يعرض منذ أعوام، لا يسعني تذكر اسمه الآن.

كنت أتذكره جيدا جدا، ولكن ليس لدي رغبة في ذكر اسم البرنامج،

Twitter: @alqareah

فسيكون هذا من باب الإلهاء. كما أن أخي سيبادر بالسخرية من اسم البرنامج، محاولاً إفحام رسالتي الحقيقية حتى قبل أن تسنح لي فرصة أن أوصلها. سيسخر قائلاً: "لم أكن أعلم أنك تشاهد أشياء من هذا القبيل..".

- كان يتناول المثليين. أجروا حواراً مع سيدة عجوز يسكن فوقها شابان مثليان، يعيشان معاً ويرعيان قططها أحيانا. قالت عنهما السيدة: "يالهما من حلوين!". ما قصدت حقا أن تقوله هو أنه حتى ولو كان جيرانها مثليي الجنس، فإن الطريقة التي اعتنيا بها بقططها عندما تكون بالخارج دفعتها ألا أن تدرك أنهما بشر مثلهما مثل غيرهما ومثلي ومثلك. كانت السيدة مبتهجة، فالآن عرف الجميع أنها متسامحة، وجاراها في الطابق العلوي طيبان، حتى لو كانا يمارسان أشياء قذرة، أشياء ممقوتة، غير صحية وغير طبيعية. لكن أثر هذا الانحرافقد قل كثيراً بسلوك بسيط تمثل في رعايتهما للقطط.

سكت لحظات. وابتسمت "بابيت". بينما رفع "سيرجي" حاجبيه مرتين. وبدت "كلير"، زوجتي، مأخوذة؛ نفس النظرة التي تبديها حينما تدرك مقصدي. استطردت لما وجدت الكل ساكتًا:

- حتى تفهموا مقصد هذه السيدة عن جيرانها، سيكون عليكم أن تعكسوا الوضع. فلو لم يقم هذان الشاذان بإطعام القطط، وقاما بدلاً من ذلك برمي تلك القطط بالحجارة أو إلقاء لحم خنزير مسمم إليهما من شرفتهما، فلربما تغير رأيها فيهما؛ مجرد شاذين قذرين وحسب. وأنا أرى أن هذا ما قصدته "كلير" من كلامها عن فيلم (خمنا من هو القادم على العشاء؟): ألا وهو أن "سيدني بواتيه" الحبوب فتي لطيف أيضاً. فلا فارق عندي بين مخرج ذلك الفيلم وتلك السيدة في البرنامج. الحقيقة أنه كان من المفترض أن يكون "سيدني بواتيه" النموذج المحتذي، مثالا على الباقين ـ الزنوج القذرين، المنحطين، الخطرين، اللصوص، المغتصبين، تجار المخدرات ـ أن يحتذوه؛ فإذا رضيتم أيها الزنوج أن ترتدوا الملابس المهندمة مثل "سيدني"، وأن تتصرفوا بإتيكيت مثل أي خطيب فتاة مثالي، فسنكون نحن البيض أصدقاءكم حينئذٍ.

Twitter: @alqareah

14

كان الملتحي يجفف يديه. فقمت بسحب السوستة ليعرف أنني انتهيت، حتى ولو لم تحدث صوتاً، وبعدها اتجهت مباشرة إلي الخارج. كانت يدي على مقبض الباب الفولاذي حينما سمعت الملتحي يقول:

- أليس الأمر صعباً على صديقك، حينما يقصد مطعماً وهو مشهور والكل يعرفه؟

توقفت دون أن أترك المقبض، والتفت ونظرت إليه. كان الملتحي لا يزال يجفف يديه بكومة من المناشف الورقية. ووسط لحيته الكثة كان فمه يلتوي مجدداً ليصنع ابتسامة، ولكنها ليست ابتسامة المنتصر هذه المرة، بل أشبه بمن يظهر أسنانه. كانت ابتسامته تقول بأنه لا يحمل لي أية نوايا سيئة.

قلت له:

- إنه ليس صديقي.

عندئذ تبددت الابتسامة وتوقف عن تجفيف يديه.

- أوه، معذرة. لقد رأيتك للتو جالساً هناك. نحن، أنا وابنتي، وقلنا لأنفسنا: علينا التصرف بطبيعتنا، وعلينا ألا ننظر نحوه.

لم أنبس ببنت شفة. كان اكتشافي أن تلك الفتاة هي ابنته مفاجأة حقيقية لي. فهذا الملتحي وبرغم قوة إطلاقه للبول، يعجز عن غواية أية فتاة أصغر منه

Twitter: @alqareah

بثلاثين عاماً. رمي بكومة المناديل في سلة المهملات الفولاذية؛ كان غطاؤها من النوع الذي يفتح بدواسة قدم، وهو ما جعل من الصعب عليه أن يضع كل المناديل مرة واحدة.

– كنت أتساءل. كنت أتساءل، أنا وابنتي، عما إذا كانت بلادنا بحاجة بالفعل إلي تغيير. إنها تدرس العلوم السياسية، وفكرت في أن ألتقط لها صورة مع السيد "لومان"، لاحقاً.

أخرج من جيب سترته كاميرا مسطحة لامعة.

استطرد قائلاً:

– لن يستغرق الأمر سوي ثوان. أدرك أنه عشاء خاص بالنسبة لك، ولا أريد أن أزعجه. ابنتي.. ابنتي لن تسامحني أبداً إذا عرفت أنني جرؤت على أن أطلب منك هذا. هي من أخبرتني بأنه من غير المستحسن أن أحدق في أي سياسي مشهور إن وجدته في مطعم. وأن على أن أدعه وشأنه، خلال الدقائق التي يختلسها لحياته الخاصة. وأن على ألا أحاول مطلقاً أن ألتقط صورة معه. ولكنني أعلم كم سيكون هذا رائعاً بالنسبة لها. أن تكون لديها صورة مع "سيرجي لومان".

حدقت فيه. وفكرت: كيف يكون شعور المرء لو أن لديه أبًا لا يستطيع تبين ملامح وجهه. وإن كان سيأتي يوم على ابنة هذا الرجل فتفقد صبرها، أو أن يأتي يوم وتعتاد على وجهه هكذا، كأي سجادة قديمة.

قلت له:

– لا مشكلة على الإطلاق. إن السيد "لومان" يسعد دوماً بالتواصل مع مناصريه. ونحن في منتصف مناقشة مهمة الآن، ولكن اتبعني. وعندما أعطيك الإشارة، فستكون هذه هي اللحظة المناسبة لالتقاط الصورة.

Twitter: @alqareah

15

كان أول شيء لاحظته عندما عدت من دورة المياه هو ذاك الصمت المخيم على طاولتنا، ذلك النوع من الصمت المتوتر الذي تعرف منه على الفور أنه قد فاتك شيء مهم.

كنت قد عدت إلي القاعة جنبا إلي جنب مع اللحية؛ وكان هو يسبقني، لذلك لم ألاحظ الصمت إلا حينما كنت بالفعل على مقربة من طاولتنا.

ربما لا، كان هناك شيء آخر لاحظته أولا؛ يد زوجتي، وهي تمتد قطريا عبر مفرش المائدة، لتمسك يد "بابيت". بينما كان أخي يحدق في صحنه الفارغ.

وبعد أن استقر بي المقام في مقعدي أدركت أن "بابيت" كانت تبكي بكاء صامتًا، وبالكاد تدرك اهتزاز كتفيها، وارتعاشة ذراعها؛ تلك الذراع التي تمسك يد "كلير" بيدها.

فكرت ونظرت إلي زوجتي. رفعت "كلير" حاجبيها وألقت نظرة ذات مغزي في اتجاه أخي. وفي تلك اللحظة نفسها، رفع "سيرجي" رأسه، ونظر لي بخجل وهز كتفيه:

– حسنا، "بول"، ربما كان من الأفضل لو مكثت في الحمام فترة أطول قليلا.

سحبت "بابيت" يدها من يد "كلير"، وقبضت على المنديل في حجرها وألقت به في صحنها. وصاحت في "سيرجي":

Twitter: @alqareah

- يا لك من أحمق!

دفعت مقعدها للخلف. في اللحظة التالية كانت تمشي بخطي بطيئة عبر الطاولات، متجهة إلي دورة المياه، أو إلي باب الخروج، كما خطر لي. ولكن لا يبدو لي أنها سوف تتركنا وترحل. عرفت هذا من لغة جسدها، فقد كانت تسير بخطي مهزومة عبر الطاولات، مما يعني أنها تتمني أن يبادر أحدنا فيلحق بها.

وبالفعل، كان أخي يهم بالنهوض من مقعده. فوضعت "كلير" يدها على ساعده.

- دعني أذهب أنا إليها دقيقة، "سيرجي".

نهضت. وسارعت بدورها الخطي عبر الطاولات الأخري. كانت "بابيت" الآن قد توارت عن الأنظار، فلم أستطع أن أعرف ما إذا كانت قد دلفت إلي دورة المياه، أم أنها خرجت بحثاً عن هواء نقي.

نظرت أنا وأخي إلي بعضنا. حاول أن يظهر ابتسامة ضعيفة، لكنه عجز عن ذلك. "إنها.. إنها..". كان يتطلع حوله، ثم اقترب برأسه من رأسي:

- الأمر ليس كما تتصور.

قالها بهدوء شديد حتى أتمكن بالكاد من فهمه.

لفت انتباهي شيء ما في رأسه، في وجهه، هو هو نفس الرأس ونفس الوجه، ولكنه بدا لي كأنه معلق في الهواء، من غير اتصال واضح بجسده، من دون حتى فكرة متماسكة. ذكرني بشخصية كرتونية ركل أحدهم الكرسي من تحتها للتو. حيث تبقي الشخصية الكرتونية معلقة في الهواء للحظة قبل أن تدرك أن الكرسي لم يعد موجوداً، فتقع.

قلت لنفسي: لو أن هذا هو الوجه الذي يوزع به المنشورات في الشارع، تلك التي تدعو الناس العاديين أن يثقوا به ويصوتوا لصالحه في الانتخابات المقبلة، لما كان أحد قد أعاره اهتماما. فهذا الوجه يجعلك الآن تفكر في سيارة جديدة

Twitter: @alqareah

تماما، خرجت للتو من المعرض، ولكنها وعند أول منعطف ارتطمت بعمود مصباح فأحدث بها عاهة في جانبها. ولا أحد يرغب في اقتناء سيارة كهذه.

نهض "سيرجي" وانتقل إلي المقعد المقابل لي، مقعد "كلير"، مقعد زوجتي. إنه، ودون أدني شك، يشعر الآن بحرارة جسدها، التي تركتها وراءها على المقعد، عبر قماش سرواله مباشرة. تلك الفكرة جعلتني أستشيط غضباً.

- حسناً، هكذا سيسهل لي التحدث إليك.

لم أتفوه بشيء. ولن أنكر أنني أحب أن أرى أخي هكذا، متخبطاً. وأنا بالطبع لن ألقي له بطوق النجاة.

- إنها تمر بوقت عصيب في الآونة الأخيرة بسبب ـ حسنا، كما تعلم، كم أكره دائما تلك الكلمة ـ انقطاع الطمث. كان يبدو لي أنه أمر لن يحدث أبدا لزوجتي وزوجتك.

سكت. وكأنه ينتظر مني أن أعقب بشيء عن "كلير"، عن "كلير" وانقطاع الطمث. هكذا فهمت من كلامه. ولكن هذا أمر لا يعنيه. أيًّا كان ما يحصل لـ"كلير"، فليس هذا بشأنه.

تابع قائلاً:

- إنها الهرمونات. في البداية تكون الغرفة ساخنة ولابد من فتح جميع النوافذ، ثم سرعان ما تجدها تبكي فجأة.

التفت برأسه، وكان لا يزال يختلس النظر نحو دورة المياه، ونحو الباب، ثم نحوي.

- ربما يكون من الأفضل لها أن تفضفض مع امرأة أخري. تعلم قصدي، كلام ستات. وأنا في لحظات كهذه لا يسعني فعل أي شيء صائب.

ابتسم ولم أبتسم. رفع زراعيه و أسند مرفقيه إلي الطاولة وهو يضغط أنامله ببعضها. ثم التفت مجدداً.

Twitter: @alqareah

- هناك شيء آخر ينبغي علينا أن نتحدث بشأنه، "بول".

شعرت بغصة باردة وقاسية داخلي، غصة لازمتني طوال هذه الأمسية، ولكنها الان أبرد وأقوي.

- ينبغي علينا التحدث بشأن أولادنا.

أومأت برأسي ونظرت عبر الممر ثم أومأت ثانية. كان الملتحي قد نظر إلي طاولتنا أكثر من مرة حتى الآن. وحتى أكون أشد وضوحاً بالنسبة له، أومأت برأسي مرة ثالثة. وعندها فقط بادلني الملتحي الإيماءة.

رأيته يضع سكينته وشوكته، ويميل إلي ابنته ويهمس لها بشيء. فالتقطت الفتاة حقيبة يدها وبدأت تنقب فيها. وفي تلك الأثناء جذب والدها الكاميرا من جيب سترته ونهض عن مقعده.

Twitter: @alqareah

16

صاح المدير:

- عنب.

كانت خنصره تحوم على بعد أقل من ربع شبر واحد من حفنة ضئيلة من الفواكه التي اعتقدت في البداية أنها توت، أو كشمش أبيض أو شيء من هذا القبيل. لم أكن أعرف أي شيء عن التوت حقا، إلا أن معظم أنواعه غير صالحة لأكل البشر.

كان "العنب" مستقرًا جوار قطعة أرجوانية داكنة من الخس، على بعد بوصتين كاملتين من الفراغ في الصحن من الطبق الرئيسي، "فيليه شرائح الدجاج الحبشي ملفوفة في شرائح رقيقة من لحم الخنزير الألماني المقدد". وكان في صحن "سيرجي" تلك الشريحة الصغيرة من الخس أيضا، ولكن أخي كان قد طلب "تورنيدوس". وليس هناك الكثير مما يمكنك قوله عن "التورنيدوس" إلا أنه قطعة من اللحم، ولكن لأن شيئا ما ينبغي أن يقال، فقد تطوع المدير بوصف موجز لأصل "التورنيدوس". من "مزرعة أورجانيك" حيث تعيش الحيوانات في حرية، إلا أن يتم ذبحها.

Twitter: @alqareah

كدت أرى نفاد صبر "سيرجي" متجسداً أمامي؛ فهو جائع على النحو الذي عهدته فيه حينما يكون جائعاً. عرفت الأعراض وهي تتبدى؛ طرف لسانه يجتاح شفته العليا مثل لسان كلب مفترس في رسم كاريكاتوري، ويفرك يديه بطريقة تجعل من يراه ولا يعرفه يظنه مسروراً، ولكني أعرف أنها علامة أبعد ما تكون عن السرور. فلم يكن أخي مبتهجاً مترقباً؛ بل هناك "تورنيدوس" في صحنه، ولابد لهذا "التورنيدوس" أن يجد طريقه إلي معدته في أسرع وقت ممكن، إنه يريد أن يأكل، الآن!

وهكذا كان مبتغاي الوحيد من السؤال الذي طرحته على المدير هو أن أزيد من عذاب أخي.

لم تكن "بابيت" و"كلير" قد عادتا حتى الآن، ولكن من يهتم. فقد قال لي وهو يري الفتيات المتشحات بالسواد قادمات بالأطباق الرئيسية: "سوف يكونان هنا في أي لحظة ". كانت الفتيات الأربع تسرن خلف المدير. سألنا المدير عما إذا كنا نود منهم الانتظار حتى تعود زوجتانا، ولكن "سيرجي" بادر بالنفي: "من فضلك، ضعها وحسب". كان لسانه يتحرك بالفعل عبر شفته العليا، وكان يفرك يديه بحركات لا إرادية.

أشار إصبع المدير الصغير أولاً نحو طبق فيليه الدجاج الحبشي الملفوف في لحم الخنزير الألماني المقدد، ثم إلي الأطباق الجانبية؛ كومة صغيرة من شرائح اللازانيا مع الباذنجان والريكوتا، معقودة معا في خلة أسنان، بشكل ذكرني بمطعم الشطائر الصغيرة، وكوز ذرة مسلوقة مخوزق من طرفيه فوق "سوستة"، بطريقة تمكنك من التقاط الذرة من دون أن تتسخ يدك، ولكنني وجدت في الأمر شيئًا يبعث على الضحك، أو لا، ليس مثيراً للضحك، بل هم يقصدون أن يبدو مضحكا، وكأنها لمحة ساخرة من الشيف. كانت السوستة مطلية بالكروم وتبزغ بمقدار بوصة من طرفي كوز الذرة، الذي يلمع بفعل الزبدة. وأنا لست مولعا بتناول الذرة بهذه الطريقة، بل وأجد التهام كوز الذرة فعلاً يثير الاشمئزاز، فأنت لا تأكل منه سوي القليل جدا ويبقي الكثير منه عالقا بين أسنانك، في حين يظل الزبد يقطر على ذقنك. الي جانب أنني لم أتخلص أبداً من فكرة أن كيزان الذرة هي ما يعلفون بها الخنازير.

Twitter: @alqareah

بعدما وصف المدير الحالة الأورجانيك للمزرعة، تلك المزرعة التي أتوا منها بقطعة "التورنيدوس" من البقرة مباشرة إلي "سيرجي"، ووعدنا بأنه سيعود بعد قليل لشرح محتويات أطباق زوجاتنا، بادرت أنا فأشرت إلي حفنة التوت قائلاً:

- هل هذا كشمش أبيض؟

كان "سيرجي" قد دب شوكته بالفعل في "التورنيدوس". كان يهم بقطع قطعة، يده اليمني تحمل سكين الاستيك فوق الصحن. وكان المدير قد دار بالفعل على عقبيه، ولكنه الآن التفت. واقترب خنصره من العنب، بينما تعمدت أنا أن أنظر إلي وجه "سيرجي".

يشع وجهه بنفاد الصبر، نفاد الصبر والضيق من هذا التأخير الجديد. لم يكن يبالي بأن يبادر بالتهام شرائح اللحم في غياب "بابيت" و"كلير"، ولكنه أبداً لم يكن ليأكل وهناك شخص غريب يتسكع حول طاولته.

سألني بعدما انصرف المدير أخيراً وتركنا وحدنا:

- ما هي حكايتك والتوت؟ منذ متي وأنت تهتم بالتوت؟

وقطع قطعة كبيرة من "التورنيدوس" ودسها في فمه. أخذ يمضغها لعشر ثوان. وبعدما بلع أخذ يحدق في السقف لبضع لحظات، بدا لي كما لو أنه كان ينتظر وصول اللحم إلي معدته. ثم دب السكين والشوكة في الصحن مرة أخري.

نهضت.

فسألني:

- ما الأمر الآن؟

- سأذهب لأعرف سبب تأخيرهما.

Twitter: @alqareah

17

استطلعت دورة مياه السيدات أولاً. وبحرص، حتى لا أفاجئ أحدًا، دفعت الباب قليلاً:

- "كلير"؟

باستثناء عدم وجود مبولة، كانت دورة مياه السيدات لا تختلف عن دورة مياه الرجال. الفولاذ المقاوم للصدأ والجرانيت وموسيقي البيانو. وكان الفارق الوحيد هو مزهرية تحوي النرجس الأبيض موضوعة بين الحوضين. تذكرت حينئذ صاحب المطعم، وياقته المدورة البيضاء.

- "بابيت"؟

كانت مناداتي لزوجة أخي بنبرة رسمية، وكأني أجد حجة للوقوف أمام باب دورة مياه السيدات، في حال كانت إحدي السيدات بالداخل، ولكن بدا لي أن المكان فارغ.

مشيت إلي الباب الأمامي، مارا على غرفة المعاطف والفتيات الواقفات عند منصة التسجيل. كان الجو دافئاً لطيفاً بالخارج؛ والبدر معلقًا فوق الأشجار، وتسود الجو رائحة الأعشاب، رائحة لم أستطع تحديدها تماما ولكنني أعتقد أنها رائحة متوسطية. وأبعد قليلا، عند حافة الحديقة، رأيت أضواء السيارات،

Twitter: @alqareah

والترام يمر. وأبعد من ذلك، خلال الشجيرات، النوافذ المضاءة للمقهي حيث، في هذه اللحظة بالذات، يجلس عامة الشعب راضين بما يقدم لهم من لحم الريش.

ثم مشيت عبر ممر الحصي المضاء بمشاعل كهربائية، وانعطفت يساراً على امتداد ممشي يدور حول المطعم. على يميني جسر المشاة فوق الخندق، والذي يفضي إلي الشارع المزدحم بالسيارات والمقهي الذي يقدم لحم الريش؛ وإلي يساري بركة مستطيلة. وأبعد من ذلك، حيث يغلف الظلام البركة، رأيت شيئا ظننته في البداية جداراً، ولكنني حينما دققت عرفت أنه سور يرتفع حتى محاذاة الرأس.

انعطفت يساراً مرة أخري، ومشيت على طول حافة حوض السباحة؛ وكان الضوء الصادر من المطعم منعكسًا على المياه المظلمة، ومن هنا تستطيع أن تري رواد المطعم. تقدمت قليلا، ثم توقفت.

لم يكن يفصل بيننا سوي ثلاثين قدما، ولكنني أستطيع رؤية أخي الجالس إلي الطاولة، بينما هو لا يستطيع رؤيتي. بينما كنا ننتظر الطبق الرئيسي، كنت قد نظرت الي الخارج عدة مرات، ولكن مع حلول الظلام لم أكن قادرا على الرؤية بوضوح، ولكنني من حيث كنت أجلس، كنت قادرا على رؤية المطعم كله منعكساً على الزجاج. سيكون على "سيرجي" أن يستدير ويضغط أنفه في النافذة، وحينئذ ربما يراني واقفا هنا، ولكن حتى مع ذلك لم يكن مؤكداً أنه سيري أي شيء أكثر من الظلام في جميع الأنحاء.

تطلعت حولي؛ تبينت بقدر ما أستطيع أن ليس هناك أحد في الحديقة. لا أثر لـ"كلير" و"بابيت". كان أخي قد نحي سكينته وشوكته جانباً ومسح فمه بالمنديل. لا يمكنني من هنا أن أرى صحنه، ولكني أراهن أنه قد أجهز عليه. انتهي الطعام، وصار الشعور بالجوع شيئا من الماضي. رفع "سيرجي" كأسه إلي شفتيه وشرب. فقط في تلك اللحظة، نهض الملتحي وابنته عن طاولتهما. وفي طريقهما إلي الباب توقفا بجوار طاولة "سيرجي". رأيت ذا اللحية يرفع يده، وتبتسم ابنته في وجهه، بينما يرفع "سيرجي" كأسه تحية لهما.

Twitter: @alqareah

لا شك عندي في أنهما رغبا في شكره على اللقاء والتحية. وكان "سيرجي" في الواقع نموذجاً للمجاملة، وأجاد لعب دوره كشخص يتناول العشاء وفي حاجة إلي خصوصية تليق به كرجل مشهور في وطنه. وجه معروف على الصعيد الوطني ويبقي دائما على السحنة نفسها، سحنة شخص عادي، شخص مثلي ومثلك، شخص يمكنك أن تلتقيه وتتحدث إليه في أي وقت وفي أي مكان، لأنه ليس متكبراً أبداً.

وأعتقد أنني كنت الوحيد الذي لاحظ خلجة ضيق على جبينه عندما اقترب منه الملتحي أول مرة. "أرجو أن تعذرني، ولكن.. ولكن.. هذا السيد أكد لي أنه لن تكون هناك مشكلة إذا..". خلجة استغرقت ثانية واحدة؛ وبعدها عادت صورة "سيرجي لومان" الذي يفتخر أي شخص بالتصويت له، المرشح لرئاسة الوزراء الذي يشعر بالراحة بين عامة الناس.

- بالطبع! بالطبع!

صاح في بهجة عندما أظهر الملتحي الكاميرا وأشار إلي ابنته. سألها "سيرجي":

- وما اسمك؟

لم تكن ذات جمال مميز، ليس ذلك النوع الذي تبرق له عينا أخي. ليست بالفتاة التي سيعمد إلي أن يستعرض أمامها، كما فعل مع تلك النادلة الخرقاء، التي تشبه "سكارليت يوهانسون". لها وجه جميل، وجه ذكي، بل ـ وأصحح لنفسي - ذكي جدا لدرجة أن ترغب في أن تحظي بصورة لها مع أخي.

- "نعومي".

- تعالي، اجلسي إلي جانبي، "نعومي".

وحينما جلست على المقعد الفارغ، أحاط كتفيها بذراعه. بينما أخذ الملتحي بضعة خطوات للوراء.

Twitter: @alqareah

- والآن واحدة للذكري.

قال بعد الفلاش الأول، والتقط صورة أخري.

أحدثت مراسم التقاط الصورة قدرا من الانتباه. كان الناس في الطاولات المجاورة، أصدقك القول، يتصرفون كما لو لم تكن هناك صورة تلتقط، ولكن الأمر كان مثل دخول "سيرجي" في وقت سابق من ذلك المساء، وكأن شيئاً لم يحدث، إلا أن هناك بالفعل شيئًا يحدث، ولا أدري كيف يمكن لي أن أصيغ ذلك بوضوح أكبر. الأمر أشبه بالمرور سريعا الي جوار حادث لأنك لا تحب منظر الدم، أو لا، دعني أهون الأمر قليلا؛ مثل حيوان صدمته سيارة ونفق على جانب الطريق، فأنت رأيت الحيوان الميت بالفعل، ولكنك لن تنظر إليه ثانيةً. فلا طاقة لديك على رؤية الدم والأحشاء. وهكذا تتعمد أن تنظر إلي الناحية الأخري، إلي السماء، أو إلي شجيرة مزهرة في الحقل المجاور للطريق، إلي أي شيء عدا ذلك الجانب من الطريق.

كان "سيرجي" بشوشاً لدرجة أغاظتني، وهو يضع ذراعه حول كتفيها على هذا النحو. جذب الفتاة قليلا نحوه وأمال رأسه قليلاً، حتى كاد يلامس رأسه رأسها. وربما كانت النتيجة صورة رائعة، وربما لم تكن ابنة الملتحي تحلم بصورة أفضل من هذه، ولكن لدي قناعة بأن "سيرجي" لن يكون على نفس القدر من البشاشة لو كانت "سكارليت يوهانسون" ـ أو شبيهة "سكارليت يوهانسون" ـ هي التي بجانبه، بدلا من تلك الفتاة.

قال الملتحي:

- نود أن نشكرك جزيلاً. ولن نضايقك أكثر من هذا. ولن نزعج خصوصيتك.

لم تتفوه الفتاة – "ناعومي" – بكلمة، بل دفعت المقعد للوراء ووقفت جوار والدها.

ولكنهما لم يذهبا.

Twitter: @alqareah

سأله الملتحي:

- هل تصادف هذا كثيراً؟

كان يميل برأسه قليلا بحيث كان رأسه فوق الطاولة بقليل، كما كان يتحدث أيضا بهدوء أكثر، وسرية أكبر.

- أن يقترب منك الناس ويطلبوا منك التقاط صور لهم معك؟

حدق أخي في وجهه، وعادت التجاعيد بين حاجبيه. تجاعيد تقول: ما الذي يريدان منه أكثر من ذلك؟ فقد نال الملتحي وابنته الرضا والمراد، فلماذا لا يغربان بوجهيهما عن هنا.

لم يسعني هذه المرة أن ألومه. فقد رأيت هذا يحدث أمامي من قبل، تلك الطريقة التي يحوم بها الناس حوله، عاجزين عن الابتعاد عنه. يريدون لتلك اللحظات أن تطول. نعم، إنهم يريدونها أن تطول، فلا تكفي صورة أو توقيع على أوتوغراف، بل يبتغون شيئا حصرياً، معاملة خاصة؛ شيئًا يميز بينهم وبين كل أولئك الآخرين الذين جاءوه يطلبون منه صورة أو توقيعًا. يبحثون عن حكاية. حكاية يحكونها للجميع في اليوم التالي؛ هل تعرفون من التقيناه الليلة الماضية؟ أجل، إنه هو. لطيف جدا، طبيعي جدا. سيقولون: ظننا أنه بعد التقاط الصورة سيرغب في أن نتركه وحده لكنه لم يفعل، على الإطلاق! بل دعانا إلي الجلوس على طاولته وأصر على أن نتناول مشروبًا معه. لا أعتقد أن مشهوراً آخر مثله يقوم بذلك ولكنه فعل، وكان الوقت متأخرًا حينما غادرنا.

نظر "سيرجي" إلي الملتحي. وصارت التجاعيد بين حاجبيه أوضح، ولكن من لا يعرفه يظن أنها بسبب ألم عينيه من النظر إلي النور. كان يدفع السكين له فوق مفرش المائدة ثم يعيده إليه من جديد في توتر. كنت أشعر بحجم المعضلة التي يعانيها، فقد شهدت على مثل هذا الموقف في كثير من الأحيان، أكثر مما أردت. فأخي يريد أن يتركاه وحده، فقد أظهر الجانب المشرق من شخصيته، وسمح للأب أن يصوره كبشري عادي يضع ذراعه حول كتف ابنته،

Twitter: @alqareah

كان طبيعياً، كان إنسانًا. فأي شخص يعطي صوته لـ"سيرجي لومان" يعطي صوته لرئيس وزراء عادي وإنسان.

ولكن الآن، الآن والملتحي واقف هناك، ينتظر المزيد من الدردشة التي سيتباهي بها أمام زملائه صباح الاثنين، كان على "سيرجي" أن يتمالك أعصابه. فأي تعليق حاد أو حتى ساخر سيفسد كل شيء، وسيذهب كل هذا السحر هباء. ففي يوم الاثنين سيخبر الملتحي زملاءه عن مدي القرف والغطرسة التي عاملهما بهما "سيرجي لومان". فبرغم كل شيء، لم يضايقه الملتحي وابنته، كل ما فعلاه هو طلب التقاط صورة ثم تركه وحفل العشاء الخاص. ومن بين هؤلاء الزملاء يكون هناك اثنان أو ثلاثة من الذين لن يصوتوا لـ"سيرجي لومان" بعد سماع الحكاية؛ بل والمحتمل أن يقوم هؤلاء بنشر حكاية زعيم الحزب المتغطرس. أي إن تأثير هذه القصة سيكون بمثابة "كرة الثلج". وكما هو الحال مع كل كذبة، سيتم تحوير القصة بشكل بشع وعلي نحو متزايد في كل مرة تحكي فيها؛ وسينتشر القيل والقال كالنار في الهشيم، وحكاية تعامل "سيرجي لومان" مع رجل بازدراء، مع أب عادي وابنته طلبا بأدب أن يلتقطا صورًا معه؛ ثم تتحور القصة وتتحور إلي أن تسمع أحدهم وهو يحكي لك كيف قام المرشح لأن يكون رئيس الوزراء بطرد شخصين من مطعم.

وعلي الرغم من أنه لا يمكن أن يلوم إلا نفسه، إلا أنني تعاطفت مع أخي في تلك اللحظة. ولطالما كنت أتعاطف دائما مع نجوم السينما وموسيقي الروك الذين يطاردون مصوري "الباباراتزي" ويحطمون كاميراتهم. ولو قرر "سيرجي" أن يصفع هذا الملتحي على وجهه، أو أيًّا كان ذلك الشيء القابع مخفياً بصورة مثيرة للضحك المقيت أو المقت المضحك وراء كل هذا الشعر، فبوسعه أن يدرك أنني سأكون معه مائة في المائة. كنت سأساعد فألوي ذراع الملتحي وراء ظهره، حتى يركز "سيرجي" على تحطيم وجهه، وسيكون عليه أن يلكمه بكل قوة حتى يتمكن من سحق أي شيء يختفي وراء كل ذلك الشعر.

Twitter: @alqareah

ومن دون مبالغة، يمكنك القول بأن "سيرجي" يتعامل مع الرأي العام بعقلين. في تلك اللحظات وفي تلك المناسبات التي يكون فيها حبيب الجماهير، خلال خطبه في قاعات البلدية، وعندما يجيب على أسئلة الجمهور، أو أمام كاميرات التلفزيون أو ميكروفونات الإذاعة، وعندما يقف في السوق مرتدياً سترة واقية ويوزع منشورات حملته ويتحدث إلى الناس العاديين، أو عندما يقف على منبر، ويرضي عن التصفيق من حوله، لا، ما أود قوله هو أنه يكون على أبهى صورة وسط الحفاوة البالغة والتصفيق الدائم في مؤتمر الحزب؛ حيث تلقي الزهور على المنصة، بعفوية ظاهرة، بينما هي مقصودة ومخطط لها من قبل مدير حملته الانتخابية. إنها ليست مسألة ابتهاج وفخر، أو تشبع بأهمية الذات، أو لأن السياسيين الذين يرغبون في المضي قدما عليهم أن يكونوا كذلك، وإلا ستنتهي حملتهم في الغد، لا، هو مبهر حقا، إنه يشع بشيء ما لا أدريه.

في كل مرة أرى فيها هذا الموقف، أشعر بالاستغراب والدهشة وأنا أتفرج؛ كيف يتحول أخي، الذي لم يكن يشغله قبل لحظات سوي أن يلتهم "التورنيدوس" في ثلاث لقمات ومن دون أية استمتاع بالطعم، أخي الذي يشعر بالملل بسهولة ويظل يهيم في وجوه لا علاقة بينه وبينها، إلى كائن مشع براق ما إن يقف على المنصة وتسلط عليه الأضواء وكاميرات التلفزيون، كيف يستحيل إلى سياسي ذي كاريزما.

تذكرت وصفًا قالته إحدي مذيعات برنامج شبابي، في لقاء لها مع إحدي المجلات النسائية:

- إنه سحره. فكلما اقتربتِ منه حدث شيء ما.

تصادف أن شاهدت تلك الحلقة من البرنامج الشبابي، وكان واضحا لي ما فعله "سيرجي". أوله أنه لم يتوقف عن الابتسام؛ ولقد علم نفسه القيام بذلك، على الرغم من أن عينيه لا تبتسم، وهكذا تدرك أنها ابتسامة مصطنعة. ولكنه يبتسم، والناس تحب ذلك. وخلال معظم الحلقة كان واقفا ويداه في جيبه، ليس بدافع الملل، ولكن من قبيل البساطة، كما لو كان واقفا في فناء مدرسة. هذا التشبيه بفناء

Twitter: @alqareah

المدرسة ليس مبالغاً فيه في الواقع، لأن المقابلة أجريت في مركز شباب صاخب وسيئ الإنارة، بعد كلمة ألقاها هناك. كان أكبر من أن يكون تلميذاً، ولكنه كان أجمل وألطف من أي معلم هناك؛ ذلك المعلم الذي يمكنك أن تثق به، والذي لا يتورع عن أن يقول "شيت" أو "كوول"، ذلك المعلم الذي لا يرتدي ربطة عنق، خلال رحلة ميدانية إلي باريس، والذي لا يتردد في أن يسكر في بار الفندق جنبا إلي جنب مع أي شخص آخر. وبين الحين والآخر، يخرج "سيرجي" يده من جيبه ليوضح بلفتة منها نقطة ما في برنامج الحزب، حينئذ يخيل لك أنه سيمد تلك اليد ليداعب خصلات شعر المذيعة، أو أنه سيتغزل في ذلك الشعر.

ولكن كل هذا يتغير حينما يختلي بنفسه. وله نظرة تميزه مثل أي شخص وهب وجها مشهورا. وعندما يذهب إلي مكان خاص، لا تراه ينظر مباشرة في عيني أي شخص؛ بل تجول عيناه حوله دون تحديد، ويتطلع في السقوف، إلي المصابيح التي تتدلي من تلك السقوف، إلي الطاولات، إلي الكراسي، إلي اللوحات على الجدار؛ فهو يرغب في ألا ينظر إلي أي شيء على الإطلاق. ويبتسم طوال الوقت، ابتسامة شخص يعرف أن الكل ينظر إليه، أو يتعمد ألا ينظر إليه، وهو ما يؤدي إلي الشيء نفسه. وأحيانا يصعب عليه الحفاظ على انفصال هذين الأمرين؛ كونه ملكية عامة وحاجته إلي حياة خاصة. ثم تجده يفكر أنه لا مانع لديه من الاستفادة قليلا من هذا الاهتمام الجماهيري خلال لحظاته الخاصة؛ مثل هذه الليلة، في هذا المطعم.

تطلع في وجه الملتحي ثم نحوي، وكانت التجاعيد قد اختفت. غمز بعينه، وفي اللحظة التالية مد يده في جيب معطفه وأخرج هاتفه المحمول.

- معذرة، هل لي أن أجيب الهاتف؟

ألقي نظرة على الشاشة. ثم عقب:

- أخشي أن على أن أرد على هذه المكالمة.

ابتسم معتذرا للملتحي، ثم ضغط زراً ورفع الهاتف إلي أذنه.

Twitter: @alqareah

لم يكن هناك أي صوت، ولا نغمة رنين عتيقة الطراز، ولا نغمة خاصة، ولكن هذا ممكن، فهناك الكثير من الضوضاء في الخلفية والتي ربما تكون قد منعت الملتحي و"ناعومي" من سماع أي شيء، أو من يدري، فربما كان الهاتف مضبوطاً على الهزاز.

ومن يمكنه أن يعرف الحقيقة؟ بالتأكيد ليس صاحب اللحية. فبالنسبة له هي اللحظة المناسبة لينسل خلسة خالي الوفاض. بالطبع ربما راودته شكوك حول المكالمة الهاتفية، ولديه كل حق في أن يظن أنه مضحوك عليه، ولكن التجربة أثبتت أنه لا يتعمد هذا. لقد فسدت حكايته، لقد أخذا صوراً مع رئيس وزراء هولندا المنتظر، وتحدثا إليه قليلا، ولكنه كان رجلا مشغولا حقًّا.

- أوه، أين؟

لم يعد "سيرجي" ينظر إلي الملتحي وابنته، بل إلي الخارج. أما هما فلم يعودا موجودين فعلاً بالنسبة له. ولا يسعني سوي الاعتراف بمقدرته العالية على التمثيل. قال وهو ينظر إلي ساعته:

- إنني أتناول العشاء الآن.

ذكر اسم المطعم، ثم قال:

- كلا، لن أتمكن من القيام بذلك قبل منتصف الليل.

شعرت أن من واجبي أن أنظر إلي الملتحي. كنت مثل موظف الاستقبال الذي يوصل المريض إلي الباب، لأن الطبيب نفسه انشغل بالتعامل مع المريض التالي. أومأت، ليس بلفتة اعتذار، ولكنها إيماءة تقول له إن عليه وابنته الانسحاب دون حاجة إلي إراقة ماء الوجه.

تنهد أخي حينما صار وحده ثانية ونحي هاتفه جانباً وهو يقول:

Twitter: @alqareah

- هذه من الأوقات التي تسأل فيها نفسك عن طائل ما تقوم بها. يا إلهي، لقد كان هذان سيئين! من النوع الذي لا يتركك ويذهب لحاله. آه لو كانت الفتاة أجمل قليلا.. ثم غمز بعينه وهو يردف:

- أوه، أنا آسف، "بول"، لقد نسيت أنك تحبهن من هذا النوع: النوع البائر.

ابتسم على دعابته، وابتسمت معه، وأنا أنظر نحو الباب لأتبين ما إذا كانت "كلير" و"بابيت" قد عادتا. ولكن في تلك اللحظة، وبغتة، عادت الجدية إلي محيا "سيرجي". أسند مرفقيه على الطاولة وصنع جسراً صغيراً بأنامل يديه:

- والآن، ما الذي كنا نتحدث عنه؟

وعندئذ، عادتا مع الطبق الرئيسي.

Twitter: @alqareah

18

وماذا بعد؟ هأنذا واقف بالخارج، أنظر من على البعد إلي أخي الذي كان يجلس إلي طاولتنا وحده. لدي توق شديد لقضاء بقية المساء هنا، أو على الأقل ألا أعود إلي الداخل.

سمعت صفيراً منغوماً إلكترونياً لم أستطع أن أحدده في البداية، تلاه صفير آخر ثم آخر، بدا أنها معا تشكل نغمة؛ وكأنها نغمة قادمة من هاتف محمول، ولكنه ليس هاتفي.

ولكن سرعان ما تبين لي أنه صادر من جيب سترتي، الجيب الأيمن، وأنا أعسر، لذلك دائماً ما أضع هاتفي في جيبي الأيسر. مددت يدي - اليمني - في جيبي وتحسست،فوجدت سلسلة المفاتيح وشيئًا آخر صلبًا عرفت أنه علبة لبان "ستيمو رول"، لابد أن هذا الشيء الثالث هو الهاتف.

قبل أن أخرج الهاتف، أدركت ما كان يحدث. لم يسعني على الفور أن أفهم كيف وجد هاتف "ميشيل" طريقه إلي جيبي، ولكني ما زلت أجد نفسي في مواجهة حقيقة بسيطة، ألا وهي أن هناك من يتصل بـ"ميشيل" على هاتفه المحمول. والآن وبعدما لم يعد مكتوما في نسيج سترتي، صارت النغمة عالية فجة، لدرجة أنني خفت أن تسمع في جميع أنحاء الحديقة.

- اللعنة.

Twitter: @alqareah

أفضل شيء، بطبيعة الحال، أن أدع الهاتف يرن حتى تتحول المكالمة إلى البريد الصوتي. ولكنني، من ناحية أخرى، كنت أرغب في أن أوقف هذا الضجيج على الفور.

كما أنني أريد أن أعرف من المتصل.

نظرت إلى الشاشة لمعرفة ما إذا كنت قد أعرف اسم المتصل، ولكنني أدركت أن القراءة لا لزوم لها. كانت الشاشة تنير في الظلام، وعلى الرغم من ضبابية معالم الصورة بعض الشيء، إلا أنني لم أجد أي صعوبة في التعرف على وجه زوجتي.

"كلير"، ولسبب أجهله، تتصل بابني، ولا سبيل لدي للتعرف على السبب إلا بطريقة واحدة لا غير.

- "كلير"؟

لم تأتيني إجابة.

- "كلير"؟

نظرت حولي عدة مرات؛ لم يكن من الصعب على أن أتخيل زوجتي وهي تخرج لي بغتة من وراء شجرة لتصيح: "مفاجأة"، وأن الأمر كله مزحة، ولكنها حتى لو كانت مزحة إلا أنني لم أفهمها.

- أبي؟

- "ميشيل"! أين أنت؟

- بالمنزل. لقد كنت.. لم أستطع.. ولكن أين أنتما؟

- في المطعم. لقد أخبرناك بذلك. ولكن كيف..

أردت أن أكمل فأسأله عن كيفية وصول هاتفه إلي، ولكن خيل إلي أنه ليس السؤال المناسب.

- ما الذي أوصل هاتفي إليك؟

Twitter: @alqareah

بدا صوته مندهشاً أكثر من كونه غضبان.

في غرفته، في وقت سابق من ذلك المساء، وهاتفه على الطاولة.. ماذا كنت تفعل هنا؟ قلت إنكما كنتما تبحثان عني. ولماذا تبحثان عني؟ هل كان هاتفه في يدي في تلك اللحظة أم أنني كنت قد وضعته مرة أخري على الطاولة؟ كنت أبحث عنك وحسب. فهل يمكن أن أكون قد أخذته حقا..؟ ولكنني لم أكن قد ارتديت سترتي بعد. فأنا لا أرتدي سترتي أبداً وأنا في المنزل. حاولت أن أتذكر سبب صعودي للطابق العلوي وإلي غرفة ابني مرتدياً السترة.

أجبته بصوت عادي:

– ليست لدي أدني فكرة، أنا مندهش مثلك تماما. أعني أن هاتفينا متشابهان، ولكنني لا أذكر أنني..

– بحثت عنه في كل مكان. وهكذا اتصلت برقمي حتى أسمعه وهو يرن في مكان ما.

صورة والدته على الشاشة. وهو اتصل من منزلنا؛ إذن تظهر الشاشة صورة أمه عندما يتصل به أي أحد من هاتفنا الأرضي بالمنزل. خطر لي سريعاً أنه اختار والدته وليس والده، مجرد خاطر سريع. لماذا لا يضع صورة لوالده ووالدته معاً. في نفس اللحظة أدركت مدي سخافة الفكرة، صورة لوالديه وهما على الأريكة في الصالة، يبتسمان وهما يجلسان متلاصقين. زواج سعيد. بابا وماما يتصلان به. بابا وماما يريدان التحدث إليك. بابا وماما يحبانني أكثر من أي شخص آخر في العالم.

– أنا آسف، يا صاح. أعتقد أنني تصرفت بغباء ووضعت هاتفك عن غير قصد في جيبي. لابد أنها لحظة من لحظات الشيخوخة.

المنزل بالنسبة له هو ماما. المنزل هو "كلير". لكنني لم أشعر بغيرة، بل ربما شعرت بارتياح.

– نحن لن نتأخر، سيكون هاتفك معك بعد ساعتين.

Twitter: @alqareah

- وأين أنتم؟ أوه، نسيت، ذهبتما إلي العشاء. أليس هذا هو المطعم الذي في المتنزه، قبالة..

ذكر "ميشيل" اسم المقهي الشعبي، ثم أردف:

- إنه ليس بعيداً.

- لا تقلق سوف أعيده إليك بسرعة. خلال ساعة على أقصي تقدير.

هل خرج صوتي مريحا سعيداً أم أن بمقدورك أن تخمن من صوتي أنني غير راغب في أن يأتي هو إلي المطعم ويأخذ هاتفه؟

- لا يمكنني الانتظار كل هذا. فعلي أن.. أحتاج بعض الأرقام من عليه، لابد أن أتصل بصديق؟

هل سمعت صوته مترددا فعلاً، أم أنه عيب في الشبكة؟

- يمكنني أن أبحث لك عن الرقم إن أردت. لو أنك أخبرتني أي رقم تريده..

لا، أنا هكذا غلطان. فلا يمكن أن أكون أنا الأب الساذج الذي يسهل الضحك على عقله. الأب الذي يصدق أن بوسعه أن "يدعبس" في هاتف ابنه، لأن "ليس بين الابن وأبيه أسرار". يكفيني أن "ميشيل" راض عني ولا يزال يناديني بابا وليس "بول". أنا لا أحب رفع التكليف عند التخاطب. فتجد طفلاً في السابعة ينادي أباه "جورج" أو أمه "ويلما". فهذا تباسط في غير محله، والخاسر في النهاية هما الأب والأم. ففي البداية يناديك باسمك من دون تكليف، وينتهي بك المطاف تنفذ أوامره من دون أن تنطق بحرف.

أرى مثل هذه المواقف كثيراً حولي، وأجد الآباء يضحكون بخجل عندما يتحدث أطفالهم إليهم بتلك الطريقة. ويبررون: "أوه، أنت تعرف، في هذه الأيام يكبر الأطفال بسرعة"، يحاولون تبسيط الأمور، ولكنهم قصيرو النظر، أو ببساطة جبناء جدا، ولا يدركون أنهم فتحوا على أنفسهم أبواب جهنم. كل

Twitter: @alqareah

أملهم هو، بطبيعة الحال، أن يحبهم أطفالهم لفترة أطول، سواء كان هذا وهما "جورج وويلما"، أو وهما بابا وماما.

إنني أقترب من أن أكون ذلك الأب الذي يفتش في محتويات هاتف ابنه البالغ من العمر خمسة عشر عاما. الأب الذي سيري عدد الفتيات في دليل الهاتف، ويري نوعية الصور التي يختارها ابنه كخلفيات لشاشة هاتفه. كلا، لابني أسراره ولي أنا أيضاً أسراري، ونحن نحترم خصوصية بعضنا، ونطرق باب غرفة كل منا عندما يكون مغلقاً. ولا نخرج وندخل من الحمام عرايا من دون منشفة تلف خاصرتنا، لمجرد أن ليس لدينا شيء نخفيه، كما هو الحال في عائلات "جورج وويلما" التي حدثتك عنها. كلا، الأمر ليس كذلك على الإطلاق!

ولكنني فتشت هاتف "ميشيل" بالفعل. ورأيت أشياء ليست من شأني بالفعل. ومن وجهة نظر "ميشيل" فإنها مصيبة أن يبقي هذا الهاتف معي أكثر من ذلك.

- كلا، بابا. سوف أحضر لآخذه بنفسي.

- "ميشيل"؟

لكنه كان قد أغلق الخط.

- اللعنة!

صحت للمرة الثانية هذا المساء، وفي تلك اللحظة شاهدت "كلير" و"بابيت" تظهران من خلف السور العالي. كانت زوجتي تحتضن بذراعها زوجة أخي.

مرت ثانية، فكرت فيها أن أندس وراء الشجيرات حتى لا أظهر أمامهما. وعندئذ تذكرت سبب خروجي إلي الحديقة في الأصل، كنت أبحث عن "كلير" و"بابيت". وحمدت ربي أن الأمر لم يكن أسوأ. فقد كان من الممكن أن تراني "كلير" وأنا أستخدم هاتف "ميشيل". وعندها سينشغل عقلها بهوية من أقوم بالاتصال به هنا، خارج المطعم، سراً!

Twitter: @alqareah

لوحت لهما واتجهت نحوهما.

- "كلير"!

كانت "بابيت" لا تزال تضع منديلا على أنفها، ولكن لم تعد هناك دموع ظاهرة.

- "بول"..

كانت زوجتي تتطلع مباشرة في وجهي وهي تناديني باسمي. قلبت عينيها كالعادة أولا، ثم تنفست صعداء وهمية. كنت أعرف ما يعنيه ذلك، لأنني رأيتها تفعل ذلك من قبل، ومنها مرة كانت أمها خلالها تحاول أن تأخذ جرعة زائدة من الحبوب المنومة في دار الرعاية.

كانت العيون والتنهيدة تقول لي إن الأمر أسوا مما توقعت.

والآن نظرت "بابيت" إلي أيضاً، وأبعدت المنديل عن وجهها:

- أوه، "بول". عزيزي "بول"..

فبادرت قائلاً:

- الـ ... الطبق الرئيسي وصل.

Twitter: @alqareah

19

لم يكن هناك أحد في دورة مياه الرجال.

وتأكدت من أن المراحيض الثلاثة فارغة.

كنت قد طلبت من "كلير" و"بابيت" أن يسبقاني حينما وصلنا المدخل. قلت لهما إني سألحق بهما خلال دقيقة.

دلفت إلي المرحاض الأبعد عن الباب وأغلقته ورائي. ولأحبك الدور، سحبت سروالي لأسفل ليستقر حول كاحلي وجلست، أما سروالي الداخلي فأبقيته في مكانه.

تناولت هاتف "ميشيل" من جيبي وفتحته.

رأيت على الشاشة شيئاً لم أره من قبل، على الأقل لم ألحظه وأنا في الحديقة.

كان هناك في أسفل الشاشة صندوق أبيض صغير:

2 "ميسد كولز".

فاسو.

فاسو؟ ومن هو فاسو هذا بحق الجحيم؟

بدا لي اسماً مستعاراً، اسما لا يليق بأي أحد أصلاً..

Twitter: @alqareah

ولكنني تذكرت فجأة. بالطبع! فاسو! فقد كان "فاسو" هو الاسم الذي أطلقه "ميشيل" و"ريك" على الأخ/ابن العم بالتبني. "بيو". وذلك على اسم البلد التي ولد فيها. وبسبب اسمه الأول: بيو.

"بيو فاسو". ب. فاسو.. بوركينا فاسو.

لقد أطلقاه عليه منذ عامين، على الأقل فقد كانت تلك أول مرة أسمعهما فيها يستخدمان هذا الاسم، خلال حفل عيد ميلاد "كلير". سمعت "ميشيل" يقول له: "أتريد من هذا، "فاسو"؟". كان يمد يده إلي "بيو" بطبق بلاستيكي أحمر يحوي الفيشار.

كما سمعه "سيرجي"، الذي كان واقفاً على مقربة منهما، فقال:

- أرجوك، توقف عن هذا؛ فاسمه "بيو".

بينما ظهر لي أن "بيو" نفسه آخر شخص في العالم يضايقه هذا الاسم. فقد قال لأخي:

- لا بأس، بابا.

- كلا، هذا غلط. فاسمك "بيو". "فاسو"!، أعتقد أن هذا الاسم.. ليس لطيفاً.

ربما قصد "سيرجي" أن يقول له إن هذه تفرقة عنصرية، ولكنه سكت في اللحظة الأخيرة.

- ولكن لكل شخص اسم شهرة، بابا.

كل شخص. هذا ما يريده "بيو" إذن. إنه يريد أن يكون مثل غيره.

بعد ذلك لم أسمع "ميشيل" و"ريك" يستخدمان هذا الاسم في تواجد أشخاص غيرهم. ولكن يبدو أن الاسم قد عاش حتى وصل إلي قائمة اتصال "ميشيل".

فما السبب الذي دعا "بيو/فاسو" إلي الاتصال بابني؟

Twitter: @alqareah

يمكنني أن أستمع إلي البريد الصوتي، هذا إذا كان قد ترك رسالة، ولكن عندئذ سيدرك "ميشيل" على الفور أنني كنت أبحث في هاتفه. كلانا مشترك في شبكة "فودافون"، وصرت أحفظ رسالة سيدة البريد الصوتي عن ظهر قلب. ولو أنني فتحت هذه الرسالة، فسيعرف "ميشيل" ما إن يسمع تلك السيدة وهي تفضحني: "لديك رسالة واحدة قديمة".

ضغطت زر الاختيار، وأخذت أبحث حتى وصلت إلي (مدير الملفات) ومنه إلي (مقاطع الفيديو).

ظهرت لي قائمة منسدلة: 1. فيديو – 2. مقاطع فيديو محملة – 3. مقاطع الفيديو المفضلة.

وتماماً كما فعلت منذ بضعة ساعات ـ بدت لي الآن كالدهر ـ في غرفة "ميشيل"، ضغطت على 3. مقاطع الفيديو المفضلة؛ إنها لحظة أهم من الدهر، إنها نقطة تحول، تماماً كما نقول قبل الحرب وبعد الحرب.

كان أحدث فيديو مميزًا بالأزرق؛ كان هذا مقطع الفيديو الذي كنت قد شاهدته منذ دهر مضي. عدت إلي المقطع السابق عليه، وضغطت "خيارات"، ثم تشغيل.

إنها محطة. رصيف محطة، وتبدو محطة مترو الانفاق. نعم، محطة مترو فوق الأرض في واحدة من الضواحي، وذلك من النظر إلي تلك العمارات الشاهقة في الخلفية. ربما في الجانب الجنوبي الشرقي من البلدة، أو في "سلوترفارت".

اسمع، سأكون صريحاً معك، لقد تعرفت على محطة المترو. عرفتها على الفور، وعرفت خط المترو أيضاً، ولكنني قررت أن أبقي الأمر سراً؛ فليس في مصلحة أحد الآن أن أذكر اسم محطة المترو.

اقتربت عدسة الكاميرا من الأرض وبدأت في تعقب حذاء رياضي أبيض يمشي على الرصيف بشيء من التعجل. وبعد حين انتقلت الكاميرا لأعلي مرة أخري، ورأيت رجلا، رجلا كبير السن، قريبًا من الستين، على الرغم من صعوبة تحديد ذلك بالنسبة لشخص مثله، وكان من الواضح على أي حال أن هذا لم يكن صاحب

Twitter: @alqareah

الحذاء الرياضي الأبيض. وعندما اقتربت الكاميرا زووم أمكن أن أرى وجهه؛ منمشًا وغير حليق. ربما هو متسول، على الأرجح، شخص بلا مأوي. شيء من هذا القبيل.

شعرت بنفس القشعريرة التي شعرت بها في غرفة "ميشيل"، تلك التي تنبع من الداخل.

وإلي جوار رأس المتشرد، ظهر رأس "ريك". ابن أخي يبتسم للكاميرا.

- هيا، صور. أكشن!

ثم، ومن دون سابق إنذار، لطم الرجل على وجهه، فوق أذنه. كانت لطمة مباغتة بالفعل، حتى إن رأس الرجل مال بشدة، وترنح الرجل ورفع يديه ليحمي أذنيه، وكأنه يتحسب للطمة القادمة.

صاح فيه "ريك" بالإنجليزية، وبلكنة ذكرتني بممثل هولندي يؤدي دوراً في فيلم أمريكي أو بريطاني:

- أنت حثالة، أيها الوغد!

اقتربت الكاميرا أكثر، حتى ملأ وجه المتشرد غير الحليق الشاشة الصغيرة. كان يرمش بعصبيه، وعيناه حمراوان دامعتان، وتتمتم شفتاه بكلام غير مفهوم.

صاح صوت لشخص غير ظاهر في المشهد، وأدركت على الفور أنه صوت ابني:

- قل أنا أحمق.

اختفي رأس الرجل المتشرد، وظهر "ريك" مرة أخري. وظهر ابن أخي في الكاميرا وهو يتعمد رسم ابتسامة غبية على وجهه:

- لا تجربوا هذا في بيوتكم.

ثم دار حول عقبيه، أو ربما شوح بذراعه، وسمعت صوت لكمة عنيفة، ولكني لم أرها.

كرر "ميشيل":

Twitter: @alqareah

- قل أنا أحمق.

ظهر وجه المتشرد مجدداً على الشاشة، وفي هذه المرة، ومن خلال زاوية الكاميرا، لم تكن هناك تلك العمارات في الخلفية، بل امتداد خرساني رمادي بطول الرصيف ومن خلفه السكة الحديدية، كان راقدًا على الأرض، شفتاه ترتجفان، وعيناه مغلقتان. وكان يردد بارتجافة:

- أحمـ .. أحمـ .. أحمق.

وهنا توقف الكادر. ووسط ما أعقبه من صمت لم أسمع سوي صوت خرير ماء جدار المبولة.

"ينبغي علينا أن نتحدث عن أولادنا".

هذا ما قاله لنا "سيرجي" منذ ساعةأو ساعتين.

تمنيت لو أمكنني أن أمكث في مكاني هذا حتى صباح الغد، وحتى يجدني عمال النظافة قابعاً هكذا.

ولكني نهضت.

Twitter: @alqareah

20

ترددت عند مدخل قاعة الطعام.

يمكن أن يصل "ميشيل" في أي لحظة لاستعادة هاتفه المحمول. هو لم يأت بعد، وقد تأكدت من هذا حينما تقدمت بضع خطوات إلي الأمام، ثم توقفت، ليس هناك على طاولتنا سوي "كلير"، "بابيت" و"سيرجي".

اندسست وراء نخلة كبيرة عريضة الجذع. أخذت أتلصص من وراء سعفها، لا أظن أنهم رأوني.

أفضل شيء أن أعترض طريق "ميشيل". هنا في المدخل، أو عند غرفة المعاطف، والأفضل وبطبيعة الحال في الخارج في الحديقة. أجل، أريد الذهاب إلي الحديقة، وبهذه الطريقة أمشي إليه وأقابله في منتصف الطريق، وأعطيه هاتفه المحمول هناك. فلا تعوقني النظرات أو تطاردني أسئلة والدته وعمه وعمته.

درت على عقبي ومشيت للخارج، ماراً على الفتاة عند منصة التسجيل. لم تكن لدي خطة معينة. لابد لي من أن أتحدث مع ابني. ولكن ماذا أقول؟ قررت أن أنتظر وأرى ما اذا كان سيبادر هو بالاعتراف بأي شيء، سأولي اهتماماً شديداً بعينيه، هاتين العينين الصادقتين اللتين لا تجيدان الكذب.

تتبعت مسار المشاعل الكهربائية، ثم انعطفت إلي اليسار، تماما كما فعلت في وقت سابق من هذا المساء. من الواضح أن "ميشيل" سيسلك نفس المسار

Twitter: @alqareah

الذي سلكناه، عبر جسر المشاة قبالة المقهى الشعبي. كان هناك مدخل آخر إلى الحديقة، في الواقع كان هو المدخل الرئيسي، ولكن سيتوجب عليه أن يدور لمسافة أبعد في الظلام.

عندما وصلت إلى الجسر، توقفت ونظرت حولي. لم يكن هناك أحد على مدى البصر. وكان ضوء مشاعل المطعم قد أضحى مجرد وهج ضعيف مصفر، مثل شموع.

كان للظلام ميزة. فالظلام، وحينما لا يتسنى لأحدنا أن يتبين ملامح الآخر، كفيل بأن يفك عقدة لسان "ميشيل"، فيقول الحقيقة.

ثم ماذا؟ ماذا سأفعل بهذه "الحقيقة"؟ فركت عينيّ. لابد أن أبدو متيقظاً، لاحقاً على الأقل. وضعت يدي أمام فمي، وزفرت وشممت. أجل، رائحة أنفاسي كحول، من شرب البيرة والنبيذ. ولكنني حتى الآن، وقد عددت الكؤوس، لم أشرب سوى خمس. لقد قررت قبلاً أن أبقي رابط الجأش؛ فأنا لا أود أن أمنح "سيرجي" فرصة أن يسجل في مرماي هدفاً مهما كلفني هذا. وأنا أعرف نفسي جيدا، وبما فيه الكفاية، وكنت أعرف أن العشاء في مكان عام يتطلب منحني محدودًا من التركيز، وأن بنهاية هذا المنحني لن تكون لدي المقدرة على الرد عليه إن عاود التحدث عن أولادنا مرة أخري.

نظرت إلى الجانب الآخر من الجسر وإلى أضواء المقهى البازغة من وراء الشجيرات، على الجانب الآخر من الشارع. مرق الترام عبر المحطة دون أن يبطئ، وبعده خيم الصمت مرة أخري. وجدتني أصيح:

- أسرع، الآن!

وهناك وفي تلك اللحظة بالذات، سمعت "صدي صوتي"، وحلت بي يقظة حركها "هذا الصدي"، حتى إنني أدركت فجأة ما كان ينبغي على القيام به.

أخرجت هاتف "ميشيل" من جيب سترتي وفتحته.

وضغطت "إظهار".

Twitter: @alqareah

قرأت كلتا الرسالتين: الأولي تحتوي على رقم هاتف، والتعليق الذي يخبرك أن لا رسائل أخري هناك؛ والثانية تخبرني بأن نفس الرقم قد ترك "رسالة واحدة جديدة".

قارنت بين توقيتي الرسالتين. لم يكن بين الأولي والثانية سوي دقيقتين. وكلتا الرسالتان وصلتا منذ خمس عشرة دقيقة تقريباً؛ أي بينما كنت أتحدث مع ابني على الهاتف، في هذه الحديقة، على مسافة قريبة من هنا.

ضغطت (الخيارات) مرتين، ثم ضغطت (مسح).

ثم اتصلت بالرقم المسجل في البريد الصوتي.

وهكذا عندما يحصل "ميشيل" على هاتفه لن تكون هناك أي مكالمات لم يرد عليها على الشاشة، وبالتالي فلن يكون هناك سبب يدفعه إلي البحث في البريد الصوتي، ليس اليوم على الأقل.

بعد أن أعلنت سيدة البريد الصوتي أن لا رسائل جديدة هناك وأن هناك اثنتين قديمتين، سمعت صوت الرسالة:

- أنت! أنت! ألن تتصل بي أم ماذا؟!

أنت! منذ ستة أشهر مضت، و"بيو" بدأ يتقمص دور الأمريكي الزنجي، بقبعة نيويورك يانكيز وبتلك اللكنة العجيبة. لقد جلبوه من أفريقيا إلي هنا، وحتى وقت قريب كان يتحدث الهولندية العادية. ولكن ليست الهولندية التي نتحدثها، ولكنها تلك التي تتحدثها دائرة أصدقاء ومعارف أخي وزوجتي. تلك اللكنة المحايدة، لكن تلك اللكنة التي يعرفها الآلاف بأنها لكنة النخبة الهولندية التي ستسمعها في ملعب تنس أو في مطعم نادي الهوكي.

فربما نظر "بيو" في المرآة ذات صباح فأدرك أن أفريقيا هي مرادف الشفقة والفقر. وأدرك كذلك أنه، وبرغم لكنته الراقية، لن يكون هولندياً في يوم من الأيام. وهكذا كان من المنطقي أن يبحث عن هويته في مكان آخر، على الجانب الآخر من الأطلسي، وفي أعماق أحياء زنوج نيويورك ولوس أنجلوس.

Twitter: @alqareah

كان هناك ومنذ البداية، وبرغم هذا المنطق، شيء ما أزعجني بشدة في هذا التحول. نفس الشيء الذي أزعجني دائما بشأن ابن أخي بالتبني، شيء يتعلق بتلك الهالة من القداسة، لو صح أن تسميها كذلك، والدهاء الذي استغل به اختلافه عن والديه بالتبني، وشقيقه بالتبني، وأخته بالتبني وابن عمه.

ووقت أن كان صبياً صغيراً كان قريبًا من 'أمه' أكثر بكثير من "ريك" أو "فاليري"، وعادة ما يكون باكياً في حجرها. فتربت "بابيت" عليه وتحتضن رأسه الأسود الصغير وتطمئنه بكلمات حنون، ولكنها كانت تتلفت حولها لتعرف من هو المسؤول عن بكاء "بيو".

وعادة ما يكون المذنب ليس ببعيد. فتتساءل متهمة ابنها "البيولوجي":

- ما الذي حدث لـ"بيو"؟

أسمع "ريك" وهو يدافع عن نفسه:

- لا شيء، ماما. كل ما فعلته هو أن نظرت إليه.

وحينما بحت لـ"كلير" بعدم محبتي لـ"بيو"، هبت في:

- الحقيقة أنك عنصري.

- كلا، لست كذلك. سأكون عنصرياً حقاً لو أنني أحببت هذا المدعي الصغير لمجرد اختلاف لون بشرته أو اختلاف موطنه. إنها تفرقة عنصرية إيجابية. وسأكون عنصرياً حقاً لو أن تصنعات ابن أخينا المتبني هذا دفعتني إلي أن أعمم حكمي عليه ليشمل عموم أفريقيا، أو عموم بوركينا فاسو.

- كنت أمازحك فحسب.

دراجة قادمة عبر الجسر. دراجة تنير الطريق بمصباحها. لا أرى الراكب سوي خيال، ولكنني قادر على تمييز ابني من بين آلاف الأشخاص، حتى في الظلام. تلك الطريقة التي يقود بها دراجته مثل الدراجين المحترفين، وتلك الليونة التي يكسبها للدراجة فتتراقص يميناً ويساراً من دون أن يحرك جسمه، تلك

Twitter: @alqareah

حركات وطبائع.. حيوان مفترس. خطر لي هذا الوصف في ذهني دون سيطرة مني عليه. ولكنني قصدت أن أقول لك إنه رياضي.. حركات وطبائع رياضي.

مارس "ميشيل" كرة القدم والتنس، وقبل ستة أشهر التحق بصالة "جيم". لا يدخن، ومعتدل جدا مع الكحول، وعبر في أكثر من مناسبة عن ازدرائه للمخدرات، بكل أنواعها. 'هؤلاء فشلة'، هكذا كان يصف مدمني المخدرات في فصله، ونحن، "كلير" وأنا، كنا مسرورين جدا لسماع هذا منه، سعيدين لأن ابننا ليس من بين هؤلاء "الصيع"؛ فهو مواظب على الحضور في المدرسة ودائما ما يؤدي واجبه المنزلي. لم يكن بذاك الطالب المتميز بشكل استثنائي، فهو لم يخرج أبداً من مساره إلي مسار آخر يؤدي به إلي التفوق، بل في الواقع وبالكاد ينجز الحد الأدني، ولكن من ناحية أخري لم تصلنا أية شكاوي منه. وكانت درجاته في الامتحانات عادة ما تكون 'متوسطة'، ولكنه كان ينال "ممتاز" في جميع الأنشطة الرياضية.

صاحت في سيدة البريد الصوتي:

- رسالة قديمة.

أدركت عندئذ فقط أنني ما زالت أحمل هاتفه المحمول عند أذني. كان "ميشيل" بالفعل في منتصف الطريق عبر الجسر. أدرت ظهري له وبدأت أمشي نحو المطعم؛ مهما حدث، فإنني مضطر إلي قطع الاتصال في أسرع وقت ممكن ودس الهاتف مرة أخري في جيبي. ولكنني سمعت صوت ريك عبر الرسالة:

- الليلة. سوف نقوم بهذا الليلة. اتصل بي. تشاو.

بعد ذلك أنبأتني سيدة البريد الصوتي بتوقيت وتاريخ الرسالة.

سمعت "ميشيل" خلفي، وإطارا الدراجة يمرقان فوق الحصي.

كررت مرة أخري:

- رسالة قديمة.

Twitter: @alqareah

اجتازني "ميشيل". ما الذي رآه؟ رجلا يتسكع عبر المتنزه وحده رافعا هاتفاً إلي أذنه أم أنه رأي والده ومعه أو ليس معه الهاتف المحمول؟

أتاني الآن صوت "كلير"، في ذات اللحظة التي مر على فيها "ميشيل":

- هاي، حبيبي.

دخل بالدراجة في الممشي المضاء ثم توقف، وترجل عن الدراجة. تلفت حوله في سرعة، ثم سار بدراجته إلي مكان وضعها على اليسار من المدخل. بينما كنت أسمع زوجتي:

- سوف أكون في المنزل خلال ساعة. سأذهب مع والدك إلي المطعم في السابعة، وسوف أعمل على أن نبقي هناك إلي ما بعد منتصف الليل. لذا عليك القيام بذلك الليلة. والدك لا يعرف أي شيء، وأريد أن يبقي الأمر طي الكتمان. إلي اللقاء، حبيبي. أراك قريباً.

أغلق "ميشيل" قفل دراجته ومشي نحو الباب. ذكرتني سيدة البريد الصوتي بالتاريخ (اليوم) والتوقيت (الثانية عصرا) لهذه الرسالة.

والدك لا يعرف أي شيء.

صحت:

- "ميشيل"!

دسست الهاتف في جيبي. توقف ونظر حوله فلوحت له.

وأنا سأتظاهر أني "لا أعرف أي شيء".

مشي ابني نحوي فوق الحصي. والتقينا أعلي الممشي. وكان مضاء بضوء قوي. قلت لنفسي إنني سوف أحتاج هذا الضوء القوي.

ألقي على التحية. كان يرتدي قبعته "النايك" السوداء، وسماعة الأذن مستلقية على عنقه، وسلكها يصل حتى ياقة سترته. سترة خضراء، "دولتشي

Twitter: @alqareah

آند جابانا"، كان قد ابتاعها مع بقية ملابس منذ وقت ليس ببعيد، وأتذكر أنه لم يجد بعد أن اشتراها مالاً يكفي لشراء جوارب أو ملابس داخلية كان يريدها.

– مرحبا، يا صاح. قلت لنفسي أخرج لأتمشي وألتقيك.

نظر ابني إلي، بعينيه الصادقتين اللتين لا يمكنك أن تصفها سوي بالصدق. (والدك لا يعرف أي شيء).

– ولكنك كنت تتحدث في الهاتف.

سكت.

– إلي من كنت تتحدث؟

يحاول أن يجعل نبرة صوته عادية، ولكني لاحظت لهفة فيها. نبرة لم أسمعها أبداً منه من قبل، نبرة جعلتني أشعر بقشعريرة أوقفت شعر عنقي.

– كنت أحاول الاتصال بك. كنت قلقاً بسبب تأخرك.

Twitter: @alqareah

21

هذا ما حدث. وما سأقصه عليك هو الحقيقة.

ذات ليلة، قبل نحو شهرين، كان هناك ثلاثة فتيان في طريق عودتهم الي المنزل قادمين من حفل. حفل في كانتين مدرسة ثانوية ينتمي إليها اثنان من الفتيان الثلاثة. هذان الاثنان شقيقان، أحدهما بالتبني.

أما الفتي الثالث فملتحق بمدرسة أخري. وكان ابن عمهما.

وعلي الرغم من أن ابن العم لا يشرب الخمر، إلا أنه تناول في ذلك المساء قدحين من البيرة، تماما مثل الاثنين الآخرين. وبالطبع رقص أولاد العم مع الفتيات، وهن لسن صديقاتهم، لأنه ليس لديهم صديقات في هذا العمر بعد، بل فتيات على كل شكل ولون. أما الأخ بالتبني فكانت لديه صديقة قضي معظم المساء يقبلها في ركن مظلم.

لم ترحل الصديقة معهم حينما قرروا ترك الحفل، فقد كان عليهم أن يكونوا في المنزل بحلول الواحدة. أما الفتاة فقد كانت تنتظر والدها ليأتي ويصطحبها.

كانت الساعة الواحدة والنصف، ولكن الفتيان رأوا أنهم لا يزالون في الحدود المسموح بها. كانوا قد اتفقوا من قبل على أن يبيت ابن العم مع الأخين في منزلهما، حيث كان والدا الأخين يمضيان بضعة أيام في باريس.

Twitter: @alqareah

قرروا أن يشربوا قدحًا أخيرًا من البيرة في مقهي على طريق عودتهم. ولكن لم يكن في جعبتهم ما يكفي من المال، فكان عليهم التوقف أولاً عند ماكينة صراف آلي. وكانت على بعد بضعة شوارع من مكانهم، فهم الآن في منتصف المسافة تقريبا بين المدرسة والمنزل. كانت من النوع الذي له باب أمان زجاجي خارجي؛ أما الماكينة نفسها فكانت داخل الجدار.

دخل أحد الأخين، البيولوجي، ليجلب النقود. أما الابن بالتبني وابن العم فانتظراه في الخارج. ولكن الأخ البيولوجي خرج ثانيةً على الفور.

– بهذه السرعة؟ هكذا سألاه.

قال لهما:

– كلا، لقد أفزعني شيء ما.

– وما هو؟

– بالداخل. هناك شيء بالداخل. شخص نائم، في كيس نوم. يا إلهي، لقد كدت أدوس على رأسه.

أما ما حدث بالضبط بعد ذلك – وقبل كل ذلك من كان أول من خرج بتلك الخطة الكارثية – فقد اختلفت حوله الروايات. ولكن الثلاثة اتفقوا على أنه كان قابعاً نتناً داخل كابينة الصراف الآلي. رائحته رهيبة؛ خليط من العرق ورائحة أخري وصفها أحدهم بأنها تشبه رائحة جثة متعفنة.

لتلك الرائحة دلالتها، والشخص الذي نتنت رائحته لا يمكن التعاطف معه، فرائحة كهذه تصيب المرء بالعمي، مهما كانت تلك الروائح بشرية، فإنها تجعلك لا تتصور أن هذا الشخص النتن شخص حقيقي من لحم ودم. وهذا ليس عذرا لما حدث، ولكن من غير العدل أن نتغاضي عن هذه الحقيقة.

ثلاثة أولاد خرجوا للحصول على بعض النقود، وليس الكثير منها، بضع ورقات من فئة عشرة يورو، لجولة أخيرة من البيرة في المقهي. ولكن لا سبيل

Twitter: @alqareah

لديهم للمكوث وسط هذه الرائحة الكريهة، وأنت لا يمكنك أن تمكث جوارها لأكثر من عشر ثوان من دون أن تختنق، وكأن هناك كيس قمامة ممزقًا ومفتوحًا.

ولكن هذا شخص راقد هناك، شخص حي يتنفس، أجل، حتى ولو كان يشخر وهو نائم.

قال لهما الأخ بالتبني:

- هيا، لنبحث عن ماكينة أخري.

- كلا. هذا جنون، كيف لا يمكننا الحصول على مال لمجرد أن أحدهم اختار أن ينام أمام الماكينة، وسط كل هذه النتانة المنبعثة منه.

- أقول لكم هيا، لنذهب من هنا.

لكن الاثنين الآخرين يريان أن في هذا ضعف شخصية، لسوف يسحبون أموالهم من هنا، ولن يبحثوا عن ماكينة أخري. والآن دخل ابن العم، وأخذ يصيح في كيس النوم.

- أنت، أنت، استيقظ! انهض!

فقال الابن بالتبني:

- أنا ذاهب. ليس لي علاقة بهذا.

- لا تكن جباناً، فسوف نسحب المال ونذهب لشرب البيرة.

ولكن الابن بالتبني أصر على موقفه، وأخبرهما أنه متعب ولا يود شرب البيرة على أي حال، ومن ثم استقل دراجته وذهب.

حاول الأخ البيولوجي أن يوقفه، وصاح:

- انتظر لحظة.

Twitter: @alqareah

ولكن الأخ بالتبني أشاح بيده، ثم اختفي عند المنعطف.

قال ابن العم:

- دعه يذهب. إنه ممل، أحمق متحذلق.

دخلا معاً الكابينة. وجر الأخ كيس النوم:

- أنت، انهض! أوه، تباً، رائحته شديدة النتانة.

ركل ابن العمل كيس النوم من عند القدمين. إنها ليست رائحة جثة حقاً، بل رائحة كيس من أكياس القمامة. أجل، أكياس القمامة محشوة بفضلات الطعام، عظام الدجاج، وأكياس القهوة المتعفنة. "استيقظ!" تملكهما نوع من العناد، ابن العم والأخ، ولسوف يسحبان المال من هذه الماكينة وليس من أي مكان آخر. وهما بالطبع لم يشربا سوي القليل في حفل المدرسة. وهذا هو في الواقع نفس العناد، عناد سائق سكران مصمم على أن يقود السيارة بنفسه، عناد ضيف ثقيل يمكث حتى بعد نهاية حفلة عيد ميلادك، والذي يتلقف زجاجة البيرة الأخيرة ـ واحدة للطريق ـ ثم يحكي لك نفس القصة التي حكاها لك سبع مرات على الأقل هذا المساء.

- عليك أن تنهض، أيها السيد، فهذه ماكينة أموال.

حافظا على أدبهما بالرغم من النتانة التي تدفعك شدتها إلي البكاء، ورغم هذا أخذا ينعتانه بالسيد. ولا شك في أن هذا الغريب، المندس داخل كيس النوم، أكبر سناً منهما. سيد، هو متشرد، ولكن لا مانع في أن ينعتاه بالسيد.

والآن، وللمرة الأولي، بدأت أصوات تخرج من داخل كيس النوم. نفس الأصوات التي تتوقع أن تسمعها في هذه الظروف: أنين، آهات، وغمغمة غير مفهومة. الحياة تدب في الجثة. إنه كطفل لا يريد أن يستيقظ الآن، ولا يود أن يذهب إلي المدرسة اليوم، ولكن الأصوات أعقبتها حركات، شخص أو شيء يتمدد، وكأنك تنتظر بين لحظة وأخري أن تنبثق رأس أو يخرج طرف من قماش كيس النوم.

Twitter: @alqareah

لم تكن لديهم خطة واضحة، الأخ وابن العم، وأدركا ربما بعد فوات الأوان أنهما ليسا راغبين في أن يعرفا على وجه اليقين ما كان مختبئًا داخل كيس النوم. فهو بالنسبة لهما حتى الآن مجرد عقبة، شيء في طريقهما، ولكنه يبعث برائحة وحشية النتانة، فلا مكان له هنا، ولابد أن ينزاح من هنا، ولكنهما ولكن عليهما الآن التحدث إلي هذا الشيء ـ أو الشخص ـ الذي يستيقظ رغماً عن إرادته، ويستيقظ من أحلامه؛ ومن هذا الذي يعرف ما يحلم به المتشرد النتن، ربما يحلم بسقف فوق رأسه، ربما بوجبة دافئة، وزوجة وأطفال، أو منزل، أو بكلب لطيف يهز له ذيله ويركض نحوه عبرَ الحديقة التي تروي برشاش آلي.

- اغربا عن وجهي!

لم تكن العبارة هي التي باغتتهما، بل هو الصوت. فقد حطم كل التوقعات. فأنت تنتظر أن يخرج لك وجه غير حليق من كيس النوم، بشعر متعرق ملتصق بجمجمته، وفم بلا أسنان ولم تبقَ منه إلا آثارها السوداء. ولكن هذا الصوت.. صوت امرأة..

ولكن ماذا لو كان.. في تلك اللحظة ذاتها، بدأ كيس النوم يتحرك أكثر؛ يد، يد أخري، ذراع كاملة، ثم الرأس. لا تستطيع أن تخمن على الفور، أو أجل تستطيع، بسبب الشعر الذي به بقع صلعاء؛ شعر أسود، وخصلات رمادية هنا وهناك، وتلمع من تحته فروة الرأس. ولكن صلعة الرجل تكون مختلفة. أما الوجه نفسه فهو وسخ، غير حليق، أو لا، هو وجه مزغب بالشعر، وليس بوجه رجل.

- اغربا عن وجهي! أيها الأوباش!

الصوت شديد، والمرأة تشيح لهما بذراع واحدة، وكأنها تطرد الذباب. إنها امرأة. فنظر الأخ وابن العم إلي بعضهما. إنه الوقت المناسب للفرار. ولاحقاً، سوف يتذكر كلاهما تلك اللحظة. فقد تغير كل شيء بعد اكتشافهما أنها امرأة.

هيا بنا، لنذهب من هنا.

- تباً لكما! اغربا عن وجهي! اغربا عن وجهي!

Twitter: @alqareah

صاح فيها ابن العم:

- أغلقي فمك! أقول لكي أغلقي فمك!

ركل كيس النوم بقوة، ولكن لم يكن هناك حيز واسع ليركل كما يريد، فهو بالكاد يحافظ على توازنه، وينزلق، فتطول ركلته وجه المرأة تحت أنفها مباشرة. ارتفعت يد متشحمة ذات أصابع منتفخة وأظافر سوداء نحو أنفها؛ فهناك دم. "الأوباش!" سمعاها، والصوت الآن عال جدا وأشد شراسة حتى بدا أنه يأتي من كل مكان. "قتلة! أوساخ!" سحب الأخ ابن عمه نحو الباب.

- هيا بنا، لنخرج من هنا.

وسرعان ما كانا خارج الباب.

- أوباش أوغاد وسخين.

لا يزالان يسمعانها وهي بالداخل، ولكن الحاجز الزجاجي كتم الصوت كثيراً، ولكنه لا يزال مسموعاً بصوت عال بما فيه الكفاية عبر هذا الركن من الشارع. وخاصة في هذا الوقت المتأخر، والشارع المهجور، ولم تكن هناك سوي ثلاث أو أربع نوافذ مضاءة في المنطقة بأكملها.

قال ابن العم:

- أنا لم أكن أقصد أن.. لقد انزلقت قدمي. يا إلهي، يا لها من شمطاء عفنة!

- بالتأكيد. مؤكد أنك لم تقصد. تباً. ليتها تسكت!

لا يزال الصوت يخرج من الكابينة، ولكن الباب انغلق الآن، والصوت مكتوم، مبهم، مصاب.

وفجأة، لم يستطيعا منع نفسها من الضحك؛ وسيتذكران لاحقاً الطريقة التي نظرا بها إلي بعضهما، بوجهيهما المحمرين؛ وذلك الصوت المكتوم المتذمر المنبعث من وراء الباب الزجاجي، وكيف انفجرا ضاحكين من دون توقف.

Twitter: @alqareah

لدرجة أنهما استندا إلي الجدار حتى لا يسقطا، ثم مالا على بعضهما، واحتضنا بعضهما وجسداهما يهتزان من الضحك.أوساخ! كان الأخ يقلد صوت المرأة الشرس. أوباش! قالها ابن العم وهو يجلس القرفصاء، ثم يسقط على الأرض.

- توقفي من فضلك! من فضلك! أنتِ تقتلينني!

جوار شجرة عدد من أكياس القمامة، ووأشياء أخري موضوعة حتى تأتي عربة القمامة في الصباح: مقعد مكتب ذو عجلات، وصندوق من الورق المقوي كان يحوي من قبل شاشة تلفزيون، ومصباح مكتبي وأنبوب صورة. كانا لا يزالان يضحكان وهما يلتقطان المقعد ويحملانه نحو الكابينة. قذرة، فاسدة، عاهرة! قذفا المقعد نحو الكابينة، نحو كيس النوم، الذي دخلت فيه المرأة مرة أخري. فتح ابن العم الباب، وعاد الأخ ليحضر المصباح، وكيسي القمامة. أخرجت المرأة رأسها للخروج من كيس النوم مرة أخري، وكان شعرها ملتصقاً حقا بكومة من أقمشة متشحمة دهنية، كانت لها لحية، ربما هي قذارة متراكمة. حاولت أن تدفع المقعد بعيدا بيد واحدة، ولكنها لم تنجح. ثم ارتطم كيس القمامة الأول بوجهها بقوة، حتى إن رأسها ترنح، وارتطم بشدة بسلة المهملات المعلقة في الحائط. والآن يلقي ابن العم بالمصباح. إنه من طراز قديم له غطاء مدور وذراع قابلة للطي. ارتطم الغطاء المعدني بأنف المرأة. ولعل من الغريب أنها كانت قد توقفت عن الصراخ، ولم يعد الأخ وابن العم يسمعان منها صوتا. بل قبعت في مكانها، تهز رأسها بعصبية عندما ضربها كيس القمامة الثاني في وجهها.

- عاهرة غبية، اذهبي وغيبي عن الوعي في مكان آخر! احصلي على عمل! احصلي على عمل!

- احصلي على عمل، عمل، عمل!

خرج ابن العم مرة أخري، نحو الشجرة حيث كان كيسا القمامة. نحي كرتونة الشاشة جانباً، ورأي الجركن. كان أخضرَ من ذلك النوع الذي يستخدمه الجيش، من النوع الذي تراه على ظهور سيارات الجيب. التقط ابن

Twitter: @alqareah

العم الجركن من مقبضه، وجده فارغاً، وما الذي كان يتوقعه خلاف ذلك؟ فمن الذي سيضع جركن مليئًا عند صندوق المهملات؟

صاح الأخ حينما رأي ابن عمه:

- كلا، كلا، ما الذي تظن أنك فاعله؟

- لا شيء، إنه فارغ، أليس كذلك؟

كانت المرأة قد عادت إلي رشدها قليلا:

- أنتما أيها الصبع. يجب أن تشعرا بالخجل من نفسيكما

كان صوتها، الآن وفجأة، حازمًا، كأنه صوت من الماضي البعيد، ولكنه صوت يسبق الانهيار.

قال ابن العم وهو يحمل الجركن:

- الرائحة نتنة هنا، وسوف نغير الرائحة قليلاً.

- لطيف، ولكن هل يمكن أن أعود إلي النوم الآن؟

كان الدم تحت أنفها قد جف بالفعل. بينما يلقي ابن العم بالجركن الفارغ - ربما عن قصد، فمن يدري – إلي جوار رأسها، ولكن على مسافة آمنة، فيحدث الكثير من الضوضاء، وهذا صحيح، ولكن أثره لم يكن بمثل سوء أثر كيسي القمامة والمصباح.

وفيما بعد – بعد بضعة أسابيع – سيظهر الفيديو في *Opsporing Verzocht*، وهي النسخة الهولندية من قائمة *Most Wanted* الشهيرة، كيف أن الشابين، وبعدما ألقيا الجركن، قد خرجا. لقد بقيا خارج الكادر لوقت طويل نسبياً. ولكن كاميرا المراقبة الخاصة بماكينة الصراف الآلي لم تظهر امرأة كيس النوم. كانت مسلطة على الباب، أي على من يدخل ليسحب مالاً، فتري من يقوم بالتعامل مع الماكينة، ولكنها كاميرا ثابتة، أي إن بقية أرجاء الكابينة بعيد عن عدستها.

Twitter: @alqareah

في ذلك المساء الذي شاهدت فيه "كلير" اللقطات لأول مرة، كان "ميشيل" في الطابق العلوي في غرفته. كنا جالسين بجانب بعضنا على الأريكة في غرفة المعيشة، مع صحيفة وزجاجة من النبيذ الأحمر تبقت من العشاء. كانت القصة منشورة في جميع الصحف، وظهرت في نشرات الأخبار المسائية عدة مرات، ولكنها كانت أول مرة يتم فيها بث اللقطات على الهواء. كانت اللقطات غير واضحة، وتعرف على الفور أنها لقطات من كاميرا الأمن. وحتى ذلك الحين، كان رد فعل الرأي العام هو الغضب الشديد. فإلى أية هاوية يتجه العالم؟ امرأة لا حول لها ولا قوة.. أمام شابين.. ووسط عبارات غاية في الوقاحة. أجل، بدأت النداءات التي تطالب بعودة عقوبة الإعدام تظهر مرة أخرى.

كان ذلك كله قبل نشرة المساء. فحتى ذلك الحين كان الأمر لا يعدو أن يكون تقريراً إخباريًّا، تقريرا صادما، وحقيقيًّا فعلاً، ولكنه - مثل جميع التقارير الإخبارية - مقدر له أن يتواري شيئاً فشيئاً. ومع مرور الوقت سوف تخف حدته ووقعه، إلى أن ينسى الناس الحكاية كلها تماما، ولا يكون من المهم أن تجد لها مكاناً في ذاكرتنا الجماعية.

ولكن لقطات كاميرا الأمن غيرت كل ذلك. فقد منحت الشابين – المعتديين - وجهاً، حتى وإن كان وجهًا من الصعب التعرف عليه بسبب رداءة اللقطات، وحقيقة أن كليهما كان يرتدي قبعة تخفي معظم وجهه. ولكن ما تعرف عليه المشاهدون كان شيئا آخر، لقد تبين لهم وبوضوح أن الولدين يتسليان، وأنهما كان يقهقهان بالضحك وهما يرشقان ضحيتهما العاجزة - أو غير الظاهرة في اللقطات على الأقل ـ أولا بمقعد مكتب، ثم بكيسي قمامة، ثم بمصباح، وأخيرا بجركن فارغ. تراهما – عبر لقطات مهتزة بالأبيض والأسود – وهما يتصافحان "هاي فايف" بعدما رميا كيسي القمامة عليها، وكيف أنهما يسبانها، ويعتديان عليها بلا شك، على امرأة بلا مأوى لا تظهر في الكادر، حتى ولو لم يكن هناك صوت للقطات.

والأهم، أنك رأيتهما يضحكان. كانت تلك هي لحظة الذاكرة الجماعية بحذافيرها. إنها لحظة أساسية؛ فتيان يضحكان يطلبان مكانًا لهما في الذاكرة

Twitter: @alqareah

الجماعية. وفي قائمة "أفضل عشرة" في الذاكرة الجماعية جاءت تلك اللقطات في المرتبة الثامنة، ربما بعد لقطات محاكمة العقيد الفيتنامي الذي أعدم جندي الفيتكونغ بعيار في الرأس، وربما حتى قبل لقطات الرجل الصيني الذي يحمل الحقائب ويحاول وقف الدبابات في ساحة "تيانانمن".

كما كان هناك شيء آخر لعب دورا مهماً. وهو أن كليهما كان يرتدي قبعة، ولكن من الواضح أنهما من الطبقة المتوسطة العليا. ومن البيض. لم يكن من السهل أن أحدد كيفية التوصل إلي هذا، فمن الصعب أن تتيقن من أمر كهذا، ولكنه شيء في ملابسهما، حركاتهما. هما مثل أولئك الأولاد في الشارع. وليسا من ذلك النوع الذي يشعل النار في السيارات ليشعل معها شغبًا عرقيًّا. ولهما آباء ميسورو الحال جداً. هما مثل الفتيان الذين نعرفهم جميعا، مثل أقاربنا أو آبائنا.

ولو عدت بالذاكرة للوراء، لأمكنني أن أتذكر تلك اللحظة التي أدركت فيها أن الأمر لا يتعلق بفتيان يشبهون أقاربنا أو أولادنا، ولكنه بالفعل يتعلق بابننا وابن أخي. كانت لحظة باردة وهادئة لحد الموت. وحتى هذه اللحظة، أقول لك إنني أتذكر تلك الثانية خلال مشاهدة اللقطات حينما التفت لأنظر إلي وجه "كلير" المتقع. ولأن التحقيق لا يزال جاريا، فلن أحكي لك هنا عما جعلني أدرك، وبصدمة الاعتراف، أنني كنت جالسا على الأريكة أشاهد ابني وهو يلقي على امرأة متشردة مقعد مكتب وكيسي قمامة ويضحك. لن أحكي لك أكثر من ذلك، لأنني ومن الناحية القانونية مازلت قادراً على أن أنكر كل شيء. هل تقر بأن هذا الولد هو "ميشيل لومان"؟ وفي هذه المرحلة من التحقيقات لا يزال بوسعي أن أهز رأسي نفياً، وأن أقول: "من الصعب التحديد.. فهذه الصور ليست واضحة، وأنا لا يمكن أن أقسم على أمر كهذا".

ظهرت لقطات أكثر فيما بعد: تجميعات، وتم عمل مونتاج للفترات التي لم تكن بها أحداث. فلم تعد تشاهد سوي الفتيان وهما يعودان في كل لحظة إلي الكابينة وبجعبتهما شيء يلقيانه.

جاء أسوأ جزء في النهاية، وكانت اللقطة الرئيسية: الصورة التي جذبت اهتمام نصف العالم. فتري أولاً الجركن وهو يطير في الهواء - الجركن الفارغ - وبعد

Twitter: @alqareah

ذلك، وبعدما خرجا مرة أخري وعادا، تري شيئًا آخر؛ ولكن لا يمكنك أن تميزه من هذه اللقطات: ولاعة؟ عود ثقاب؟ فأنت لا تري سوي التماعة لهب، وميض ضوء، يكشف كل شيء لثانية، ويعمي اللقطة لبضع ثوان. فتتحول الشاشة بيضاء. وعندما تعود الصورة مرة أخري تشاهد الفتيان وهما يسارعان بالهرب.

لم يعودا ثانيةً. ولم تعرض لقطات الكاميرا الأمنية الكثير بعد ذلك. لا دخان ولا نار. فلم يعقب انفجار الجركن أية نيران. ولكن هذا تحديداً ما جعل من تلك اللقطات لقطات مروعة، إنك لا تري أي شيء، لأن أهم حدث كان يجري بعيدا عن الكاميرا، فكان لزاماً عليك كمشاهد أن تملأ هذا الفراغ بخيالك، وكل مشاهد وخياله!

لقد لقيت المتشردة مصرعها في تلك اللحظات، على الأقرب. لحظة أن انفجر بخار الجاز الذي كان في الجركن في وجهها. أو بعد دقيقتين على الأكثر من انفجاره. ربما حاولت أن تهرب وتتخلص من كيس النوم، وربما عجزت عن ذلك. ولكن هذا كله.. كان خارج الكادر.

نظرت – كما قلت لك آنفاً – إلي وجه "كلير" المتقع. أعرف أنها لم تلتفت إلي طوال مشاهدة اللقطات، ولو فعلت لعرفت. ولو فعلت لرأت نفس الوجه.. المتقع.

وأخيراً، التفتت تنظر إلي.

حبست أنفاسي بعد أن أخذت نفساً عميقاً، حتى أبادر أنا بكلام ـ لا أعرف فحواه يقيناً ـ سيقلب حياتنا رأساً على عقب.

التقطت "كلير" زجاجة النبيذ الأحمر: لم يتبق فيها سوي القليل، ما يكفي لملء نصف الكأس.

سألتني:

– هل يكفيك هذا أم تود أن أفتح زجاجة أخري؟

Twitter: @alqareah

22

وضع "ميشيل" يديه في جيبي سترته، لم أتيقن مما إذا كان قد صدق كذبتي أم لا. وحينما التفت برأسه سقط ضوء المطعم على جانب وجهه فأناره.

- أين ماما؟

ماما، "كلير"، زوجتي. كانت ماما قد أخبرت ابنها أن بابا لا يعرف شيئاً عن كل هذا، وأنها تريده ألا يعرف.

وفي وقت سابق من المساء، ونحن في المقهي الشعبي، سألتني زوجتي عما إذا كنت أعتقد أنا أيضا أن ابننا يتصرف بغرابة في الآونة الأخيرة. أو هكذا أتذكر الكلمات التي استخدمتها. وقالت لي إننا الاثنين نتحدث في أمور لا تتحدث هي عنها. أيكون للأمر علاقة بفتاة؟

فهل كانت "كلير" تتظاهر بالقلق على سلوك "ميشيل"؟ وهل كانت تسألني حتى تستخرج مني كل معلومة أعرفها؟ وهل لدي علم بما كان ابني وابن عمه يفعلانه في وقت الفراغ؟

قلت له:

- ماما بالداخل. مع..

كدت أن أقول له مع العم "سيرجي" والعمة "بابيت"، ولكنني وفي ضوء الأحداث الأخيرة، وجدت أن جملة كهذه ستكون طفولية بغباء. فقد مضي زمن "العم"

Twitter: @alqareah

و"العمة" هذا، صار في الماضي البعيد، حينما كان لا يزال سعيداً، وهكذا ابتلعت لساني. تحسبت لكي لا ترتجف شفتاي، أو أن يلمح "ميشيل" عينيّ الدامعتين.

– ..."سيرجي" و"بابيت". وقد جلبوا الطبق الرئيسي للتو.

أكنت مخطئا، أم أنني رأيت "ميشيل" وهو يتحسس ملابسه بحثاً عن شيء في جيوب سترته؟ هاتفه، ربما؟ إنه لا يرتدي ساعة، ويعتمد على هاتفه المحمول في معرفة الوقت. تذكرت أن "كلير" قد أكدت له أنها ستتيح له فرصة حتى بعد منتصف الليل. عليكما أن تفعلاها الليلة. فهل وجد الآن ـ في هذه اللحظة، وبعد أن عرفته بأمر الطبق الرئيسي وأنه قد وصل لتوه ـ حاجة للتحقق من الوقت؟ ما تبقي له من وقت حتى ' منتصف الليل'، لكي يقوما بما كان عليهما القيام به؟

عندما سأل عن والدته، كانت نبرة صوته التي أرعبتني منذ نصف دقيقة قد اختفت من صوت "ميشيل". أين ماما؟ كانت كلمة "العم" و"العمة" صبيانية، مجرد ذكري من أيام حفلات أعياد الميلاد، حيث أسئلة من قبيل "ماذا تريد أن تكون عندما تكبر؟" ولكن كلمة 'ماما' تبقي كما هي؛ ماما. سوف تبقي دائما ماما.. ماما.

ومن دون مزيد من التفكير، قررت أن اللحظة قد حانت. فأخرجت هاتف "ميشيل" من جيبي. فنظر إلي يدي، ثم رفع عينيه لتلتقي عينيّ.

– لقد شاهدت ما به؟

لم يعد في صوته تهديد، بل هو صوت منهك مستسلم.

– أجل

هززت كتفيّ، بالطريقة التي تفعلها تجاه أمر لم يعد من الممكن تغييره. قلت له:

– "ميشيل"..

– ما الذي عرفته؟

Twitter: @alqareah

تناول الهاتف من يدي، وفتحه، ثم أغلقه مجدداً.

- حسناً.. ماكينة الصراف.. محطة المترو..

ابتسمت ابتسامة عريضة؛ ابتسامة غبية إلي حد ما، ولا محل لها من الإعراب على الإطلاق، ولكنني ابتسمتها، وسيكون هذا هو أسلوبي في المواجهة. سأكون ذلك الغر الجاهل، الأب الساذج الذي لا يري مشكلة في أن يضرب ابنه المتشردين ويضرم النار في من لا مأوي لهم. أجل، العبط هو السلاح المناسب، ولن يكون صعباً على أن ألعب دور الأب العبيط؛ فالحقيقة أنني كنت كذلك بالفعل؛ ساذجاً عبيطاً.

قلت وأنا مازلت مبتسماً:

- أحمق..

- وهل ماما تعرف؟

- كلا.

وما الذي تعرفه ماما، هذا ما كنت أود أن أسأله إياه، ولكن ليس بعد. عادت بي الذاكرة إلي ذلك المساء حينما شاهدنا عبر التلفزيون لقطات واقعة ماكينة الصراف الآلي لأول مرة. سألتني "كلير" عما إذا كنت أرغب في آخر ما في زجاجة النبيذ، أم تفتح أخري جديدة. ثم توجهت - وهذا صحيح - إلي المطبخ. وفي تلك الأثناء، كانت المذيعة تستحث المشاهدين للاتصال بالرقم الظاهر في شريط أسفل الشاشة في حال كانت لديهم أي معلومات قد تؤدي إلي القبض على الجناة. 'ويمكنك، بالطبع، تنبيه الشرطة المحلية'؛ كانت تنظر إلي نظرة تقول لي بدهشة: "ما الذي جري للعالم؟".

في ذلك المساء، بعدما دخلت "كلير" الفراش بصحبة كتاب، صعدت الطابق العلوي إلي غرفة "ميشيل". رأيت شريطًا من الضوء يخرج من تحت الباب. وأتذكر أنني بقيت واقفا عند الباب لدقيقة كاملة. سألت نفسي بكل جدية الدنيا

Twitter: @alqareah

ماذا سيحدث لو أنني سكت. إذا تناسيت الأمر وانتبهت لحياتي، مثل أي شخص آخر. فكرت في السعادة، في الأزواج السعداء، وفي عيني ابني.

ولكنني فكرت حينئذ في كل هؤلاء الذين شاهدوا البرنامج؛ طلبة في مدرسة "ريك" و"بيو" ممن كانوا في ذلك الحفل وفي نفس الليلة، والذين شاهدوا نفس ما شاهدت. فكرت في أهل الحي، هنا في شارعنا؛ الجيران وأصحاب المحلات الذين يعرفون الفتي الذي يمرق أمامهم ذهابًا وإيابًا حاملاً حقيبته الرياضية، مرتدياً سترته وواضعا قبعته بإحكام فوق رأسه.

وأخيرا، فكرت في أخي. إنه ليس بعبقري، بل لا مبالغة إن قلت لك إنه ناقص العقل. وإن صحت استطلاعات الرأي، فسأراه بعد الانتخابات القادمة وهو يؤدي اليمين الدستورية كرئيس جديد للوزراء. فهل شاهد الفيديو؟ و"بابيت"؟ إن أي غريب لن يعرف أن ولدينا هما من كانا باللقطات، ولكن هناك غريزة في الآباء تمكنهم من التعرف على أولادهم من وسط الآلاف؛ في شاطئ مزدحم، في ملعب، وحتى في لقطات غير واضحة بالأبيض والأسود.

طرقت بابه، ففتحه:

- "ميشيل"! هل مازلت صاحياً؟

- ما الأمر، بابا؟

بعد ذلك جرت الأمور بسرعة، بأسرع مما توقعت أنا على الأقل. بدا لي أنه قد استراح جداً حينما باح بالسر لشخص غيره.

- يا ربي، يا ربي. هذا غريب حقاً، أن أتحدث عن هذا الآن، بيننا وحدنا.

كان يتحدث وكأن هذا هو كل ما في الأمر، إنه غريب. كما لو كنا نتحدث عن التفاصيل الدقيقة لكيفية التعرف على فتاة في حفلة المدرسة. وقد كان محقاً في جانب من الجوانب، فهو لم يتعمد أن يتورط في أمر كهذا، ولم يفعله من قبل. ولكن الأغرب من هذا وذاك هو هذا البرود الذي أتعامل به مع ما حدث منذ

Twitter: @alqareah

البداية، وكأنني أمنحه حرية ألا يقول لي كل شيء، مع أنني والده، ولابد أن أعمل على أن تكون هذه حقيقة مؤلمة بالنسبة له.

- لم نكن نعرف، أليس كذلك؟ وكيف لنا أن نعرف أن ذلك الجركن كان يحتوي على القليل من الجاز؟ لقد كان فارغاً، أقسم لك أنه قد كان فارغاً.

وهل يهم ما إذا كان هو وابن عمه جاهلين بحقيقة أن جراكن الجاز الفارغة يمكن أن تنفجر أيضا؟ أو ما إذا كانا يتظاهران بالجهل بشيء من المعلومات المعروفة، بظاهرة "التغويز"، أي أبخرة الغاز؟ فمن المعروف أنك لا يمكن أن تقرب عود ثقاب مشتعلا من خزان جاز أو سولار فارغ. وإلا لماذا يمنعون استخدام الهاتف المحمول في محطات البنزين؟ لأن هناك احتمال خطر بأن تنفجر أبخرة البنزين.

أليس كذلك؟

لم أقل له أي شيء من ذلك. وكما قلت لك من قبل، لم أكن أحاول نفي حجج "ميشيل" لإثبات براءته. أنا حتى لا أعلم أي شيء عن مدي براءته على أية حال؟ فهل يكون المرء بريئاً عندما يلقي بمصباح على رأس إنسان، ومذنباً عندما يضرم النار في نفس ذلك الإنسان؟

- وهل ماما تعرف؟

أجل، سألني هذا السؤال، حتى في ذلك الحين.

هززت رأسي. وهكذا وقفنا في غرفته لبرهة، من دون أن نتفوه بحرف، وأيدينا في جيوبنا. لم أضغط عليه. لم أسأله، مثلاً؛ عن ذلك الخبل الذي حل بعقله، وعما كان يفكر فيه هو وابن عمه عندما شرعا في رجم المتشردة بتلك الأشياء.

حينما أتذكر الأمر، أدرك أنني كنت قد حسمت أمري خلال تلك الدقائق القليلة من الصمت، ونحن واقفان وأيدينا في جيوبنا. وفي تلك اللحظات تذكرت يوم أن ركل "ميشيل" الكرة فحطم نافذة متجر الدراجات، وكان في الثامنة. ذهبنا معا إلي صاحب المحل نعرض عليه دفع ثمن ذلك الضرر. ولكن صاحب

Twitter: @alqareah

المال لم يكن قانعاً بذلك. وألقي علينا خطبة عصماء عن أولئك 'الحثالة' الذين يلعبون كرة القدم أمام متجره كل يوم، والذين يتعمدون ركل الكرة إلي واجهة المحل. وقال إنها كانت ستتحطم إن عاجلا أو آجلا، "وهذا هو بالضبط ما كان أولئك الأشرار يأملون فيه".

كنت أمسك بيد "ميشيل" ونحن نستمع إلي صاحب محل الدراجات. كان ابني الصغير ينظر إلي الأرض معترفاً بالذنب، ويضغط على أصابعي بين الحين والآخر.

لقد كان هذا المزيج؛ هذا المزيج من تاجر الدراجات الفظ الذي عد "ميشيل" من ضمن الحثالة، وابني الذي تجاوب مع تلك المحاضرة بشعور عظيم بالذنب، هو الذي استثار بقعة ما في عقلي:

- ولمَ لا تخرس وحسب؟

كان صاحب المحل واقفاً وراء الكاونتر، وبدا لي أنه لم يفهم ما قلته في بداية الأمر.

- ما الذي قلت؟

- بل سمعتني بوضوح، أيها الأحمق. لقد أتيتك هنا مع ابني لنعرض عليك أن نسدد تكاليف إصلاح النافذة الحقيرة، وليس لكي نسمع هذا الهراء عن أولاد يلعبون الكرة. "لماذا تجعل من الحبة قبة؟". أيها الغبي، كرة وحطمت نافذة. وهذا لا يعطيك أي حق في أن تنعت صبيًّا في الثامنة بكونه حثالة. لقد أتيت لدفع ثمن الأضرار، ولكنك الآن لن تحصل مني على أي سنت. ودبر أمورك بنفسك.

خرج من وراء الكاونتر وهو يقول:

- اسمح لي، يا رجل يا طيب، ولكنني لن أدعك تهينني هكذا. هؤلاء الصبية كسروا النافذة، ولم أحطمها أنا بنفسي.

إلي جوار الكاونتر منفاخ عجلة، من الطراز العتيق؛ وكان مثبتاً في الأسفل بعارضة خشبية. فانحنيت والتقطته.

قلت له ببرود:

Twitter: @alqareah

– لو كنت مكانك لتسمرت في مكاني. فأنت لم تتأذ حتى الآن إلا من نافذة محطمة.

مازلت أذكر أنني استغربت صوتي، فتلك النبرة التي خرجت من فمي دفعت الرجل إلي الوقوف في مكانه، ثم تراجع خلف الكاونتر. كانت هادئة بدرجة غير طبيعية. فلم أكن متوتراً، ويدي التي تحمل المنفاخ لم تكن ترتجف على الإطلاق. نعتني ذاك التاجر بأنني طيب، ولكنني لست ذلك الرجل.

– أوه، حنانيك. لن تتورط في فعلة مجنونة، أليس كذلك؟

شعرت بيد "ميشيل" تقبض على أصابعي. تضغط عليها بدرجة أقوي من السابق. فضغطت على أصابعه بدوري.

– كم ثمن هذه النافذة؟

– لدي تأمين.. الأمر أن..

– لم أسألك عن هذا.. كم ثمن النافذة؟

– مائة.. مائة وخمسون جلدر. والإجمالي مائتان بتكلفة العامل وغيرها.

لكي أخرج المال من جيبي، كان على أن أترك يد "ميشيل". ووضعت مائتي جلدر على الكاونتر.

قلت له:

– هذا هو ما أتيت لأجله. وليس كي أستمع إلي هذا الهراء المريض عن أولاد يلعبون الكرة.

كنت قد تركت المنفاخ أيضاً. وشعرت بالتعب، والندم. نفس التعب والندم الذي أشعر به عندما أخطئ وأنا ألعب التنس. فأنت تخطط لضربها، ولكنك تطوح بالمضرب بقوة وتخطئها، فلا تصادف الذراع التي تحمل المضرب أي مقاومة سوي الهواء، وهو ما يتعبها.

Twitter: @alqareah

أدركت عن يقين، وكنت أدرك هذا في أعماق كياني، أنني أسفت لأن الرجل قد تراجع بهذه السرعة. فقد كنت سأرتاح جداً لو تسني لي استخدام ذلك المنفاخ.

قلت لابني ونحن في الطريق للمنزل:

- أعتقد أننا قد سوينا الأمر بصورة جيدة، أليس كذلك، بني؟

ولكن "ميشيل" أمسك يدي ولم يعلق. وحينما نظرت إليه وجدت الدموع في عينيه.

- ما الأمر، يا صاح؟

توقفت وجثوت على ركبتي أمامه. كان يعض على شفته، ثم بدأ يبكي.

- "ميشيل"! "ميشيل"، اسمع. لا يوجد سبب يجعلك حزيناً. إنه رجل غير لطيف وقد عرفته ذلك، وأنت لم تخطئ. كل ما فعلته هو أنك ركلت الكرة عبر النافذة. كان حادثاً، والحوادث تقع، ولكن هذا ليس بعذر له كي يتحدث إليك بهذا الشكل.

قال بين نحيبه:

- ماما.. ماما..

شعرت بشيء داخلي يتصلب، أو ربما ما شعرت به هو نفس الطريقة التي يتكشف بها شيء مجهول؛ مثل شمسية السيارة، أو أعمدة خيمة، أو مظلة تفتح - وكنت خائفاً من أن أعجز عن الوقوف منتصب القامة مجدداً.

- ماما؟ هل تريد الذهاب إلي ماما؟

أومأ برأسه، ومسح خديه المليئين بالدموع بأصابعه.

- هلا أسرعنا وذهبنا إلي ماما إذن؟ هل سنخبر ماما عن كل شيء؟ عما فعلناه هناك؟

- أجل.

Twitter: @alqareah

عندما وقفت، شعرت أني سمعت طرقعة، في عمودي الفقري، أو ربما أعمق من ذلك. أمسكت بيده ومشينا. وعند ناصية الشارع نظرت إليه؛ كان وجهه لا يزال أحمر ومبتلاً بالدموع، ولكنه توقف عن البكاء.

- أرأيت كم كان ذلك الرجل خائفا؟ حتى إننا لم نضطر إلي فعل أي شيء. بل كان من الممكن ألا ندفع ثمن النافذة. ولكنني أعتقد أن هذا ليس الصواب. فحينما تحطم شيئاً، حتى وعن غير قصد، فإن عليك أن تدفع الثمن.

لم يتفوه "ميشيل" بكلمة حتى وصلنا إلي باب المنزل.

- بابا؟

- نعم؟

- هل كنت ستضرب ذلك الرجل حقاً بمنفاخ العجلة؟

كنت قد وضعت المفتاح في القفل بالفعل، ولكنني الآن جثوت أمامه مجدداً:

- اسمع. ذلك الرجل ليس رجلا طيبًا. إنه مجرد معتوه يكره الأطفال الذين يلعبون. ولا يهم ما إذا كنت سأضربه على رأسه بذلك المنفاخ. ولو كنت فعلت لكان هو السبب. ولكن ما يهمني هو أنه قد ظن أنني سأضربه، وهذا يكفيني.

تطلع "ميشيل" في وجهي بجدية، فقد اخترت كلماتي بعناية، لأنني لم أكن أريد أن أجعله يبكي مرة أخري. ولكن عينيه كانتا قد جفتا تقريبا، وكان يستمع بعناية، ثم أومأ ببطء.

أحطته بذراعي واحتضنه.

- ماذا لو أننا لم نخبر ماما بأمر منفاخ العجلة؟ هل يكون هذا سراً صغيراً بيننا؟

أومأ برأسه مرة أخري.

Twitter: @alqareah

لاحقاً بعد ظهر ذلك اليوم، ذهب إلي المدينة مع "كلير" لشراء بعض الملابس. وعلي المائدة في نفس المساء كان أكثر هدوءا وأكثر جدية من المعتاد. غمزت له، ولكنه لم يغمز لي.

وحينما حل وقت نومه، جعلت "كلير" تبقي في مكانها على الأريكة تشاهد الفيلم الذي تحبه.

- اجلسي واستمتعي به، سوف أنومه أنا.

وهكذا رقدنا جوار بعضنا، وأخذنا ندردش دردشة بريئة عن كرة القدم وعن لعبة كمبيوتر جديدة كان يدخر لأجل شرائها. وفضلت ألا آتي على ذكر واقعة متجر الدراجات، إلا إذا تحدث عنها هو بنفسه.

قبلته وتمنيت له نوماً هانئاً، وكنت أهم بإطفاء المصباح حينما وجدته يحتضنني بشدة. كان يحتضنني بقوة لم تحدث من قبل، وأراح رأسه على صدري.

- بابا.. حبيبي بابا.

Twitter: @alqareah

23

قلت له ذلك المساء في غرفته:

- أتعرف ما هو أفضل شيء؟

كان قد حكي لي الحكاية كلها وأقسم لي مجدداً أنه لم يكن هو وابن عمه يريدان أن يتسببا في احتراق أي شخص.

- لقد كانت دعابة. وكانت.. كان عليك أن تشم رائحة النتانة تلك أولاً.

أومأت برأسي موافقا، وكنت قد حسمت رأيي بالفعل. لقد فعلت ما اعتقدت أنه ما كان على أن أفعله كأب؛ وضعت نفسي في مكان ابني. تخيلت نفسي في موقفه؛ كيف أنه كان في طريقه إلي منزله من حفل المدرسة، جنبا إلي جنب مع "ريك" و"بيو"؛ وكيف أنهم قرروا سحب بعض النقود، وماذا وجدوا في كابينة الصراف الآلي.

وضعت نفسي في مكانه، وأخذت أفكر فيما كنت سأفعله لتلك المخلوقة التي تعيش في كيس نوم، وترقد في طريقي، وبهذه الرائحة الكريهة، وحقيقة بسيطة مفادها أن شخصًا ما، إنسانة ـ أنا أتعمد تجنب كلمات من قبيل متشردة أو صعلوكة ـ قد تسني لها أن تعتقد أن كابينة الصراف الآلي مكان مناسب للنوم؛ ومن ثم تسخط عندما يحاول الصبيان إقناعها بخلاف ذلك، إنسانة تصبح

Twitter: @alqareah

عصبيةعندما يقلقها أحد في نومها؛ وتبدي رد فعل تشاهده في كثير من الأحيان ممن يعتقد أنه يمتلك الحق في شيء ما.

ألم يخبرني "ميشيل" أن تلك المرأة كانت عصبية متزمتة؟ تتكلم بلهجة متزمتة، وكأنها تنتمي لأسرة عريقة، أو من الطبقات العليا في المجتمع. حتى الآن، لم يتم الكشف عن كثير حول خلفية هذه المتشردة. وربما كان وراء ذلك سبب وجيه. ربما كانت هي "البطة السوداء" في عائلة غنية عريقة.

ثم كان هناك شيء آخر؛ نحن هنا في هولندا ولسنا في البرونكس، أو في عشوائيات جوهانسبرج أو ريو دي جانيرو. وفي هولندا يتوافر للمرء شبكة أمان اجتماعي. بحيث لا يضطر أحد لأن يبيت داخل كابينة صراف آلي.

- أتعرف ما هو أفضل شيء؟ أن ننسي كل شيء الآن. وطالما أن شيئاً لم يحدث، فإن شيئاً لم يحدث.

نظر ابني إلي بضع ثوان. ربما شعر أنه أكبر سناً من أن يقول لي "بابا حبيبي" ثانيةً، ولكنني رأيت في عينيه – بخلاف الخوف – كم هو ممتن لي. قال لي وهو يبحث عن أية طمأنة:

- أتعتقد ذلك؟

Twitter: @alqareah

24

والآن، في حديقة المطعم، ها نحن واقفان قبالة بعضنا مجدداً، ساكتين. فتح "ميشيل" هاتفه وأغلقه عدة مرات، ثم وضعه في جيب سترته.

- "ميشيل".

لم ينظر إلي، بل أشاح بوجهه إلي الناحية الأخري، نحو الحديقة المظلمة؛ فبقي وجهه في الظلام أيضا.

- ليس لدي وقت لذلك الأمر الآن. على أن أذهب.

- "ميشيل"، لماذا لم تخبرني؟ عن مقاطع الفيديو؟ أو على الأقل عن ذلك الفيديو، وقتها؟ قبل فوات الأوان؟

مر بأصابعه على أنفه، وضرب الحصي بحذائه الرياضي الأبيض وهو يهز كتفيه.

- "ميشيل"؟

نظر في الأرض. وقال:

- لم يكن ذلك ليحدث أي فارق.

تذكرت للحظة صورة الأب التي كنت أطمح أن أكون عليها، ربما ذلك الذي كان ينبغي أن أكونه، ذلك الأب الذي كان من شأنه أن يقول الآن: "بل كان

Twitter: @alqareah

سيحدث فارقا كبيرا!".. وقت الوعظ قد مضي، وعبرنا الجسر بالفعل. في ذاك الوقت - ليلة بث الفيديو في التلفزيون - وفي غرفته، أو ربما حتى قبل ذلك.

قبل بضعة أيام، بعد أن هاتفني "سيرجي" ليدعوني إلي العشاء في المطعم، كنت قد شاهدت حلقة البرنامج مرة أخري على الإنترنت. بدت لي فكرة جيدة، وقد تجعلني أفضل استعدادا للعشاء. كان "سيرجي" قد قال لي:

- يجب أن نتحدث.

- عن ماذا؟

تظاهرت بالجهل، وجدت أن هذه أفضل حيلة.

وصلتني تنهيدة أخي عميقة من الجانب الآخر على الخط.

- أظن أننا تجاوزنا مرحلة أن أعود فأحكي لك ما جري.

- وهل تعرف "بابيت"؟

- أجل. ولهذا أود أن نتناقش حول هذا الأمر جميعاً. إن الأمر يتعلق بنا جميعاً. إنهم أولادنا.

لم يفتني أنه لم يسألني عما إذا كانت "كلير" تعرف. فمن الواضح أنه يفترض أنها تعرف، وإلا ما كان ليهتم بسؤالي. وبعد ذلك ذكر لي اسم المطعم، ذلك المطعم الذي يعرفونه فيه، الذي تطول قائمة الانتظار فيه لسبعة أشهر، والذي قال لي إنه لا يضطر إلي انتظار دوره فيه ليحجز طاولة.

سألت نفسي: وهل تعرف "كلير"؟ تساءلت وأنا أنظر إلي ابني وهو يتجه إلي دراجته كي يستقلها ويرحل.

- "ميشيل"، انتظر لحظة.

"يجب أن نتحدث"، هكذا قال له الأب الذي تمنيت أن أكونه، الأب الذي لم أكنه.

Twitter: @alqareah

شاهدت اللقطات مرة أخري، في عقلي هذا المساء، والفتيين الضاحكين وهما يلقيان بمصباح وكيسي قمامة على المرأة التي لم نرها. وأخيرا شاهدت ومضة انفجار أبخرة الغاز، والولدين وهما يهربان، وشريط أرقام الهاتف التي يمكنك الاتصال بها، أو الشرطة المحلية التي يمكن أن تبلغها أيضا.

شاهدت الفيديو مجدداً، وخاصة الثواني الأخيرة. الجركن ورمي ما أدركت أنها ولاعة، ولاعة بغطاء، من ذلك النوع "Zippo" الذي لا يطفأ إلا عندما تغلق الغطاء. فما الذي أوصل ولاعة إلي صبيين لا يدخنان؟ كانت هناك أسئلة لم أطرحها، ربما لأنني شعرت بأنني لا أريد أن أعرف كل شيء، أو يمكنك أن تقول إنها رغبة ملحة في ألا أعرف أي شيء، ولكن ها هي حقيقة أخري تتضح لي.

رد على "ميشيل" من دون تردد:

- حتى أعطيها لمن يسألني. للفتيات..

وأضاف في اللحظة التي كان من المفترض فيها أن أنظر إليه بصرامة:

- الفتيات أحياناً تسأل عن ولاعة، لتشعل جوينت أو سيجارة مارلبورو لايت. وتكون سيء الحظ جداً لو لم يكن في جيبك ولاعة لتبادر وتشعل لها ذلك الجوينت أو تلك السيجارة.

كما قلت لك، فقد شاهدت الجزء الأخير مرتين. وبعد ذاك الوميض اختفي الفتيان خارج الكابينة. تشاهد الباب وهو ينغلق، وبعدها تتوقف اللقطات.

علي أنني شاهدت في المرة الثانية، فجأة، شيئا لم أكن قد لاحظته من قبل. أعدت اللقطة من جديد إلي النقطة التي يظهر فيها "ميشيل" و"ريك" وهما يركضان إلي خارج الكابينة. وشغلت الفيديو بالسرعة البطيئة منذ اللحظة التي انغلق فيها الباب، وشاهدت كادراً كادرًا.

هل لا بد لي من الخوض في تفاصيل الأعراض الجسدية التي رافقت اكتشافي هذا؟ أعتقد أنها ينبغي أن تكون واضحة لك؛ قلب ينبض بقوة، شفاه ولسان

Twitter: @alqareah

جافان، وبرودة الرأس، وفي الظهر، بطول العمود الفقري وحتى الجمجمة، في تلك اللحظة التي أوقفت فيها كادر لقطة الكاميرا الأمنية.

فهناك، في الركن الأيمن السفلي، شيء أبيض. شيء أبيض ما كان لأحد أن يلاحظه لأول وهلة، لأن الجميع يفترض أنهم رأوا بالفعل أسوأ ما في الأمر. المصباح، أكياس القمامة، جركن الوقود.. ولم يتبق لهم سوي أن يهزوا رؤوسهم ويتمتموا بكلمات الاستنكار؛ عن الشباب، عن العالم، عن المساكين، عن القتل، عن مقاطع الفيديو، عن ألعاب الكمبيوتر، عن معسكرات العمل، عن عقوبات أشد صرامة، عن عقوبة الإعدام.

جمدت الصورة وحدقت في ذلك الشيء الأبيض. بالخارج كان الظلام مخيماً؛ وعلي زجاج الباب تستطيع أن تري انعكاس جزء من داخل كابينة الصراف الآلي؛ الأرضية ذات البلاط الرمادي، والماكينة نفسها بلوحة المفاتيح والشاشة، والعلامة التجارية، وشعار البنك صاحب ماكينة الصراف الآلي.

نظريا، قد لا يكون هذا الشيء الأبيض سوي انعكاس، انعكاس إضاءة فلورسنت من داخل الكابينة نفسها، من أحد الأشياء التي رشق بها الصبيان المتشردة، ربما.

لأن أخرج عن نطاق الحديث النظري. فقد كان الشيء الأبيض بالخارج، والكاميرا توضح أنه بالخارج، في الشارع. لا يمكن لأي مشاهد غير مدقق أن يلاحظ ذلك، خصوصا أثناء العرض في البرنامج؛ حيث عليك أن توقف العرض تماماً، ثم تعرض لقطة لقطة، مثلما فعلت، وحتى لو فعلت هذا.

حتى لو فعلت ذلك فلابد أن تعرف حقيقة ما تراه، هذا ما ظهر لي. وأنا كنت أعرف ما كنت أشاهده، لأنني قد أدركت على الفور حقيقة ذلك الشيء الأبيض.

نقرت الماوس لتكبير الشاشة. الصورة أكبر الآن، ولكنها أضحت أقل وضوحاً. حينئذ تذكرت فيلم "انفجار" "Blow-Up" لمايكل أنجلو أنطونيوني؛

Twitter: @alqareah

حيث يري مصور، وهو يقوم بتكبير صورة، مسدساً مدسوس تحت شجيرة. وكان سلاحًا استُخدم في جريمة قتل، كما اتضح من الأحداث لاحقاً. ولكن هنا، وعلي هذا الكمبيوتر، لم يفدني تكبير الشاشة على الإطلاق. فنقرت ثانيةً لتصغيرها والتقطت العدسة المكبرة التي أضعها على مكتبي.

وبالعدسة لا يتبقي لي سوي ضبط المسافة. ومع تقريبي وإبعادي لها أمام الشاشة، أصبحت الصورة أكثر وضوحا، أكثر وضوحا وأكبر.

أوضح وأكبر. وتيقنت مما كنت قد رأيته في المرة الأولي، حذاء رياضي. حذاء رياضي أبيض من النوع الذي يرتديه عدد لا يحصي من الناس؛ ومنهم ابني وابن أخي.

استوقفتني تلك الفكرة الأخيرة لحظة، أقل من عشر من الثانية. فحذاء رياضي واحد يمكن أن يقودك إلي عشرات آلاف من يرتدون مثله، ولكن على العكس، يصعب تعقب عشرات آلاف الأحذية حتى حذاء واحد بعينه.

لا، هذا لم يكن هو ما جعلني أتوقف وأفكر. بل هي الإشارة، أو معني أن يكون هناك حذاء رياضي أبيض خارج الباب الزجاجي للكابينة. ربما ليس معني واحًدا، بل معانيَ.

ألقيت نظرة فاحصة أخري، وقربت وباعدت العدسة المكبرة. وبعد فحص دقيق، يمكنك أن تري تحولا طفيفا في اللون فوق الحذاء، فقد صار الشارع أقل سواداً. ربما كانت هذه هي الساق، ساق السروال الذي يرتديه فوق الحذاء، وكان يخطو إلي داخل الكادر.

لقد عادا. هذا هو المعني الأول. أما المعني الثاني فهو أن الشرطة، وربما بالتعاون مع معدي البرنامج، قد قررت عدم إدراج هذه اللحظة الأخيرة في البث التلفزيوني للفيديو.

كل شيء ممكن بالطبع. فقد يكون حذاء شخص آخر غير "ميشيل" أو "ريك"، وقد يكون أحد المارة تصادف وصوله بعد ثلاثين ثانية من هروب

Twitter: @alqareah

الفتيين. ولكن هذا لا يبدو لي مرجحا، وليس في تلك الساعة من الليل، وفي ذلك الشارع، وفي هذا المكان في حي ناءٍ. كما أن هذا يجعل من ذلك الشخص شاهداً وربما يكون قد رأي الولدين، شاهدًا عيانًا، شخصًا سترغب الشرطة في استدعائه عن طريق البرنامج للإدلاء بأقواله.

وعلي كل، كان هناك تفسير محتمل وحيد لهذا الحذاء، وهو التفسير الذي توصلت إليه على الفور. فكل هذا، التقريب بالعدسة على الحذاء والتوصل إلي استنتاج، لم يستغرق مني سوي بضع ثوان. لقد عادا إلي المكان. عاد "ميشيل" و"ريك" ليشهدا متعمدين ما اقترفاه من جريمة.

كل هذا كان مقلقاً إلي حد ما، فقط إلي حد ما. أما الشيء المخيف حقا فهو الكيفية التي اقتطعوا بها هذه اللقطات الأخيرة ولم يعرضوها ضمن بث البرنامج للفيديو. حاولت أن أحدد سبب عدم العرض. ربما كان هناك شيء ما جعل من السهل التعرف على "ميشيل" أو "ريك" أو كليهما. ولكن ألن يكون هذا سببا إضافيا يؤكد على ضرورة إظهارهما في الفيديو؟

وماذا لو كانت اللقطات غير مهمة بالنسبة لهم بكل بساطة؟ فكرت لمدة ثلاث ثوان. قد تكون مجرد استدراك تافه لا يساعد المشاهد على الإطلاق. لا، قلتها لنفسي على الفور. فحقيقة أنهما قد عادا مجدداً كانت أهم بكثير من أن يتم التغاضي عنها.

إذن وجدوا في اللقطة ما يستحق، لدرجة أنهم قرروا إخفاءها عن المشاهدين، شيء لا يعرفه سوي الشرطة والجناة.

أنت نفسك أحيانا تقرأ عن أن الشرطة تخفي بعض الحقائق عن الإعلام المهتم بالتحقيق؛ مثل الطبيعة الحقيقية لسلاح الجريمة، أو أثر تركه القاتل بجانب الضحية أو على جثتها. لمنع أي مختل عقلي من ادعاء أنه من قام بالجريمة، أو حتى أن يقوم بتقليدها.

Twitter: @alqareah

وللمرة الاولي منذ أسابيع تساءلت عما إذا كان "ميشيل" و"ريك" أنفسهما قد شاهدا لقطات الكاميرا الأمنية. كنت قد أخبرت "ميشيل" عن ذلك مساء يوم بثها، وأخبرته أن كاميرا أمنية قد صورتهما، وأنهما لم يظهرا بوضوح ولن يتعرف أحد عليهما. ولذلك لا داعي للقلق، حتى الآن. وخلال الأيام التي تلت ذلك، لم نتطرق الي موضوع الكاميرا الأمنية. وكنت مصراً على أن من الأفضل ألا نعود للحديث عن الأمر، وألا ننبش في تراب السر الذي بيننا.

كنت آمل أن تكون زوبعة في فنجان. وأنه مع مرور الوقت سينسي الناس وينشغلون بمواضيع أخري، أخبار جديدة، وأن ينمحي الجركن المنفجر من ذاكرتهم الجمعية. فلابد حتماً من أن حرباً ستندلع في مكان ما؛ وربما يكون من الأفضل أن يقع هجوم إرهابي، به الكثير من القتلي، والكثير من الإصابات في صفوف المدنيين حتى ينتقل إليهم تعاطف وشفقة الناس وفزعهم، وسيارات إسعاف تهرع هنا وهناك، والقضبان الملتوية لقطار أو مترو الأنفاق، أو مبني من عشرة طوابق تتفجر واجهته. هذا هو السبيل الوحيد لاختفاء تلك المرأة المتشردة داخل كابينة الصراف الآلي من الصورة، حتى تصبح مجرد حدث، يتضاءل حجمه أمام المصائب الأخري.

كان ذلك ما تمنيته خلال تلك الأسابيع القليلة الأولي؛ أن يصير الخبر قديماً، ربما ليس خلال شهر واحد، ولكن بالتأكيد في غضون ستة أشهر، وبالتأكيد بعد عام. فبحلول ذلك الوقت ستكون الشرطة، بدورها، قد انشغلت بقضايا أخري، أكثر إلحاحا. فيقل عدد رجال المباحث الموكلين بهذه القضية، كما أسموها، وأنا لا أتخيل وجود ذاك المحقق الفضولي الذي يفضل أن يعمل وحده، والذي يعض بالنواجذ على أية جريمة لم يتم حلها فلا يتركها ولو مرت سنوات. فأمثال هذا المحقق لا يوجدون إلا في المسلسلات التلفزيونية.

بعد هذه الأشهر الستة، وبعد ذلك العام، سنكون قادرين على الاستمرار في العيش كأسرة واحدة سعيدة. ستبقي هناك ندبة في مكان ما، هذا صحيح، ولكنها ندبة لن تقف في وجه سعادتنا. وحتى يحين ذلك، سأتصرف بصورة

Twitter: @alqareah

طبيعية قدر الإمكان. وأقوم بالأمور الطبيعية. وأخرج لتناول العشاء في بعض الأحيان، وإلي السينما، وأصطحب "ميشيل" إلي مباريات كرة القدم.

كنت ونحن على المائدة، أثناء العشاء، أتطلع عن كثب إلي زوجتي. فكنت أبحث عن أي تغير ضئيل في سلوكها، أي شيء يمكن أن يبدر منها فأعرف أنها تشك في وجود علاقة بين فيديو كاميرا الأمن وأسرتنا السعيدة.

وكانت تسألني في واحدة من تلك الأمسيات؛ ومن الواضح أنني قد بالغت في تأملها:

- ما الأمر؟ ما الذي تبحث عنه؟

- لا شيء؟ وهل كنت أبحث عن شيء؟

لم تتمالك "كلير" نفسها فضحكت؛ ووضعت يدها على يدي وضغطت على أصابعي برقة.

في مثل تلك اللحظات كنت أتجنب عن عمد النظر إلي ابني. لم أكن أريد أية نظرات تنم عن أن بيننا شيئًا، وأنا لن أغمز له أو أبين بأي وسيلة أخري أن بيننا سرًّا. أردت أن يكون كل شيء طبيعيًّا. والسر يعني أن نبعد "كلير" - والدته، زوجتي - فهذا من شأنه أن يخلق تهديدا أكبر لعائلتنا السعيدة بشكل يفوق حتى حادث كابينة الصراف الآلي.

من دون نظرات ومن دون غمزات، لن يكون هناك أي سر. هذا هو منطقي. وقد يكون من الصعب علينا أن نتناسي الحادث، ولكن مع مرور الزمن سيبقي موجوداً ولكن في مكان ما خارج محيطنا كأسرة، تماما كما حدث مع آخرين. ولكن ما علينا نسيانه هو السر. وأفضل شيء أن نبدأ في النسيان في أقرب وقت ممكن.

Twitter: @alqareah

25

كانت تلك هي الخطة. كانت تلك هي الخطة قبل أن أعيد مشاهدة الفيديو وأتبين الحذاء الرياضي الأبيض.

أما الخطوة التالية فقد أخذتها بناءً على حدس. فربما كان هناك المزيد من اللقطات التي يمكن العثور عليها، هكذا قلت لنفسي. أو ربما وصلت تلك اللقطة الأخيرة، بقصد أو دون قصد، إلي موقع آخر على الإنترنت.

دخلت على "يوتيوب". كان الاحتمال ضعيفاً، ولكن الأمر يستحق المحاولة. وفي شريط البحث كتبت اسم البنك الذي يمتلك ماكينة الصراف الآلي، وبعدها كتبت كلمتي 'متشردة' و 'موت'.

لم تخرج لي سوي أربع وثلاثين نتيجة أخذت أطالعها على الشاشة. كان الكادر الظاهر جوار نتيجة البحث متكررًا في كل النتائج تقريباً؛ رأسان بقبعتين لصبيين يضحكان. أما عناوين الفيديو والوصف المختصر فهو المختلف. صبيان هولنديان [اسم البنك]. وكانت عبارة "جريمة قتل" هي الأكثر وضوحا. "لا تحاول فعل ذلك في المنزل".. "حريق يقتل امرأة مشردة". كان كل مقطع فيديو يحظي بنسبة مشاهدة عالية للغاية. حسبما يظهر في العداد الذي أحصي آلاف المشاهدين.

نقرت على أحد المقاطع عشوائيا وشاهدت مرة أخري، وكانت نسخة أوضح، رمي المصباح، وكيسي القمامة وجركن الوقود. شاهدت الفيديو مرتين. وفي مقطع آخر – كان عنوانه: [اسم المدينة] أحدث مقصد سياحي جديد: أشعل

Twitter: @alqareah

النار في أموالك! - أضاف من فرع الفيديو ضحكات إلي العرض. ففي كل مرة يلقي فيها شيء على المتشردة تسمع موجة من الضحك. وصل الضحك إلي ذروته الهستيرية عندما ألقيت الولاعة، وانتهي الفيديو مع تصفيق حاد.

أغلب مقاطع الفيديو لا تحوي لقطة الحذاء الرياضي الأبيض؛ وكلها تتوقف عند ذلك الوميض وهروب الصبيين.

وحينما أتذكر أكثر، لا أستطيع أن أخبرك عن السبب الذي دفعني إلي النقر على رابط الفيديو التالي، فهو لم يكن مميزاً عن غيره. وكانت لقطة البداية هي نفسها لقطة البداية: صبيان يضحكان يرتديان قبعتين، ولكني أراهما هنا يرفعان ذلك المقعد.

ربما شاهدته بسبب عنوانه.. الذي كان على اسم الفيلم الشهير.. Men in Black III. وهو ليس بعنوان يضعه هاوٍ، وبدا لي أن صاحب هذا الحساب محترف. ولكنه كان الفيديو الأول - وأدركت بعد ذلك أنه الوحيد - الذي لم يصف الأحداث بل يصف وبشكل مباشر الصبيين.

يبدأ فيديو Men in Black III برمي المقعد، ثم كيسي القمامة، والمصباح وجركن الوقود. ولكن كان هناك فرق جوهري. فكلما ظهر الولدان بشكل واضح نوعاً ما كانت حركة الفيديو تتحول إلي البطيء. وفي كل مرة يحدث ذلك تسمع موسيقي ذات إيقاع مشؤوم، عميق، من النوع الذي يستخدمونه في أي موسيقي تصويرية تصاحب مشاهد غرق سفينة أو غواصة في مياه المحيط. ونتيجة لذلك، ينصب كل اهتمام المشاهد على "ميشيل" و"ريك"، أكثر من تلك الأشياء التي يلقيان بها.

وهكذا، يطرح الفيديو الذي يعرض أمامك بالتصوير البطيء سؤالاً واحداً: من هما هذان الصبيان؟ فنحن نعرف بالفعل ما يفعلانه. ولكن.. من هما؟

المفاجأة كانت في النهاية. فبعد الوميض وانغلاق باب الكابينة تسود الشاشة. وكنت أهم بالنقر على الفيديو التالي، إلا أن الشريط الزمني في الجزء

Twitter: @alqareah

السفلي من الشاشة أظهر أن زمن الفيديو دقيقتان وثمان وخمسون ثانية، ولكن ما شاهدته حتى الآن كان دقيقتين وثمان وثلاثين ثانية.

وكما قلت لك، فقد كنت أهم بالخروج منه. فلم أكن أتوقع أن أشاهد أي شيء بعدما اسودت الشاشة. قلت لنفسي إنه سيضع الآن اسمه مع الموسيقي، ولا شيء أكثر من ذلك.

وإني لأتساءل الآن عما كان سيصبح عليه شكل أمسيتنا هذه في المطعم، لو أنني خرجت من ذلك الفيديو في تلك اللحظة ولم أستمر؟

كنت سأبقي جاهلاً، ذلك هو الجواب. سيكون على الأقل جهلاً نسبياً. كنت سأستمر على سجيتي لبضعة أيام، أو ربما بضعة أسابيع أو أشهر، وفي أحلامي الأسرة السعيدة. وكنت سأعمد إلي محاولة أن أقارن بين عائلتي وعائلة أخي حتى ولو لليلة واحدة، وكنت سأهتم بالطريقة التي أخفت بها "بابيت" دموعها وراء نظارتها الملونة، أو بالطريقة التي التهم بها أخي طبقه الرئيسي في ثلاث قضمات ومن دون أية متعة. ومن ثم كنت سأتمشي إلي المنزل مع زوجتي، أحيط خصرها بذراعي، مدركين – من دون أن ننظر إلي بعضنا – أن الأسر السعيدة كلها متشابهة.

غير أنني شاهدت الشاشة وهي تتحول من الأسود إلي الرمادي. ورأيت باب كابينة الصراف مرة أخري، ولكن هذه المرة من الخارج. كانت جودة الصور أشد سوءا، بوضوح كاميرا هاتف محمول غير حديث.

الحذاء الرياضي الأبيض.

لقد عادا.

لقد عادا لتصوير ما اقترفاه.

ـ "سحقاً".. صوت يظهر في الفيديو (ريك).

ـ "أوه.. يبيع!" .. صوت يظهر في الفيديو (ميشيل).

Twitter: @alqareah

الكاميرا تصور الآن طرف كيس النوم من عند القدمين. كانت الكابينة مليئة بلهيب أزرق. مرت الكاميرا ببطء على طول كيس النوم.

ـ "لنذهب من هنا" (ريك).

ـ "علي الأقل لم تعد هناك رائحة نتانة بعد الآن" (ميشيل).

ـ "هيا، اذهب وقف جوارها. وقل "حمقاء". حتى نسجل هذا".

ـ "بل سأذهب..".

ـ "كلا يا أبله! بل ستبقي!".

توقفت الكاميرا عند رأس كيس النوم. وتجمدت الصورة. ثم تلاشت. وبأحرف حمراء.. ظهرت العبارة التالية على الشاشة:

Men in Black III
The Sequel
coming soon

الجزء الثاني.. قريباً.

انتظرت بضعة أيام. كان "ميشيل" يخرج كثيراً، لكنه يأخذ هاتفه دائماً معه، وبالتالي كانت الفرصة سانحة اليوم، فقط هذا المساء، قبيل أن نذهب إلي المطعم. وهكذا، وبينما كان يصلح إطار الدراجة في الحديقة، صعدت إلي غرفته.

كنت أظن أن من المنطقي أن يكون قد حذف الفيديو بعد كل تلك الأيام. بل كنت أتمني، وأصلي، أن يكون قد فعل ذلك. كما كنت أتمني، وبعد الذي شاهدته على "يوتيوب"، أن أكون قد رأيت كل شيء ممكن، وأن الأمر قد توقف عند هذا الحد.

ولكن هيهات.

وهكذا.. ومنذ بضع ساعات قليلة مضت.. شاهدت البقية الباقية.

Twitter: @alqareah

26

ناديت على ابني، الذي كان يهم بالرحيل بالفعل بعدما قال لي إنه لم يعد هناك فارق:

- "ميشيل". "ميشيل"، عليك أن تحذف مقاطع الفيديو. كان عليك أن تفعل ذلك من قبل، ولكن صار هذا ضروريًّا جداً الآن.

توقف. وأسند قدميه على الحصي:

- أوه، بابا.

بدا لي أنه يوشك على أن يقول لي شيئاً، ولكنه اكتفي بهز رأسه.

لقد شاهدت في مقطعي الفيديو وسمعت كيف كان يوجه ابن عمه بل ويوبخه. وهذا هو بالضبط ما كان "سيرجي" يلمح إليه دائما، ولا شك أنه سيكرره هذه الليلة. إن "ميشيل" رفيق سيئ لـ"ريك". وكنت دائماً ما أنفي هذا، وأعتبر أن ما يقوله أخي ما هو إلا حجة يداري بها عدم سيطرته على ابنه.

ولكن منذ ساعات قليلة مضت – بل ساعات أكثر من هذا في الواقع - أدركت أن كلامه صحيح. كان "ميشيل" هو الزعيم؛ "ميشيل" المخ و"ريك" العضلات. أقول لك الصراحة؛ لقد سعدت لذلك في أعماق قلبي. فهذا أفضل من العكس. فلم يجرؤ أحد على مضايقة "ميشيل" في المدرسة، فهناك له "شلة" من الأصدقاء المنقادين له، والذين لا يبتغون سوي أن يكونوا حول ابني.

Twitter: @alqareah

والخبرة علمتني أن الآباء أول من يصابون بخيبة أمل لو كان أولادهم "هفية" خارج المنزل. وهو أمر لم أعانِه ولن أعانيه.

قلت له:

- أتدري ما هو أفضل شيء؟ أن تتخلص تماماً من هذا الهاتف. في مكان لا يمكن لأحد العثور عليه.

تطلعت حولي، ثم أردفت:

- هنا، مثلا.

أشرت إلي الجسر الصغير الذي مر عليه بدراجته للتو.

- في الماء. وسوف نذهب لشراء واحد جديد يوم الاثنين إذا أردت. أليس هذا الهاتف معك منذ فترة طويلة على أي حال؟ لنفرض أن الاشتراك قد انتهي ولن نجدد الاشتراك، ويوم الاثنين سيكون معك أحدث جهاز سامسونج أو نوكيا، وكل ما تريد..

مددت له يدي في أمل، وسألته:

- هل تود أن أقوم أنا بهذا؟

تطلع في وجهي. فرأيت العينين التي كنت أراهما طيلة حياتي، ولكني رأيت أيضا شيئاً لم أره من قبل. لقد كان يتطلع إلي وكأنه يقول: "أنت أب مبالغ فيه"، مجرد أب قلوق، من النوع الذي يقلقه أن يعرف متي سيعود ابنه إلي منزله من الحفل.

وجدتني أقول له بنبرة أعلي وأسرع مما قصدت:

- "ميشيل"، الأمر هذه المرة لا يتعلق بحفل أو شيء من هذا. الأمر يتعلق بمستقبلك.

Twitter: @alqareah

هأنذا أتحدث من جديد عن شيء مجرد، المستقبل، وأسفت على الفور على أنني تفوهت بذلك:

- لماذا بحق الجحيم وضعتما الفيديو على الإنترنت؟

نبهت نفسي: لا تسب. فعندما تبدأ في السب تكون مثل ممثل في واحد من أفلام المقاولات التي تمقتها. ولكنني كنت أصرخ الآن، وأي شخص يخرج من المطعم، أو يكون على مقربة من الباب سيسمعني.

- أكان هذا الأمر "كوول" بالنسبة لك؟ ألم يكن صعباً؟ ألا يفرق هذا معك أبداً؟ وكذلك الاسم الذي اخترتماه "Men In Black" "مين إن بلاك"! يا ربي، ما الذي تفكران فيه؟

وضع يديه في جيبي سترته وأحني رأسه، حتى لا أرى عينيه من تحت حافة القبعة.

- لم نكن نحن من فعل ذلك.

انفتح باب المطعم، وخرج رجلان وامرأة وهم يضحكون. الرجلان يرتديان بدلات أنيقة وأيديهما في جيوبهما، والمرأة ترتدي فستاناً فضياً بلا ظهر وتحمل حقيبة تناسب الفستان.

كانت المرأة تسأل وهي تخطو خطي غير متزنة بهذا الحذاء ذي الكعب العالي، وكان فضياً أيضاً:

- هل قلت ذلك حقاً؟ لـ"إرنست"؟

أخرج أحدهما سلسلة مفاتيح السيارة من جيبه ورمي بها في الهواء. فقال الآخر وهو يمد ذراعه ليلتقط المفاتيح:

- ولم لا؟

- لابد أنك مجنون.

Twitter: @alqareah

كانت أحذيتهم تحدث صوتاً مميزاً فوق الحصي.

قال الرجل الآخر:

- هل من بيننا من هو قادر على قيادة السيارة؟

وبعدها انفجرا ضاحكين.

انتظرت حتى وصل الثلاثة إلي نهاية المشي وانعطفوا يساراً ناحية الجسر:

- حسنا، انتظر لحظة. أنتما الاثنان أشعلتما النار في متشردة وبعدها قمتما بتصوير ذلك بهاتفك. وكذلك صورت السكير في محطة مترو الأنفاق.

كنت قد لاحظت أنني صرت أصف الرجل الذي صفعاه ولكماه على الرصيف الآن بأنه سكير، هكذا وحسب. ربما كنت مرتاحاً لفكرة أن أي مدمن على الكحول يستحق تلك الصفعة القوية. أردفت:

- ثم فجأة صار الفيديو على الإنترنت، لأن هذا هو ما كنتم تريدونه، أليس كذلك؟ حتى يراه أكبر عدد ممكن من الناس؟

هنا خطر لي أنهما ربما وضعا فيديو السكير على "يوتيوب" كذلك، فسألته على الفور تحسباً.

فتنهد "ميشيل" بنفاد صبر:

- بابا! أنت لا تسمعني!

- بل أسمعك. أسمعك زيادة عن اللزوم. أنا..

مرة أخري انفتح باب المطعم، وخرج منه رجل يرتدي بدلة وهو يتطلع حوله، مشي بضع خطوات جانبًا؛ فكان جوار المدخل ولكن بعيداً عن النور، وأشعل سيجارة، فسخطت:

- تباً.

Twitter: @alqareah

انتهزها "ميشيل" فرصة فسار نحو دراجته.

- "ميشيل"، إلي أين أنت ذاهب؟ أنا لم أنته بعد.

ولكنه مشي، وأخرج مفتاحاً من جيبه ودسه في القفل، الذي انفتح بصوت مألوف. ألقيت نظرة سريعة إلي الرجل الذي يدخن بجوار المدخل.

قلت له بصوت خافت متعجل:

- "ميشيل". لا يمكنك أن تتهرب من هذا. ما الذي سنفعله حيال ذلك؟ هل هناك أكثر من فيديو آخر؟ هل سيتسني لي أن أراها لاحقاً، أم سأراها على "يوتيوب" أولاً؟ هل ستصارحني الآن عما إذا كان...؟

وجدت "ميشيل" يلتفت نحوي بعصبية ويجذبني من مرفقي بشدة:

- بابا! هلا خرست!

نظرت في عيني ابني مصدوماً. مذهولاً. إنني أرى في عينيه الصادقتين – لا فائدة من إنكار هذا – الآن الكراهية. وجدت نفسي أسترق النظر إلي ناحية الرجل الواقف يدخن.

ابتسمت في وجه ابني؛ ومع أنني لا أراها، إلا أنني تيقنت من كونها ابتسامة بلهاء:

- أوكيه.. سأخرس.

ترك "ميشيل" ذراعي؛ وعض على شفته وهو يهز رأسه:

- يا ربي! متي ستتصرف مثل بقية البشر؟

شعرت ببرودة تسحق صدري. ولو كان أي أب آخر في مكاني لقال له: "ومن الذي يتصرف بشكل طبيعي هنا؟ هاه؟ من؟ من الذي يتصرف بشكل طبيعي؟" ولكنني لم أكن أبًا مثل كل الآباء الآخرين. كنت أعرف ما تورط فيه ابني. وتمنيت لو أمكنني أن أحتضنه، أحتضنه بشدة. ولكنه ربما دفعني حينئذ

Twitter: @alqareah

بعيدا عنه في اشمئزاز. كنت أعرف يقيناً أنني لم أكن لأحتمل رفضاً جسدياً كهذا، وأنني كنت سأنفجر في البكاء من دون توقف.

- أوه، يا صاح.

كان على أن أحتفظ ببرودة أعصابي. كان على أن أسمعه. تذكرت الآن أن "ميشيل" قد اتهمني بأني لا أستمع إليه.

- أوكيه.. كلي آذان صاغية.

هز رأسه ثانية في ملل، ثم جذب دراجته بتصميم.

- مهلاً!

كنت متمالكاً أعصابي، بل وتنحيت جانباً، وكأنني لا أود أن أقف في طريقه. ولكنني وجدت نفسي أتشبث بمرفقه.

نظر "ميشيل" إلي اليد وكأنها حشرة غريبة حطت على ذراعه، ثم نظر إلي.

أدركت الآن أننا صرنا قريبين جداً من شيء ما، شيء لا يمكن تأجيله. فتركت ذراعه.

- "ميشيل"، هناك شيء آخر.

- بابا، أرجوك.

- لقد هاتفك شخص لا أعرفه.

حدق في وجهي، ولم أكن سأتفاجأ لو أنه سدد إلي وجهي لكمة خاطفة لتحطم أنفي، ويتدفق منه الدم، ولكن هذا من شأنه أن يوضح أموراً كثيرة، هنا ونحن في الخارج.

ولكنه لم يفعل شيئًا. بل سألني بهدوء:

- متي؟

Twitter: @alqareah

- "ميشيل"، أتمني أن تغفر لي، لم يكن ينبغي لي، ولكن.. ولكنني فعلت ذلك بسبب تلك الفيديوهات، أردت أن.. كنت أحاول أن..

- متي؟

رفع قدمه عن بدال الدراجة وأنزلها بقوة على الأرض، فوق الحصي.

- منذ فترة بسيطة، كانت رسالة. وأنا استمعت إلي الرسالة.

- ممن؟

قلت وأنا أهز كتفيّ مبتسماً:

- من بي.. من "فاسو". أليس هذا الاسم الذي أطلقتموه عليه؟ "فاسو"؟

لقد رأيت هذا بوضوح، بوضوح شديد: لقد صارت تعبيرات وجهه قاسية رغم العتمة، إلا أنني أقسم لك أن وجهه قد أضحي شديد الشحوب.

- ما الذي كان يريده؟

كان صوته هادئاً، أو ليس هادئاً. كان يحاول أن يبدو هادئاً، ملولاً، وكأن اتصال ابن عمه بالتبني ليس بذي أهمية.

ولكنه فضح نفسه. فقد كانت الأهمية تكمن في شيء مختلف جدا؛ في حقيقة أن والده يستمع إلي رسائله. فقد كان ذلك غير طبيعي. ومن شأن أي أب آخر أن يفكر مرتين قبل القيام بذلك. والحقيقة، أنني فعلت ذلك. فكرت مرتين؛ من حق "ميشيل" أن يغضب، وأن يصرخ في وجهي: من الذي منحك الحق في الاستماع إلي بريد هاتفي الصوتي؟ وكنت سأعطيه كل الحق.

- لا شيء. طلب منك أن تتصل به.

كدت أن أردف أنه قد طلب ذلك بنبرته الزنجية المصطنعة.

- أوكيه.. أوكيه.

Twitter: @alqareah

فجأة، تذكرت شيئا حدث منذ وقت بسيط، حينما اتصل هو بهاتفه ووجدني على الخط، كان قد قال إنه يبحث عن رقم، وإنه سيأتي ليستعيد هاتفه لأنه يحتاج ذلك الرقم. الآن أعرف عن أي رقم كان يبحث ولكنني لم أسأله؛ لأن هناك شيئًا آخر تذكرته أيضا.

– قلت لي إنني لا أستمع إليك، ولكنني أستمع بالفعل. وحينما كنا نتحدث عن قيامك أنت وابن عمك برفع الفيديو على "يوتيوب".

– أجل.

– قلت لي إنه لم يكن أنت.

– هذا صحيح.

– فمن هو الذي فعلها إذن؟ من الذي رفعه؟

أحياناً تجيب بنفسك عن السؤال حينما تطرحه بصوت عال.

نظرت إلي ابني. ووجدته ينظر إلي. سألته:

– "فاسو"؟

وجاءني الجواب.. بالإيجاب.

Twitter: @alqareah

27

في ظل الصمت الذي خيم بعد ذلك، كانت الأصوات الوحيدة التي نسمعها قادمة من الحديقة ومن الشارع عبر المياه؛ رفرفة أجنحة طيور بين الأغصان، سيارة تمرق بسرعة، جرس كنيسة يدق مرة واحدة. وخلال هذا الصمت كنت أتبادل النظرات أنا وابني.

أنا لست متأكداً، ولكن يخيل لي أنني رأيت دموعاً في عيني "ميشيل". ونظرته، على أي حال، لم تترك لي مجالا لسوء التفسير. كانت النظرة تقول لي: هل فهمت أخيرا؟

وخلال هذا الصمت، رن الهاتف الموجود في جيبي الأيسر. إنه رنين وأزيز. كان سمعي قد بدأ يتدهور في الآونة الأخيرة، ولذلك اخترت نغمة "هاتف قديم" لتكون نغمة هاتفي، وهي ذات رنين من طراز قديم يذكرك بذاك الهاتف الكلاسيكي الأسود، هاتف بيكليت، وهي عالية أسمعها جيداً.

أخرجت الهاتف من جيبي، وأنا أنوي أن "أكنسل" المكالمة، ولكنني لمحت الاسم على الشاشة: "كلير".

- آلو؟

أشرت إلي "ميشيل" ألا يذهب، ولكنه كان قد عقد ذراعيه بالفعل وأسندهما إلي المقود؛ وفجأة لم تعد لديه رغبة في الذهاب.

سألتني زوجتي بصوت هادئ ولكنه مصر، وفي الخلفية صخب المطعم:

Twitter: @alqareah

- أين أنت؟ لماذا تأخرت؟

- أنا بالخارج؟

- وما الذي تفعله بالخارج؟ لقد كدنا ننتهي من الطبق الرئيسي. ظننت أنك ستلحق بنا على الفور.

- أنا هنا في الخارج مع "ميشيل".

كدت أقول "ابننا"، ولكنني لم أقلها.

سكتنا للحظة.

- أنا قادمة.

- كلا، انتظري! عليه أن.. "ميشيل" سيذهب.

ولكنها كانت قد أنهت المكالمة بالفعل.

والدك لا يعرف أي شيء، وأريد أن يبقي كذلك. فكرت في زوجتي التي ستخرج الآن من باب المطعم في أي لحظة، وفي الطريقة التي على أن أنظر بها إليها. أو بالأحري، هل سأكون قادرا على النظر في وجهها بنفس الطريقة التي كنت أنظر بها منذ بضع ساعات، ونحن في المقهي الشعبي، عندما سألتني عما إذا كنت أظن أن "ميشيل" يتصرف بغرابة في الآونة الأخيرة؟

كنت أتساءل عما إذا كنا لا نزال عائلة سعيدة.

الخاطر التالي الذي طرأ على عقلي هو ذاك الفيديو للمتشردة التي أحرقاها. ثم تساؤل عن الكيفية التي وصل بها إلي "يوتيوب".

- هل ماما آتية؟

- أجل.

ربما كنت واهماً، ولكني ظننت أنني سمعت نبرة ارتياح في صوته عندما سأل. كما لو كان قد اكتفي من الوقوف هنا مع والده. والده الذي ليس بوسعه أن يفعل أي شيء له على أي حال. هل ماما آتية؟ ماما آتية. على أن أتصرف بسرعة. على أن أبحث عنه، في المكان الوحيد الذي يمكنني أن أبحث عنه فيه.

Twitter: @alqareah

وضعت يدي على ساعده ثانيةً:

- "ميشيل". ما الذي فعله "بيو".. "فاسو".. كيف علم "فاسو" بأمر الفيديو؟ فهو كان قد افترق عنكما قبلها، أليس كذلك؟ أقصد..

رمق "ميشيل" المدخل، فقد كان يتمني أن تخرج والدته الآن لإنقاذه من استجوابات والده. رمقت الباب بدوري. شيء ما تغير، ولكنني أجهل حقيقته في هذه اللحظة. ولكنني أدركته في الثانية التالية. فقد اختفي الرجل الذي كان واقفاً يدخن.

- اللي حصل..

"اللي حصل". نفس الكلمتين اللتين يستخدمهما حينما يفقد سترته، أو يترك حقيبة كتبه في مكان ما في الملعب ونسأله كيف حدث هذا معه. "اللي حصل".. لقد نسيت. لقد تركتها وحسب.

- لقد أرسلت مقاطع الفيديو بالبريد الإلكتروني إلي "ريك". ومن ثم رآها "فاسو"، وأخذها من كمبيوتر "ريك"، ووضع بعضها على "يوتيوب"، والآن يبتزنا ويهدد بأنه سيضع البقية إذا لم ندفع له.

مئات الأسئلة يمكنني أن أطرحها عليه الآن. وبقيت لثانية كاملة أسأل نفسي عن السؤال الذي يمكن أن يطرحه الأب النموذجي في هذا الموقف. ولكنني وجدتني أسأله:

- كم يريد؟

- ثلاثة آلاف.

حدقت فيه، فعقب:

- إنه يريد شراء "فسبا".

Twitter: @alqareah

28

- ماما.

احتضن "ميشيل" عنق "كلير" ودفن وجهه في شعرها.

- ماما.

لقد حضرت ماما. نظرت إلي زوجتي وابني، وفكرت في الأسر السعيدة. وكيف أنني كثيرا ما كنت أنظر إلي "ميشيل" وأمه، وكيف أنني لم أحاول أبدا أن أتدخل بينهما، وأن هذا – أيضا - كان جزءا من السعادة.

بعدما ربتت على ظهر "ميشيل" وعلي رأسه - فوق القبعة السوداء - رفعت "كلير" عينيها ونظرت في وجهي.

كانت النظرة تقول لي: هل عرفت الكثير؟

نظرت إليها.. كل شيء.

كل شيء تقريباً، هكذا صححت لنفسي وأنا أتذكر رسالة "كلير" الصوتية لابنها.

وضعت "كلير" يديها على كتفيه وقبلت جبينه.

- ما الذي تفعله هنا يا حبيبي؟ ظننت أنك قد خرجت مع صديق لك.

Twitter: @alqareah

بحثت عينا "ميشيل" عن عيني؛ وأنا أعلم أن "كلير" لا تعرف شيئا عن مقاطع الفيديو. هي تعرف أكثر مما تخيلت، ولكن المؤكد أنها لا تعرف شيئا عن الفيديو.

قلت وأنا أنظر إلي "ميشيل":

- لقد حضر لكي يحصل على بعض المال. كنت قد اقترضت منه بعض المال. وكنت سأعيده إليه الليلة، قبل أن نغادر إلي المطعم، ولكنني نسيت.

رفعت "كلير" حاجبيها في دهشة.

نظر "ميشيل" في الأرض، وأخذ يحك قدمه في الحصي. وحدقت زوجتي في، ولكنها لم تتفوه بشيء، أما أنا فأخذت أفتش في جيوبي.

وقلت وأنا أخرج المال وأعطيه إلي "ميشيل":

- خمسون يورو.

- شكرا، بابا.

دس النقود في جيب سترته.

تنهدت "كلير" بعمق، ثم أمسكت بيد "ميشيل". نظرت إلي قائلة:

- أليس عليك أن.. من الأفضل أن ندخل. إنهما يتساءلان عن كل هذا التأخير.

عانقنا ابننا، وقبلته "كلير" ثلاث مرات أخري على وجنتيه، ثم وقفنا وراقبناه وهو يرحل فوق دراجته على طول الممشي إلي الجسر. في منتصف الطريق ظننا أنه سيستدير ويلوح لنا، ولكنه اكتفي برفع ذراعه في الهواء.

بعد أن تواري عن أنظارنا، وراء الشجيرات وعبر القناة، سألتني "كلير":

- منذ متي وأنت تعرف؟

Twitter: @alqareah

قمعت رغبتي في أن أرد عليها قائلاً: "وماذا عنكِ أنت؟"، ولكنني قلت عوضاً عن ذلك:

. – منذ عرض ذاك البرنامج على التلفزيون.

تناولت يدي، تماماً كما فعلت مع "ميشيل".

– أوه، حبيبي.

استدرت قليلاً حتى أرى وجهها.

– وأنتِ؟

الآن تناولت زوجتي يدي الأخرى. تطلعت إلي وجهي وحاولت محاولة فاشلة أن تبتسم. كانت ابتسامة تود أن تعود بنا عبر الزمن؛ إلي الماضي.

– أريد منك أن تعرف أنني كنت أفكر فيك أولاً وقبل كل شيء، "بول". لم أرغب أن.. ظننت أن الأمر أشد من أن تتحمله. كنت خائفة.. كنت خائفة من أن يؤدي هذا إلي أن تعاود المرور بكل ما مررت به مجدداً.. أنت تعرف ما أقصده.

بادرت بسؤالها:

– منذ متي؟ متي عرفتِ بالأمر؟

ضغطت على أصابعي.

– في نفس الليلة. نفس الليلة التي كانا فيها عند ماكينة الصراف الآلي.

حملقت فيها، فأردفت:

– اتصل بي "ميشيل"، وكان الأمر قد وقع للتو. كان يسألني عما ينبغي عليهما فعله في تلك اللحظات.

Twitter: @alqareah

29

أذكر موقفاً من الماضي، وقتما كنت لا أزال أعمل. فذات يوم توقفت عند منتصف جملة تتحدث عن معركة ستالينجراد، وأخذت أتطلع إلي الفصل.

كل هذه الرؤوس. كل هذه الرؤوس التي يختفي فيها كل شيء.

قلت لهم:

- وضع هتلر ستالينجراد نصب عينيه. على الرغم من أنه، ومن الناحية الاستراتيجية، كان من الحكمة أن يستمر في طريقه مباشرة إلي موسكو. ولكنه كان مصمماً على غزو هذه المدينة بسبب اسمها: ستالينجراد، فالمدينة تحمل اسم منافسه الأكبر، "جوزيف ستالين". فلابد له من غزو تلك المدينة أولاً. بسبب الأثر النفسي لمصل هذا النصر على "ستالين".

توقفت ونظرت إلي الفصل مرة أخري. بعض الطلاب كان يكتب ما كنت أقول لهم، والبعض الآخر ينظر إلي نظرات فيها اهتمام وفيها شرود، اهتمام أكثر منه شرودًا، حاولت أن أقول لنفسي، ولكنني أدركت حينئذ أن هذا لم يعد يقدم كثيراً أو يؤخر بالنسبة لي.

أخذت أفكر في حياتهم، حياتهم التي ستستمر وحسب.

- فعلي أساس اعتبارات غير منطقية مثل هذه قد تربحون الحروب أو تخسرونها.

Twitter: @alqareah

ذلك في الماضي، وقتما كنت لا أزال أعمل؛ وأنا مازلت أجد صعوبة في التصريح بجملة كهذه. ويمكنني أن أستطرد معك هنا وأقول إنني، في وقت ما من الماضي البعيد، كنت أمتلك خططاً أخري لحياتي، ولكنني لن أحكي لك. كانت تلك الخطط موجودة، ولكن فحواها لا يهم أي أحد، حتى أنت. وجملة "وقتما كنت لا أزال أعمل" تعجبني أكثر من "وقتما كنت أقف أمام فصل من الطلاب..." أو – أسوأ الجمل على الإطلاق، تلك التي يقولها المدرسون المتقاعدون ويدعون بها أن التدريس يجري فيهم مجري الدم – "وقتما كنت لا أزال في سلك التعليم".

كنت أفضل عدم ذكر المادة التي كنت أدرسها. فهذا أيضاً لا يهم أي أحد، حتى أنت. ولكن اللقب ارتبط بي بسرعة.. أوه، ها هو.. المدرس، هكذا كانوا يتهامسون. وهذا يفسر الكثير. ولكن لو سألتهم عما يفسره ذلك لعجزوا عن الرد بإجابة شافية. كنت مدرس تاريخ، ودرّست التاريخ في تلك الأيام الخوالي. توقفت منذ نحو عشر سنوات، اضطررت للتوقف - وإن كنت مازلت أعتقد أن كلا الوصفين بعيد عن الحقيقة. هما وصفان مختلفان لحالتي، ولكن كليهما بعيد بنفس القدر عن الحقيقة.

الحكاية بدأت في القطار، القطار إلي برلين. بداية النهاية: بداية (إجباري علي) التوقف. بدا لي أن الموضوع كله استغرق شهرين أو ثلاثة. وما إن بدأ حتى كان سريعاً، كمن يعرف أنه مصاب بمرض خبيث، ويموت بعد ذلك بستة أسابيع.

وحينما أفكر في ذلك الآن، فإنني أشعر بسعادة وارتياح؛ فقد طالت أيامي قبل أي فصل دراسي بما فيه الكفاية. كنت أجلس وحدي عند النافذة في مقصورة القطار الفارغة وأنظر إلي الخارج. كان الشيء الوحيد الذي يمرق أمامي طيلة نصف الساعة الأولي هو أشجار البتولا، ولكننا نتحرك الآن عبر ضواحي إحدي البلدات. كنت أنظر إلي المنازل والشقق؛ المنازل بحدائقها الصغيرة التي تصل حتى مسار السكك الحديدية. وفي واحدة من تلك الحدائق كانت هناك ملاءات بيضاء منشورة لتجف، وفي حديقة أخري أرجوحة. كنا في نوفمبر وكان البرد شديدًا. فلم يكن هناك أي شخص في تلك الحدائق.

Twitter: @alqareah

قالت لي "كلير":

- ربما تحتاج إلي إجازة قصيرة، مدة أسبوع أو نحو ذلك

كانت قد لاحظت شيئا جديداً في تصرفاتي، قالت إنني أتعامل مع كل شيء بسرعة مبالغ فيها وبسخط وضيق شديد. لابد أن السبب هو العمل، المدرسة. قالت لي إنها تتعجب أحياناً من قدرتي على التحمل. وقالت لي ليس هناك ما يدعوك إلي أن تشعر بالذنب. فقد كان "ميشيل" في الثالثة من عمره، وبوسعها تصريف أمورنا بسهولة معقولة، حيث إنه يكون في "الحضانة" ثلاثة أيام في الأسبوع، وهي الأيام التي تكون حرة فيها تفعل ما تشاء.

كنت قد فكرت في روما وبرشلونة، في أشجار النخيل والمقاهي في الهواء الطلق، ولكنني في النهاية اخترت برلين، لأنني لم أكن قد ذهبت إليها من قبل. في البداية شعرت ببعض الإثارة والبهجة. وحزمت حقيبة صغيرة. سآخذ معي أقل أمتعة ممكنة؛ كي يكون السفر خفيفاً، كما قلت لنفسي. استمرت الإثارة حتى وصلت إلي المحطة، حيث كان قطار برلين ينتظر على الرصيف. مضي الجزء الأول من الرحلة بسلاسة. تطلعت دون أسف إلي العمائر السكنية والمناطق الصناعية وهي تختفي من أمامي. وعندما وصلنا إلي أول الأبقار، والترع وطواحين الهواء، كانت أفكاري لا تزال ثابتة على ما ينتظرني هناك، وعلي ما سأراه بعد هذه المشاهد. ولكن بعد ذلك تركت البهجة مكانها لشعور آخر. أخذت أفكر في "كلير" و"ميشيل"، وفي هذا البعد عنهما، الذي تزيد مسافته مع مرور كل لحظة. رأيت زوجتي عند باب "الحضانة"، ومعها العربة التي تضع فيها "ميشيل"، ثم وهي تفتح باب المنزل بالمفتاح.

ومع دخول القطار الأراضي الألمانية كنت قد قصدت البوفيه عدة مرات للحصول على مزيد من البيرة. ولكن الأوان كان قد فات، لقد تجاوزت نقطة اللا عودة.

في تلك اللحظات، شاهدت المنازل والحدائق. الناس في كل مكان، وهم كثر لدرجة أن منازلهم تتاخم شريط السكة الحديد.

Twitter: @alqareah

هاتفت "كلير" من غرفة الفندق. حاولت أن يخرج صوتي طبيعياً. ولكن حدسها جعلها تبادرني:

- ما الأمر؟ هل أنت بخير؟

- كيف حال "ميشيل"؟

- بخير. صنع فيلاً من الصلصال اليوم في الحضانة. ولكن سأجعله يحكي لك عن ذلك بنفسه. "ميشيل"، بابا على التلفون..

حاولت أن أقول لها لا. لا.

- بابا..

- مرحبا، صاح. ما هذا الذي عرفته من ماما؟ هل صنعت فيلاً؟

- بابا؟

وددت أن أقول له شيئاً، ولكنني عجزت.

- عندك برد، بابا؟

حاولت خلال الأيام التالية بذل قصاري جهدي لتمثيل دور السائح المهتم. فمشيت جوار أطلال سور برلين، وأكلت في المطاعم التي ذكر لي الكتيب الذي جلبته معي أنها مطاعم عامة أهل برلين العاديين. ولكن الليالي كانت هي الأسوأ. كنت أقف عند نافذة غرفتي في الفندق أتأمل حركة المرور وآلاف أضواء السيارات، والناس الماضين إلي شؤونهم.

أمامي خياران: أن أمكث أمام النافذة أتأمل، أو أن أنزل وأختلط بالناس، وأتظاهر أنني سائر إلي مشوار ما، مثلهم.

سألتني "كلير" بعد أسبوع وأنا أحتضنها:

- كيف كانت الإجازة؟

Twitter: @alqareah

احتضنتها بقوة فاقت ما قصدته. ولكنني شعرت أن هذا الحضن القوي غير كاف.

وبعد بضعة أيام عاودني الأمر في المدرسة كذلك. في البداية قلت لنفسي إن للأمر علاقة بكوني كنت بعيداً لفترة.

إلي أن حدثت واقعة، كنت أنا الملوم على نتائجها.

فقد قلت لطلاب الفصل ذات يوم: "قد تتساءلون عن عدد سكان العالم الآن لو أن الحرب العالمية الثانية لم تندلع". وأنا أكتب على السبورة الرقم 55,000,000. "لو أنه لم يمت أحد وأنهم عاشوا جميعًا وتضاجعوا. أريد منكم أن تجروا حساباتكم، وتقدموا لي النتائج في الحصة القادمة".

كنت أعي أن أغلب الطلاب يحدقون في الآن، بل ربما جميعهم، ينظرون إلي السبورة ثم إلي، ثم إلي السبورة مجدداً. فابتسمت ونظرت عبر النافذة. لمبني المدرسة نظام تهوية مركزي ولم تكن النوافذ تفتح.

قلت لهم:

- سأخرج لأتنفس هواءً نقياً.

ومن ثم، مضيت إلي خارج الفصل.

Twitter: @alqareah

30

لا أعرف ما إذا كان بعض الطلاب قد اشتكوا بالفعل أم لا، أو أن الآباء هم من لفتوا انتباه مجلس المدرسة، أو أن ذلك حدث لاحقاً. ومهما يكن من أمر، فقد استدعوني ذات يوم إلى مكتب المدير.

كان المدير من النوع الطيب الذي نادراً ما تجده هذه الأيام. يصفف شعره على جنب، ويرتدي بدلة بنية اللون.

قال لي بعد أن دعاني إلى الجلوس على المقعد الوحيد قبالة المكتب:

- لقد وصلتني شكاوي بشأن مضمون دروس التاريخ.

- ممن؟

نظر لي المدير. على الحائط وراءه خارطة لهولندا، تظهر الأقاليم الثلاثة عشر كلها.

- هذا غير مهم. المهم هو..

- بل هو مهم. فهل هي شكاوي من الآباء أم من الطلاب أنفسهم؟ فالآباء دائماً ما يشتكون من أمور لا تهم الطلاب.

- "بول"، الأمر يتعلق بشيء قلته عن الضحايا، وصحح لي إن كنت غلطان، عن ضحايا الحرب العالمية الثانية.

Twitter: @alqareah

تراجعت بظهري للوراء، أو على الأقل حاولت، فقد كانت الحركة صعبة في ظل مقعد ظهره منتصب وعالٍ.

- قيل لي إنك قد تحدثت باستهانة عن هؤلاء الضحايا، وإن معني كلامك أنك لا تلوم أحداً سواهم على كونهم ضحايا.

كان المدير ينظر إلي ورقة أمامه على المكتب.

- يقولون هنا..

سكت وهز رأسه، وخلع نظارته، وفرك مكانها على أنفه بإبهامه وسبابته.

- يجب أن تدرك، "بول"، أن هذه شكاوي من الآباء، وهم يشكون دائما. وأنا أدرك أنهم دائمو الشكوي، وكثيراً ما تكون الشكاوي حول هراء.. هل يمكن لأطفالهم الحصول على التفاح في المقصف المدرسي؟ ما هي سياستنا أن يتعلق الجمباز أثناء الحيض؟ تفاهات. نادرا ما يتحدثون عن مضمون الدروس، ولكنهم هذه المرة يتحدثون عن مضمون الدروس، وهذا ليس بالأمر الجيد للمدرسة. وسيكون من الأفضل لنا جميعا لو تفضلت ببساطة وتقيدت بالمنهج.

شعرت، لأول مرة خلال اجتماعنا، بوخز طفيف في الجزء الخلفي من رقبتي. وسألته بهدوء:

- ومن أي جانب يزعمون أنني لا أتمسك بالمنهج؟

نظر المدير إلي الورقة مجدداً:

- يقولون هنا.. ولكن ما رأيك أن تخبرني أنت بنفسك؟ ما الذي تقوله بالضبط، "بول"؟

- لا شيء على وجه التحديد. جعلتهم يجرون بعض العمليات الحسابية البسيطة. كم عدد الحمقي وسط مجموعة من مئة شخص؟ كم عدد الآباء الذين يهينون أطفالهم؟ كم عدد البلداء الذين تفوح منهم رائحة النتانة ولكنهم يرفضون النظافة؟ كم عدد خائبي الرجاء الذين لا يملون طوال حياتهم من

Twitter: @alqareah

شكوي ظلم غير موجود؟ طلبت منهم أن يبحثوا حولهم: كم عدد زملائكم الذين سيسعدكم ألا تروهم في المدرسة بعد الآن؟ فكروا في شخص في عائلاتكم، مثل ذلك العم المزعج الذي يضايقكم بحكاياته التافهة طوال حفلات أعياد الميلاد، أو ابن العم القبيح الذي يعذب قطته. فكروا في مدي راحتكم - وليس أنتم فقط ولكن العائلة كلها تقريبا - إذا انفجر لغم أرضي في ذلك العم أو ابن العم أو سقط عليه ثقل وزنه خمسمائة رطل من علو شاهق، إذا انمحي ذلك الشخص من على وجه الأرض. والآن فكروا في ملايين من ضحايا حروب الماضي. وأنا لم أخص الحرب العالمية الثانية على وجه التحديد، بل استعنت بها كمثال لأنها الأقرب إلي مخيلتهم، وطلبت منهم أن يفكروا في آلاف، وربما عشرات الآلاف من الضحايا الذين لم نكن سنسعد بوجودهم من حولنا من الأصل. وحتى من وجهة نظر إحصائية بحتة، فإن من المستحيل أن يكون جميع هؤلاء الضحايا من الناس الطيبين، أيا كان معدن هؤلاء البشر. إن الظلم موجود حتى عند وضع قائمة بضحايا أبرياء. بل وتم نقش أسمائهم أيضا في نصب الحرب التذكارية.

سكت لحظة لألتقط أنفاسي. هل أنا أعرف هذا المدير جيدا، على أية حال؟ لقد تركني أتحدث دون أن يقاطعني، ولكن ما الذي يعنيه ذلك؟ ربما كان قد سمع ما فيه الكفاية. ربما كان هذا كل ما كان يحتاجه ليحذرني بعدها.

عاد يرتدي نظارته، ولكنه لم يكن ينظر إلي، بل إلي سطح المكتب:

- "بول". هل لي أن أسألك سؤالاً شخصيا؟

لم أرد.

سألني المدير:

- ربما تكون قد وصلت إلي منتهي مسيرتك، "بول". أعني مسيرتك في التعليم، وأرجوك أن تفهمني، فأنا لا ألومك على أي شيء، فهذا يحدث لنا جميعا في بعض الأحيان، عاجلا أو آجلا. إننا نشعر بالسأم، ونبدأ في التفكير في عبثية مهنتنا.

- أوه، حسناً..

Twitter: @alqareah

– لقد مررت بهذه الحالة أيضاً. وقت أن كنت مدرساً. إنه شعور مقرف جدا. يهز كل شيء، كل شيء تؤمن به. فهل هذا هو الشعور الذي يعتريك الآن، "بول"؟ هل مازلت تؤمن بمهنتك؟

أجبته بصدق:

– دائما ما كنت أضع طلابي نصب عيني. ولقد حاولت دائما أن أجعل المادة ممتعة في نظرهم. وللقيام بذلك، جعلت من نفسي معيار قياس. لم أحاول أن أبهرهم بالحكايات. فلقد كنت دوماً أتذكر ما كنت عليه وقت أن كنت في المدرسة الثانوية. وما كنت أهتم به حقاً. هذا هو بيت القصيد بالنسبة لي.

ابتسم المدير ورجع بظهره في مقعده. حسدته لأنه يستطيع ذلك في مقعده بسهولة.

قلت له:

– أكثر ما أتذكره منذ أيام حصص التاريخ في مدرستي المصريون القدماء، الإغريق والرومان، الإسكندر الأكبر، كليوباترا، يوليوس قيصر، هانيبال، وحصان طروادة، والفيلة التي مشت عبر جبال الألب، والمعارك البحرية، وحلبات المصارعين الرومان، وسباقات المركبات، وجرائم القتل والانتحار المذهلة، وثوران بركان فيزوف، ولكني أتذكر أيضا الجمال، جمال كل تلك المعابد والساحات والمدرجات، واللوحات الجدارية، والحمامات، والفسيفساء، هذا النوع من الجمال الخالد، تلك هي الألوان التي تجعلنا نفضل عطلة في واحدة من بلدان البحر المتوسط على مانشستر أو بريمن، حتى اليوم. ولكن بعد ذلك ظهرت المسيحية فبدأ يتداعي ويتساقط. وفي النهاية تكون سعيدا فعلا عندما يأتي "البرابرة" ويهدمون كل شيء. تلك هي الأشياء التي أتذكرها بوضوح، وكأنني تعلمتها أمس. وأتذكر أيضا أن بعد ذلك، ولفترة طويلة، لم يكن هناك أي شيء. فحقبة العصور الوسطي، عندما تقول الحق، كانت مثيرة للاشمئزاز، حيث عاد الزمن للوراء، وباستثناء عدد قليل من أحداث الحصار العنيفة، لم يحدث فيها شيء يذكر. ثم التاريخ الهولندي! حرب الواحد

Twitter: @alqareah

والثمانين عاماً، وأتذكر أنني كنت أتمني لو أن الإسبان قد انتصروا في نهاية المطاف. وكانت هناك بارقة أمل عندما اغتيل "وليم أورانج"، ولكن في النهاية نجح نادي المتعصبين الدينيين في الاستيلاء على كل شيء. واستقر الظلام واطمأن في جميع أنحاء البلدان المنخفضة. وأتذكر أيضا كيف كان مدرس التاريخ، سنة بعد سنة، يتلاعب بجميع احتمالات الحرب العالمية الثانية أمامنا، وكأنه يطهو أصابع سجق دسمة. كان يقول لنا: "إنني أدرس الحرب العالمية الثانية في الصف السادس"، ولكن لما وصلنا الصف السادس وجدناه لا يزال يتحدث عن "وليام الأول" وعن انفصال بلجيكا. وفي أحسن الأحوال، كان يحكي بين الحين والآخر عن حروب الخنادق حتى لا يفقد اهتمامنا. ولكن، فيما عدا الدمار الشامل للأرواح البشرية، كانت الحرب العالمية الأولي في معظمها مملة. لم يكن بها ذلك الزخم، إن صح تعبيري. وقيل لي فيما بعد إنها كانت كذلك بالفعل. وهكذا لم ندرس الحرب العالمية الثانية. لم ندرس الفترة الأكثر إثارة للاهتمام في الخمسمائة سنة الماضية، حتى بالنسبة لهولندا، التي لم يحدث بها أي شيء لافت منذ أن قرر الرومان أنها لا تناسب استيطانهم، وحتى مايو 1940. أعني، عندما يتحدثون عن هولندا في البلدان الأخري، فما الذي يتحدثون عنه؟ عن "رامبرانت". عن "فنسنت فان جوخ". عن الرسامين. والشخصية الهولندية التاريخية الوحيدة التي وصلت إلي العالمية، كما يقولون، كانت "آنا فرانك".

للمرة الألف، انشغل المدير بترتيب الأوراق على مكتبه، والتقليب في شيء بدا مألوفا بالنسبة لي. كان ملفاً بغلاف واضح، من النوع الذي يستخدمه الطلاب عند تقديم أبحاثهم.

– هل يعني الاسم [...] شيئاً بالنسبة لك، "بول"؟

نطق اسم واحدة من الطالبات في فصلي. وأنا لم أحذف عنك الاسم هنا عن قصد، بل لأنني أقسمت حينذاك أن أنساه. وقد نسيته.

أومأت برأسي موافقاً.

Twitter: @alqareah

- وتذكر ما قلته لها؟

- بعض الشيء.

أغلق الملف ونحاه جانبا.

- لقد منحتها ثلاث درجات. وحينما سألتك عن السبب، قلت..

- إن هذا الذي قدمتِه لا يساوي شيئاً. وإنه ليس من النوع الذي أنتظره من طلبتي.

ابتسم المدير، ابتسامة ذكرتني بالحليب المخفوق:

- أقر لك أن ورقها لم يعجبني أنا أيضاً، ولكن الأمر لا يتعلق بذلك. بل بـ..

قاطعته مجدداً:

- بالإضافة إلي الحرب العالمية الثانية، فإنني أيضا أتناول جزءاً كبيراً من التاريخ المعاصر؛ كوريا، فيتنام والكويت والشرق الأوسط وإسرائيل، وحرب الأيام الستة، وحرب يوم الغفران والفلسطينيين. أتناول كل ذلك خلال دروسي. وبالتالي لا تتوقع مني أن أقبل ببحث عن دولة إسرائيل يتحدث عن أناس يجمعون البرتقال ويرقصون حول نيران الشواء مرتدين صنادلهم في معسكرات. بهجة، وناس سعداء في كل مكان، وكل هذا الهراء حول الصحراء التي تنبت زهوراً. أعني أن الناس هناك يقتلون ويصابون بالرصاص في كل يوم، وحافلات تتفجر بركابها. هل لي أن أعرف ما المقصود؟

- لقد جاءتني باكية، "بول".

- كنت سأبكي بدوري لو قبلت بهراء كهذا.

نظر المدير إلي. فرأيت في عينيه شيئاً لم أكن قد رأيته من قبل؛ شيئًا محايدًا، أو بالأحري، شيئًا لا يحيل عقلك إلي أي شيء، تماماً مثل البدلة التي يرتديها. عاد بظهره للوراء من جديد، ولكن لمسافة أبعد هذه المرة.

Twitter: @alqareah

خيل إلي أنه يباعد بينه وبيني. لا؛ الأصح هو أنه يودعني.

- "بول"، من الصعب أن تقول أشياء من هذا القبيل لفتاة عمرها خمسة عشر عاما.

صارت نبرة صوته محايدة أكثر. أدركت أنه لن يدخل في نقاش معي، وأنه قد أصدر حكمه. وتيقنت أنني لو سألته عن السبب الذي يمنعني من قول أشياء من هذا القبيل، لرد على قائلاً: "لأنك لا تستطيع ذلك".

للحظة وجيزة، فكرت في الفتاة. كان لها وجه حلو مبتهج. بهجة ليست بسبب معين. سعادة وبهجة باردة، تماما كما كانت الصفحة والنصف التي قدمتها عن جمع البرتقال.

تابع المدير كلامه:

- إن الأشياء التي قلتها مناسبة أكثر لمشجع في مدرجات كرة القدم، وليس في فصل ثانوي. ليس في مدرستنا، وبالتأكيد لا تخرج من فم أحد مدرسينا.

لا يهم هنا ما قلته للفتاة تحديداً، حتى أكون واضحاً معك. فهذا سيخرج بنا عن القضية الحقيقية، ولن يضيف لك شيئا. وأحيانا ما يخرج من فمك كلام تندم عليه لاحقا. أو لا، ليس ندما. تتفوه بشيء مثل حد السكين فتحدث به ندبة في وجه من توجه إليه الكلام تصاحبه طوال حياته.

تذكرت وجهها المبتهج. وحينما قلت لها ما قلت، شعرت أنه انكسر. كمزهرية. أو كلوح زجاج تهشم.

نظرت إلي المدير وشعرت بيدي تتحول إلي قبضة. لم أتمكن من أن أمسك نفسي، ولا رغبة لي في مواصلة النقاش. ماذا كانت تلك العبارة.. لم يعد من الممكن التوفيق بين مواقفنا. وهذا ما كان يحدث. انقسام يبزغ. وأحيانا ما يموت الكلام.

Twitter: @alqareah

نظرت إلي المدير وتخيلتني ألكمة لكمة ساحقة في منتصف وجهه، أسفل الأنف تماماً، بين المنخار والشفة العليا. عندها ستنكسر أسنانه ويتفجر الدم من أنفه، ويتضح موقفي تماماً. ولكنني كنت أشك فيما إذا كان ذلك من شأنه أن يساعدنا على حل خلافاتنا. فما كنت سأتوقف بعد اللكمة الأولي، بطبيعة الحال، بل كنت سأستمر في تهشيم هذا الوجه اللطيف تماما، حتى يصير كتلة لطيفة. ولن يتسني لي حينئذ الدفاع عن موقفي أمام المدرسة، مع أن هذا أقل مخاوفي في تلك اللحظة. وبكل صراحة أقول لك إن هذا كان حال موقفي منذ فترة طويلة. فمن أول يوم لي في هذه المدرسة، تبنيت موقفاً لا أحسد عليه. أما ما مر من سنوات لي في المدرسة فكان بمثابة مهلة مؤقتة. كل الساعات التي وقفتها أمام الطلاب هنا لم تكن سوي مهلة تؤجل ما سيتحقق لا محالة.

كان السؤال هو ما إذا كان على أن أتفضل على المدير فألكمه أم لا، ما إذا كان ينبغي أن أجعل منه ضحية، شخصًا يشعر الناس بالشفقة عليه. تخيلت الطلاب وهم يتزاحمون على النافذة بينما يقتادونه بعيدا في سيارة الإسعاف. نعم، سيكون من الضروري استدعاء سيارة إسعاف؛ فأنا لن أتوقف قبل أن أنجز المهمة على أكمل وجه. وفي النهاية، سيشعر الطلاب بالشفقة عليه.

- "بول"؟

اعتدل المدير في جلسته، تفوح منه رائحة الخطر. كان يبحث عن طريقة يجمل بها ما سيقوله الآن.

سألت نفسي: هل ستهرع سيارة الإسعاف وأضواؤها ساطعة أم لا؟ أخذت نفسا عميقا، ثم زفرت ببطء. على أن آخذ قراري بسرعة الآن، وإلا سيفوت الأوان. بوسعي أن أنهال عليه بالضرب حتى الموت بقبضتيّ العاريتين. أعترف لك بأنها ستكون مهمة قذرة، ولكنها ليست أقذر من سلخ حيوان بري، أو سلخ ديك رومي. أعرف أن لديه زوجة تنتظره في المنزل، وأطفالا أكبر سنا. ومن يدري، فربما أسدي إليهم خدمة بإقدامي على هذا. محتمل جدا أن يكونوا قد

Twitter: @alqareah

سئموا هذا الوجه اللطيف. وسيبدون الحزن والأسي خلال الجنازة، ولكنهم سرعان ما سيتنفسون الصعداء بعد ذلك.

- "بول"؟

نظرت إلي المدير، مبتسماً.

- هل لي أن أسألك سؤالاً شخصيا؟ لقد ظننت، ربما، أن هناك شيئًا ما.. أقصد، أنا أتساءل فحسب: ما هي أحوالك في المنزل، "بول"، هل كل شيء على ما يرام؟

في المنزل. ظللت مبتسماً، ولكنني كنت أفكر في "ميشيل" طوال الوقت. كان ميشيل يقترب من عامه الرابع. وفي هولندا، عقوبة الضرب المفضي إلي موت هي ثماني سنوات. وهي ليست بالعقوبة القاسية؛ فمع قليل من حسن السير والسلوك، وتمضية الوقت كيفما يكون في السجن، يمكنك أن تخرج في غضون خمس سنوات. وسيكون عمر "ميشيل" حينئذ تسعة أعوام.

- كيف تجري أمورك مع زوجتك.. "كارلا"؟

صححت له الاسم. "كلير"؛ اسمها "كلير".

- أحوالنا رائعة.

- وكيف حال الأولاد؟

الأولاد. حتى هذه المعلومة بدت أكبر من أن يتذكرها عقل هذا الأحمق! وبطبيعة الحال، من المستحيل أن تتذكر كل شيء عن كل شخص. ومن بين هذه الاستثناءات أن تعرف أن مدرس الفرنسية يعيش مع صديقته، لأن السر انكشف. ولكن أن تعرف كل شيء عن الآخرين... لم تنكشف أسرار أخري. فالجميع لديهم أزواج أو زوجات وأطفال، أو ليس لديهم أطفال، أو لديهم طفل واحد فقط. كانت دراجة "ميشيل" مازالت بأربع عجلات. لو كنت في السجن، فلن أشهد تلك اللحظة التي يتمكن فيها من ركوب دراجة بعجلتين، بل سأسمع عن ذلك فحسب.

Twitter: @alqareah

- بخير. وأحيانا ما يندهش المرء من الأيام التي تجري بسرعة، وكيف يكبرون بسرعة.

عقد المدير يديه وأسندها إلي سطح المكتب، وهو يجهل حقيقة أنه قد نجي بنفسه في هذه اللحظة بالذات.

لأجل "ميشيل". لأجل عيني "ميشيل"، سأتمالك أعصابي، ولن أستخدم يديّ.

- "بول"، ربما لا يعجبك ما سأقوله، ولكن يجب على أن أقوله على أية حال. أعتقد أنه سيكون من الجيد أن تحجز موعداً مع "فان ديرين"، الأخصائي النفسي بالمدرسة، وأن تأخذ إجازة قصيرة من التدريس، فقط لفترة من الوقت حتى تتمكن من إعادة شحن بطارياتك. أعتقد أنك في حاجة إليها. نحن جميعا في حاجة إليها من وقت لآخر.

كنت هادئا بشكل ملحوظ، هادئًا ومنهكًا. فلن يكون هناك أي عنف. الأمر مثل عاصفة تهب؛ فيدخلون كراسي المقهي إلي الداخل، ويطوون المظلات، ولكن لا يحدث شيء. تمر العاصفة وحسب. ولكن ينتابك، في نفس الوقت، شعور سيئ جدا؛ فأنت بعد كل هذا لم تر أسطح المنازل وهي تتطاير، والأشجار وهي تقتلع وتطير في الهواء؛ إن للأفلام الوثائقية عن الأعاصير والتسونامي تأثيرًا مهدئًا. وبطبيعة الحال فإنه لأمر فظيع، ونحن جميعا تعلمنا أن نصف أي كارثة من هذا القبيل على أنها أمر فظيع، ولكن عالَمًا خاليًا من الكوارث والعنف - سواء كان عنف الطبيعة أو عنف العضلات والدم – سيكون عالماً لا يطاق.

وهكذا سيعود مدير المدرسة إلي منزله "صاغ سليم". وسيجلس في المساء إلي المائدة مع زوجته وأطفاله. وسيملأ مقعده بحضوره اللطيف الذي كاد أن يبقي شاغراً. لن يأخذوا أحداً إلي العناية المركزة أو يقيموا له جنازة، لأن القدر قد حسم هذا بكل بساطة.

أصدقك القول بأنني كنت أعرف منذ البداية، منذ اللحظة التي بدأ الحديث فيها عن المنزل، وعن أحوالي في البيت. فهذه طريقة لطيفة ليخبرك بها أنهم

Twitter: @alqareah

يريدون التخلص منكم. فلا يهتم أحد بمجريات الأمور في منزلي، ومن يهتم بذلك من الأصل. هذا تماماً مثل أن تسأل أحدهم: "هل استمتعت بوجبتك؟". فهذا ليس من شأن أحد.

وعندما وافقت دون مزيد من اللغط على أن أذهب إلي طبيب المدرسة النفسي، وجدت المدير مندهشًا حقا، مندهشًا وسعيدًا. كلا، لن أقدم له أية حجة تمكنه من التخلص مني دون صراع. ونهضت في إشارة مني إلي أن الاجتماع قد انتهي، بالنسبة لي على الأقل.

عند الباب مددت يدي نحوه، وصافحني. صافح اليد التي كانت على وشك أن تغير مجري حياته أو أن تنهيها تماماً. قال لي:

- يسعدني أنك قد تقبلت الأمر و.. أرجوك أن ترسل تحياتي الحارة إلي زوجتك.

فقلت:

- أجل، إلي "كارلا".

Twitter: @alqareah

31

وهكذا، وبعد بضعة أيام، ذهبت إلي أخصائي المدرسة النفسي "فان ديرين". وفي المنزل، أخبرتها الحقيقة. طلبت من "كلير" أن تأخذ الأمور بصورة أسهل قليلا لفترة من الوقت. وأخبرتها عن الدواء الذي كتبه لي الأخصائي النفسي، عن طريق طبيب العائلة. وكان هذا بعد موعد أول لم يستمر سوي ثلاثين دقيقة بالكاد.

قلت "لكلير":

- آه، وقد نصحني بأن أرتدي نظارة شمس.

- نظارة شمس؟

- قال لي إنني أتنبه إلي كثير من الأمور وبدرجة مبالغ فيها، وأن من الأفضل أن نحد من قدر المحفزات البصرية.

كنت أخبئ عنها بعضاً من الحقيقة. ورأيت أن احتفاظي بقدر من الحقيقة لنفسي سيمنعني من الكذب الصريح.

ذكر الأخصائي اسماً، اسمًا ألماني النطق. وكان هذا هو اسم عائلة طبيب أعصاب سموا هذا الاضطراب تحديداً على اسمه.

قال لي "فان ديرين"، وهو ينظر في وجهي بجدية:

Twitter: @alqareah

- يمكنني السيطرة على هذا العرض بعض الشيء مع العلاج، ولكن يجب عليك أن تتعامل معه على أنه مسألة أعصاب في المقام الأول. ومع العلاج الصحيح، سيمكن السيطرة عليه بشكل فعال تماما.

ثم سألني عما إذا كان هناك، وبحسب علمي، أفراد آخرون في عائلتي يعانون من شكوي أو أعراض مماثلة. فكرت في والديّ، ثم في جدي وجدتي. ومررت على كامل قائمة الأعمام والعمات وأبناء وبنات العمومة، وأنا أحاول أن أضع في اعتباري ما قاله "فان ديرين"؛ وهو أنه من الصعب اكتشاف هذه المتلازمة بالذات؛ حيث يميل أصحابها إلي التصرف بشكل طبيعي، ويكونون منغلقين بعض الشيء. وتجد أنهم في أي محفل اجتماعي إما أن يكونوا من كبار الثرثارين، أو يبقوا صامتين على الدوام.

وفي النهاية، هززت رأسي نفياً، بعدما فشلت في تذكر أي أحد بنفس العرض.

- ولكنك سألت عن عائلتي. هل تعني أن الأمر وراثي؟

- أحياناً. فنحن دوماً ما نحاول وضع التاريخ المرضي للعائلة في الاعتبار. هل لديك أطفال؟

أخذت دقيقة قبل أن استوعب تماماً معني ما قاله. فحتى تلك اللحظة كنت أفكر فيما ورثته أنا. ولكنني الآن، ولأول مرة، أجدني أفكر في ما قد يرثه "ميشيل".

- سيد "لومان".

- دقيقة.

فكرت في ابني، الذي كان في الرابعة. في أرضية غرفة نومه، التي تتناثر فوقها ألعابه من السيارات. ولأول مرة في حياتي، فكرت في الطريقة التي يلعب بها بتلك السيارات، وفي اللحظة التالية كنت أتساءل عما إذا كنت، من الآن فصاعدا، سأنظر إلي طريقة لعبه هذه بشكل مختلف.

Twitter: @alqareah

وماذا عن "الحضانة"؟ هل لاحظوا أي شيء في هناك؟ أوجعت رأسي، في محاولة تذكر ولو كلمة قيلت في هذا الشأن، ولو ملاحظة عابرة حول انغلاق "ميشيل" على نفسه أو إبدائه لسلوك شاذ آخر، ولكنني لم أصل لأي شيء.

سألني الأخصائي بابتسامة:

- هل يستغرق الأمر منك كل هذا الوقت حتى تتذكر إن كان لديك أطفال أم لا؟

- كلا.. ولكن الأمر أن..

- ربما تفكر في الإنجاب.

لا أذكر أن مثل هذا السؤال قد أثار في كل هذا القلق.

- هذا صحيح. هل تنصحني بعدم الإنجاب؟ في مثل حالتي؟

أسند "فان ديرين" مرفقيه إلي سطح المكتب وأسند ذقنه على يديه:

- كلا. أقصد أننا وفي أيامنا هذه يمكننا أن نكتشف عيوباً مثل هذه حتى قبل ولادة المولود. من خلال اختبار الحمل أو بزلِ السَّلَي. وبالطبع، عليك أن تكون على علم بما أنت مقدم عليه. فالتخلص من الحمل ليس بالمسألة الهينة.

ومضت في مخيلتي عدة خواطر، فسلطت عليها الضوء واحدة تلو الأخري، ولا يمكنني سوي التعامل معها واحدة واحدة. لم أكن أكذب وأنا أرد على سؤال الأخصائي بأننا نفكر في إنجاب أطفال. ولكنني فقط أغفلت حقيقة أن لدينا طفلا بالفعل. وكان مولده مرهقاً للغاية. وخلال السنوات الأولي بعد ولادة "ميشيل"، رفضت "كلير" حتى فكرة أن تحمل مرة أخري، ولكن الفكرة راودتنا في الآونة الأخيرة أكثر من مرة. وأدركنا أن علينا حسم الأمر قريبا، وإلا فإن الفرق في العمر بين "ميشيل" وأخيه أو أخته الصغيرة سيكون كبيرا جدا، هذا إن لم يكن كبيرا بالفعل.

سألته:

Twitter: @alqareah

- إذن فمن شأن اختبار كهذا أن يظهر ما إذا كان المولود قد ورث هذا الاضطراب أم لا؟

كان جفاف فمي قد ازداد، وكان على أن أرطب شفتي بطرف لساني قبل أن أتحدث بصورة طبيعية.

- حسنا، ربما يجب على تصحيح كلامي. فما قلته للتو هو أن من الممكن تحديد المرض حتى في السائل الذي يحيط بالجنين، ولكن الأمر ليس على هذا النحو بالضبط. بل هو على العكس من ذلك، في أحسن الأحوال. حيث يظهر بَزْلُ السَّلَى أن هناك شيئا ما خطأ، ولكننا لا نعرف ماهية هذا الشيء بالضبط إلا بمزيد من الاختبارات.

لاحظت أن الحقيقة الوحيدة التي ترسخت الآن أنه قد صار مرضاً. بدأنا بالحديث عن عيب، ثم اضطراب ومتلازمة، وانتهينا إلي كونه مرضاً.

- ولكن وعلي أي حال فهو سبب وجيه للقيام بالإجهاض، حتى من دون مزيد من الفحوصات؟

- اسمع. إننا ومع "متلازمة داون"، على سبيل المثال، أو ما يسمونها "السنسنة المشقوقة"، يمكن أن نري علامات واضحة في السائل الذي يحيط بالجنين. وفي تلك الحالات ننصح دائما الآباء والأمهات بإنهاء الحمل. أما مع هذا المرض، فإننا نجد أنفسنا في ريبة وشك. ولكننا نحذر الوالدين. وواقع الحال يبين أن معظم الآباء يقررون عدم المجازفة.

بدأ "فان ديرين" يستخدم صيغة "نحن" وكأنما هو ممثل مهنة الطب والمتحدث باسمها، وما هو إلا أخصائي نفسي عجوز، بل وفي مدرسة. وهذا أحط موقع لأخصائي نفسي.

هل سبق لـ"كلير" أن أجرت اختبارًا للسائل الذي يحيط بالجنين؟ ولغبائي، اكتشفت أني لم أكن أعرف. كنت أذهبت معها في كل مرة تقريبا؛ إلي أول فحص بالموجات فوق الصوتية، وإلي أول جلسة تدريبات ما قبل الولادة، أول جلسة فقط، والحمد لله؛ فقد وجدتها "كلير" سخيفة حتى أكثر مما وجدتها أنا، خاصة

Twitter: @alqareah

حينما يضطر الزوج إلي أن يلهث وينفخ الهواء بنفس طريقة الزوجة تشجيعا لها. وذهبت معها في الزيارة الأولي إلي "الداية"، وتلك كانت على الفور الزيارة الأخيرة؛ فقد صاحت في: "أنا لا أريد أي "داية" تقوم بتوليدي!".

ولكن "كلير" ذهبت أيضا إلي المستشفي وحدها عدة مرات. كانت تقول لي إنه ليس هناك أي معني لأن أضيع نصف يوم عمل للقيام بزيارة روتينية إلي طبيبها في المستشفي.

كنت أهم بسؤال "فان ديرين" عما إذا كانت جميع الحوامل تخضعن لاختبار السائل هذا، أم أنه اختبار يتم لمجموعة معينة ذات المخاطر العالية، ولكنني ابتلعت السؤال على الفور. وسألته بدلاً من ذلك:

– هل كانت هناك اختبارات للسائل هذا قبل ثلاثين أو أربعين عاما؟

فكر أخصائي المدرسة للحظات، قبل أن يقول:

– لا أعتقد ذلك. كلا، هذا هو ردي على السؤال. أنا متأكد مائة في المائة. بالتأكيد لم يكونوا يجرونه قديماً.

نظرنا إلي بعضنا؛ وفي تلك اللحظة، كنت أنا أيضا متأكدًا مائة في المائة من أن "فان ديرين" وأنا نفكر في نفس الشيء.

ولكنه لم يفصح عن ذلك. ربما لم يجرؤ، ولذلك تطوعت أنا بأن أقوله له:

– أنت تعني أن تخلف العلوم الطبية منذ أربعين عاماً هو السبب الوحيد في وجودي أمامك اليوم؟ وفي وجودي في هذه الدنيا من الأصل؟

كان السؤال الأخير مبتذلاً جداً، ولكنني رغبت بشدة في أن أنطقه بفمي.

– هذا بتعبيرك أنت. فلو كان هذا الاختبار متاحاً في تلك الأيام، لكان والداك بالتأكيد قد فضلا أن يكونا في أمان.. بدلاً من تمضية بقية العمر في الأسي والأسف لأجلك.

Twitter: @alqareah

32

أخذت أقراص الدواء. وخلال الأيام القليلة الأولي لم يحدث شيء. ولكنه قال لي سلفاً إن لا شيء يمكن أن يحدث بصورة ملحوظة إلا بعد بضعة أسابيع. ومع ذلك، فقد أدهشني أن "كلير" قد بدأت تنظر إلي وجهي بشكل مختلف منذ البداية.

تسألني عدة مرات في اليوم:

- كيف حالك؟

وإجابتي الوحيدة هي: بخير.

وكان هذا صحيحًا. فقد شعرت أني بخير فعلاً، وأستمتع بالتغيير، وأستمتع قبل كل شيء بحقيقة أنني لم أعد مضطراً إلي الوقوف في فصل دراسي كل يوم. كل تلك الوجوه التي تحدق في وجهي، لساعة كاملة، ثم الوجوه الأخري التي تعقبها في الساعة التالية، وهكذا وهكذا، ساعة تلو الساعة، وإذا أنت لم يسبق لك الوقوف أمام طلاب فصل فمن الطبيعي ألا تفهم ذاك الشعور الذي أتحدث عنه.

وبعد أقل من أسبوع، وبأسرع مما كان متوقعا، بدأ الدواء يؤتي مفعوله. لم أكن أتوقع أن يكون المفعول على هذا النحو. كنت خائفاً؛ وخائفاً بالأخص من أن يظهر المفعول دون أن ألاحظ. تغير في الشخصية، وهذا كان أكبر مخاوفي، أن تتأثر شخصيتي، وأن أفقد إحساسي بنفسي، حتى ولو صرت أكثر احتمالا بالنسبة لمن هم حولي. كنت قد قرأت نشرات الأدوية، وكانت تحوي موانع مثيرة للقلق؛

Twitter: @alqareah

'الغثيان'، 'البشرة الجافة' و'قلة الشهية'، كانت أعراضًا يمكنك أن تتعايش معها، ولكنها تحدثت أيضا عن 'شعور بالخوف'، 'اضطراب التنفس' و'فقدان الذاكرة'.

قلت لـ"كلير":

- هذه أدوية قوية حقا. سأتناولها، وليس لدي أي خيار، ولكني أريدك أن تعديني أن تنبهيني إن خرجت الأمور في أي وقت عن السيطرة. إذا بدأت نسيان الأشياء أو التصرف بغرابة، سيكون عليك أن تنبهيني. وعندها سأتوقف.

ولكن ثبت لي أن مخاوفي بلا أساس. وكان ذلك ظهيرة يوم أحد، بعد حوالي خمسة أيام من ابتلاعي أول قرص دواء، وكنت مستلقيا على الأريكة في غرفة المعيشة بصحبة صحيفة السبت الضخمة على حجري. نظرت من خلال الأبواب الزجاجية المنزلقة نحو الحديقة، حيث كانت السماء قد بدأت لتوها تمطر. كانت واحدة من تلك الأيام التي تجد في سمائها سحبًا بيضاء رقيقة ورقعًا من اللون الأزرق فيما بينها، وكانت الرياح تهب بقوة.

وأود أن أخبرك أنني خلال الأشهر السابقة على حكايتنا هذه قد بدأت أشعر بالخوف من منزلي، ومن غرفة المعيشة، وجنبا إلي جنب، بل وقبل كل شيء، من وجودي في ذلك المنزل وفي غرفة المعيشة. والخوف كان مرتبطاً بشكل مباشر بوجود العديد من الأشخاص الآخرين في منازل وغرف معيشة مماثلة. وفي المساء، وبعد حلول الظلام، وعندما كان معظم الناس في منازلهم، كان هذا الخوف يتملكني بسرعة. ومن مكاني على الأريكة يمكنني أن أرى الشجيرات والأشجار، والأضواء الخارجة من النوافذ عبر الشارع. ونادرا ما رأيت أناساً حقيقيين، ولكن ضوء هذه النوافذ يشي بوجودهم. لا أود منك أن تأخذ عني انطباعاً خاطئاً، فأنا لم أكن خائفاً من الناس نفسها، من الناس كبشر. فأنا لا أفزع وسط الزحام الكثيف، كما أنني اجتماعي خلال الحفلات، ولست ذلك الانطوائي الذي لا يكلمه أحد، والذي تخبرك لغة جسده بوضوح أنه راغب في أن يبقي وحده. كلا، فالأمر يتعلق بشيء آخر. الأمر يتعلق بكون كل هؤلاء الناس ماكثين في غرف معيشتهم، في منازلهم، في عمائرهم، في أحيائهم، التي يفضي كل منها إلي الآخر، وحيث يرتبط كل ميدان بالآخر عبر مجموعة من الشوارع.

Twitter: @alqareah

هكذا تراني قابعًا فوق أريكة غرفة المعيشة في كل مساء وأفكر في الأشياء. شيء في داخلي يهمس لي بأن على التوقف عن التفكير، وأنني يجب وقبل كل شيء ألا أشطح بأفكاري. ولكن هذا لم يجد أبداً، فقد كنت دائما ما أفكر في الأمور حتى أقتلها تفكيرا. وفي هذه اللحظة بالضبط، فكرت في أن هناك أناسًا في كل مكان، قابعين على أرائك غرف المعيشة مثل هذه الأريكة. ولاحقاً سيتوجهون إلي الفراش، وسيتقلبون قليلاً، أو يتمنون لبعضهم النوم الهادئ، أو سيبقون وبعناد صامتين لأنهم تشاجروا ولا أحد منهم يرغب في الاعتراف بأنه قد كان على خطأ. وبعدها تنطفئ الأنوار. وفكرت في الزمن، ومرور الزمن، وتحديداً في الساعة، وكيف يمكن أن تكون طويلة لا تنتهي، مظلمة وفارغة. ومن يفكر بهذه الطريقة لا يحتاج للتفكير في فراغ المكان. وفكرت في كل هؤلاء البشر، في عددهم، ليس من منظور زيادة السكان فحسب، أو التلوث، أو إذا كانوا في المستقبل سيجدون ما يكفي لطعامهم أم لا، ولكن في هذا الكم فحسب. وفيما إذا كان هناك أي فارق بين أن يكونوا ثلاثة ملايين أو حتى ستة مليارات.

ما إن وصلت إلي هذه النقطة، حتى راودني إحساس بالانزعاج. ليس للأمر علاقة بعدد البشر في حد ذاته، كنت أود أن أقول هذا لنفسي، ولكن بأن هناك عددًا ضخمًا منهم. فكرت في طلابي. إنهم منشغلون بفعل شيء ما. عليهم أن يبدأوا حياتهم، عليهم خوض غمار الحياة. حتى ولو كانت الساعة الواحدة طويلة جدا. عليهم أن يعملوا وأن يتزوجوا. وسوف يرزقون بأطفال، وسيأتي يوم على هؤلاء الأطفال يجلسون فيه في دروس التاريخ في المدرسة، على الرغم من أنني لست من يدرسها لهم. يمكنك من وجهة نظر معينة ألا تري سوي وجود البشر، وليس البشر أنفسهم. وعندئذ ينتابني الذعر. لن تلاحظ على شيئاً من الخارج، إلا أن الصحيفة ما تزال على ركبتي، دون أن أقرأها.

تسألني "كلير"، وهي تدخل الغرفة ومعها كوب نبيذ أحمر في يدها:

- هل تريد بيرة؟

Twitter: @alqareah

الآن على أن أقول لها لا بأس، وبنبرة لا تلفت انتباهها. كنت أخاف من أن يبدو صوتي مثل صوت شخص استيقظ للتو؛ نهض من الفراش ولم يتحدث مع أحد حتى هذه اللحظة، أو مجرد صوت غريب، لا تميز منه أنه أنا؛ صوت مخيف.

سترفع "كلير" حاجبيها وتسألني:

- هل بك خطب ما؟

ولن أنكر هذا بالطبع، بل سأهز رأسي، ولكن ليس بقوة، حتى لا ينفضح أمري، وأقول بصوت غريب، مخيف، حاد، لم يكن هو صوتي من قبل:

- كلا، كل شيء على ما يرام. وماذا يمكن أن يحدث؟

وبعد؟ ستجلس "كلير" بجانبي على الأريكة، وتمسك بيدي، وقد تضع يدها الأخري على جبهتي، بالطريقة التي تفعلها مع طفل تريد التحقق من درجة حرارته. وهنا أدرك أن الباب صار مفتوحا للعودة إلي الوضع الطبيعي الآن. ستسأل "كلير" مرة أخري عما إذا كان هناك شيء خطأ حقا، وسأهز رأسي مرة أخري، أقل شدة هذه المرة؛ ستستمر تنظر لي بقلق في البداية، ولكنها سرعان ما ستنحي هذا القلق جانبا. فأنا أتصرف بشكل طبيعي، ولم يعد صوتي حاداً، وأرد على أسئلتها بهدوء. كلا، أنا فقط كنت مستغرقاً في أفكاري.

عن ماذا؟

لم أعد حتى أتذكر.

ماذا بك، أتدري كم مضي عليك وأنت جالس هنا والصحيفة في حجرك؟ ساعة ونصف، وربما ساعتان!

كنت أفكر في الحديقة، وأن علينا أن نبني فيها مظلة صغيرة.

"بول"..

هممم؟

لا أحد يفكر في الحديقة لمدة ساعة ونصف.

Twitter: @alqareah

كلا، بالطبع لا، أعني أني كنت أفكر في الحديقة خلال آخر خمس عشرة دقيقة تقريباً.

وفيم فكرت قبل ذلك؟

في ظهيرة ذلك الأحد، بعد أسبوع من لقائي مع أخصائي المدرسة النفسي، نظرت إلي الحديقة للمرة الأولي منذ فترة طويلة وأنا خالي البال. سمعت "كلير" في المطبخ. كانت تغني بهدوء مع أغنية في الراديو؛ أغنية لم أكن أعرفها، ولكن تتردد فيها عبارة "ورود في النهار".

قالت لي حينما دلفت إلي الغرفة بعد قليل وفي يديها قدحا القهوة:

- ما الذي يضحكك؟

- أوه.. أضحك وحسب.

- ما الذي تعنيه بأنك تضحك وحسب؟ عليك أن تشاهد نفسك، تبدو مثل واحد من هؤلاء المسيحيين المملين. كتلة كبيرة من السعادة.

نظرت إليها، فشعرت بالدفء؛ إنه شعور لذيذ، وكأنني تحت لحاف وثير.

- لقد كنت أفكر وحسب..

لكنني سكت بسرعة. فقد كنت أفكر في أن يكون لنا طفل ثان. ونحن لم نتطرق إلي هذا الموضوع خلال الأشهر القليلة الماضية. فكرت في الفرق في العمر، والذي في أفضل الأحوال سيكون قرابة الخمس سنوات. أي إما أن نفعلها الآن أو لن يتسني لنا فعلها أبدا. ومع ذلك، كان هناك صوت بداخلي يقول لي إن هذا ليس الوقت المناسب، ربما بعد أيام، ولكن ليس الآن في ظهيرة الأحد ولم يظهر مفعول الدواء بعد. قلت لها:

- لقد كنت أفكر في أن علينا أن نبني مظلة صغيرة في الحديقة الخلفية.

Twitter: @alqareah

33

وأنا أحكي لك هذه الحكاية أتذكر الآن أن ذاك الأحد قد غير كل شيء. تواري بسرعة ذلك الإحساس الجديد بأن تعيش حياة من دون أفكار تقيدك. وأصبحت الحياة أكثر ثباتا، أكثر تحفظا، مثل حفل يمكنك أن تري فيه الجميع يتحدثون ويتحركون بأجسادهم، ولكن لا يمكنك سماع ما يقوله أي شخص بعينه. لم تعد هناك منحنيات صعود أو هبوط فيها. هناك شيء ما مفقود. أنت تسمع أحياناً عن أناس فقدوا حاسة الشم والتذوق، فأطيب أطباق العالم لا تعني أي شيء لمثل هؤلاء. كانت هذه هي نظرتي إلي الحياة أحيانا؛ كوجبة ساخنة بدأت تبرد. أعرف أن على أن آكلها، وإلا سأموت، ولكنني فقدت شهيتي.

وبعد أسابيع قليلة عمدت إلي محاولة أخيرة لاستعادة نشوة ظهيرة ذاك الأحد. وكان "ميشيل" قد نام للتو، وأنا و"كلير" نجلس على الأريكة، نشاهد برنامجاً عن المدانين المحكوم عليهم بالإعدام في الولايات المتحدة. لدينا أريكة واسعة، ومع قليل من المناورة يمكنها أن تسعنا نحن الاثنين بالكاد. ولأننا كنا جالسين بجانب بعضنا، لم يكن على أن أنظر إلي عينيها.

– كنت أفكر، لو أن بمقدورنا إنجاب طفل آخر الآن. سيكون عمر "ميشيل" خمسة أعوام حين يولد الطفل.

– وأنا فكرت في الأمر نفسه مؤخراً. ولكنها ليست بالفكرة الصائبة. علينا أن نرضي بما رزقنا به.

Twitter: @alqareah

شعرت بدفء جسد زوجتي، ولو أحطت كتفيها بذراعي لقربتها مني لدقائق. فكرت في حواري مع أخصائي المدرسة.

كنت أود أن أسألها: "هل سبق لك أن أجريتِ اختبارًا للسائل الجنيني؟". كنت سأسأل بنبرة عادية دون اهتمام. ولكن من عيوب ذلك أنه لن يتسني لي رؤية عينيها عند السؤال. وهو عيب، وكذلك ميزة.

عندئذ فكرت في سعادتنا، في عائلتنا السعيدة، عائلتنا السعيدة التي ينبغي أن تكون سعيدة بما رزقت به.

- ما رأيك أن نخرج الأسبوع المقبل؟ أن نستأجر كوخاً أو ما شابه ذلك؟ ثلاثتنا فحسب؟

Twitter: @alqareah

34

تسألني عما حدث بعد ذلك، بعد ذلك مرضت "كلير". "كلير"، التي لم تمرض أبداً سوي بالزكام من حين لآخر، ولم يرقدها البرد في الفراش من قبل، انتهي بها المطاف نزيلة في المستشفي، بين ليلة وضحاها. فلم نكن مهيئين لمسألة بقائها في المستشفي، لم نجد الوقت للترتيب لذلك. كانت قد شعرت في الصباح ببعض الدوار، ولكنها خرجت، قبلتني وهي خارجة، على شفتي، ثم استقلت دراجتها. ظهيرة ذلك اليوم رأيتها مجدداً، ولكنها كانت راقدة على فراش وتخرج من ذراعها مجموعة من الأنابيب البلاستيكية وفوق رأسها شاشة تصدر صوتاً رتيباً. حاولت أن تبتسم، ولكن حتى الابتسامة كانت ترهقها. يقف جراح في الممر ويشير إلي أن أقترب. يريد أن يتحدث معي، وحدنا.

أنا بالطبع لن أخبرك عن حقيقة مرض "كلير"، ليس هنا، فأنا أعتبر أن هذه مسألة خاصة. لا شأن لأحد بأن يعرف بماهية المرض الذي حل بها، وعلي أي حال فإن الأمر متروك لها إذا أرادت أن تتحدث هي عنه، وليس لي. دعنا نقول فقط إنه لم يكن مرضاً خطيراً، على الأقل ليس في تلك المرحلة. ليس مميتاً. تلك هي الكلمة التي استعان بها الأهل والأصدقاء والمعارف والزملاء عندما كانوا يواسونني. "هل هو مميت؟". كانوا يهمسون بالسؤال، ولكني كنت أحس بذلك التعطش والفضول الذي ينتاب الناس عندما تتاح لهم فرصة الاقتراب من الموت وهم يضمنون أنهم بمنأي عنه، والبشر دوماً ما لا يفوتون مثل هذه فرصة.

Twitter: @alqareah

ما أتذكره جيداً أيضا هو تلك الرغبة التي شعرت بها في أن أرد على هذا السؤال بالإيجاب. "أجل، مميت". كنت أود أن أسمع الصمت الذي سيخيم على الطرف الآخر من الخط بعد رد من هذا القبيل.

وهكذا، ودون الخوض في تفاصيل حول مرض "كلير"، أريد فقط أن أخبرك بما قاله الجراح لي في الممر، بعد أن عرفني بأن هناك عملية جراحية. قال لي بعد أن سكت لحظات حتى أستوعب:

- كلا، ليست بالعملية السهلة. إن حياة المرء كلها تتغير في غمضة عين، ولكننا سنفعل كل ما بوسعنا.

قال لي العبارة الأخيرة بنبرة مبتهجة تقريبا؛ نبرة تتناقض وذلك التعبير على وجهه.

تسألني عما حدث بعد ذلك، بعد ذلك، انقلبت كل الأمور رأساً على عقب. أو بالأحري، كل أمر سيئ يمكن أن يحدث حدث. فبعد العملية الأولي كانت هناك ثانية، ثم ثالثة. ازداد عدد الشاشات حول سريرها، تخرج أنابيب من جسدها لتعود إليه في مواضع أخري، أنابيب وشاشات كان من المفترض أن تبقيها على قيد الحياة، ولكن تلك النبرة المبتهجة اختفت من صوت الجراح بعد ذلك اليوم الأول. بقي يقول بأنهم سيفعلون كل شيء في وسعهم، ولكن بحلول ذلك الوقت كانت "كلير" قد فقدت ما يقرب من عشرين كيلوجراما، وأصبحت عاجزة حتى عن أن ترفع ظهرها لتسنده إلي الوسائد.

كنت سعيدا أن "ميشيل" لم يرها على هذه الحال. في البداية اقترحت عليه أن نذهب معا لنراها في ساعات الزيارة، لكنه تصرف كما لو أنه لم يسمعني. وفي ذاك اليوم نفسه، اليوم الذي خرجت فيه والدته من الباب ولكنها لم تعد في المساء، كنت أركز على الجانب الاحتفالي، وعلي تميز هذا الوضع الذي نحن فيه، مثل أن تبيت في منزل أحد الأصدقاء أو في مخيم في الخلاء. خرجنا لتناول الطعام معا في مطعم ومقهي عامة الشعب، كانت وجبته المفضلة آنذاك ريش الضأن مع البطاطس المقلية، وبذلت قصاري جهدي لأشرح له ما حدث. شرحت

Twitter: @alqareah

له وأنا أتجنب المعلومة الرئيسية في نفس الوقت. حذفت أشياء، هي في الغالب مخاوفي. وبعد العشاء استأجرنا فيلماً من متجر الفيديو؛ وسمحت له بالسهر فترة أطول من المعتاد، على الرغم من أن عليه أن يذهب إلي المدرسة في اليوم التالي. لم يعد في الحضانة، بل في الصف الأول في المدرسة الابتدائية.

سألني وأنا أقبله قبل النوم:

– هل ستأتي ماما بعد قليل؟

– سأبقي الباب مواربًا. سوف أشاهد التلفزيون، وهكذا ستطمئن إلي وجودي.

لم أهاتف أي شخص في ذلك المساء الأول. وعدت "كلير" ألا أفعل. قالت لي:

– لا داعي لأن نقلق أحدًا. ربما تبين عدم وجود شيء وأن بوسعي العودة إلي المنزل خلال يومين.

رغم أني كنت ساعتها قد تحدثت مع الجراح في الممر.

– حسناً، لا داعي لأن نقلق أحدًا.

بعد ظهر اليوم التالي، بعد المدرسة، لم يسألني "ميشيل" عن والدته. بل طلب مني أن أخلع الإطارات الصغيرة من دراجته. كنت قد فعلت ذلك مرة واحدة في وقت سابق منذ بضعة أشهر، ولكن بعد ذلك، وبعد بضع محاولات مترنحة، تمكن من قيادة الدراجة حول المنتزه جوار السور من الداخل. سألته:

– هل أنت متأكد؟

كان يوماً جميلاً من شهر مايو، ومضي يقود دراجته من دون أي ترنح، حتى الناصية ومن ثم يعود من جديد. حينما مر علي، ترك المقود ورفع يديه في الهواء.

قالت لي "كلير" في ذلك المساء:

– يريدون إجراء العملية في الغد، ولكن ما هي طبيعة هذه العملية بالتحديد؟ ألم يخبروك بأي شيء؟

Twitter: @alqareah

- هل أخبرتك أن "ميشيل" قد استطاع أن يقود دراجته من دون العجلات الصغيرة اليوم؟

أغلقت "كلير" عينيها لحظات؛ كان رأسها مستنداً إلي الوسائد مستقراً فيها، وكأنه قد ازداد ثقلاً. سألتني بهدوء:

- كيف حاله؟ هل أوحشته؟

كذبت عليها:

- إنه مشتاق لزيارتك. ولكنني أرى أن علينا أن نتمهل قليلاً.

لن أخبرك باسم المستشفي حيث كانت "كلير". ولكنه قريب إلي حد ما من منزلنا، ويمكنني الذهاب إليه بالدراجة، أو بالسيارة إذا كان الطقس سيئا، ولكن في كلتا الحالتين لا يتطلب الأمر مني أكثر من عشر دقائق. وخلال ساعات الزيارة كان "ميشيل" يمكث مع الجارة، التي كانت لديها أطفال كذلك، وأحيانا كانت الجليسة تأتي، وهي فتاة عمرها خمسة عشر عاما تعيش على مقربة منا. لا أشعر برغبة في أن أخوض لك في التفاصيل حول كل ما حدث في المستشفي، ولكني أود منك فقط أن تخبر كل من يعطي قيمة مبالغًا فيها لهذه الحياة - حياتهم، أو حياة أسرهم وأحبائهم – ألا يسمحوا لأنفسهم أبداً بأن يكونوا نزلاء في ذلك المستشفي. فهذه كانت معضلتي؛ فلا شأن لأحد بأن يعرف اسم المستشفي الذي كانت فيه "كلير"، ولكن في نفس الوقت أود أن أحذر الجميع أن يتحاشوه قدر الإمكان.

سألتني "كلير" ذات ظهيرة، أعتقد أنها كانت بعد العملية الثانية أو الثالثة:

- كيف تتأقلم مع الوضع؟ هل تحتاج أية مساعدة؟

عند كلمة "مساعدة"، بدأت عضلة أو عصب يجفل تحت عيني اليسري. لا، لم أكن أريد أي مساعدة، إنني أتولي الأمور جيداً جداً بنفسي، أو ربما ينبغي أن أقول: إنني أدهشت نفسي، قبل غيري، بقدرتي على تسيير الأمور. فقد كان "ميشيل" يذهب إلي المدرسة في الوقت المحدد، بعدما يكون قد غسل أسنانه وارتدي ملابسه النظيفة، نظيفة حسب رأيي، فقد كنت أقل حزماً بشأن تلك

Twitter: @alqareah

البقع التي يتسخ بها سرواله مقارنة بـ"كلير"، ولكنني في الأول والأخير والده. لم أحاول أبدا أن أكون "الأب والأم" معاً، بالطريقة التي شاهدت بها أحد البلهاء وهو يتحدث عبر برنامج تلفزيوني عن تجربته. كنت مشغولاً، ولكني كنت راضياً. وآخر شيء أحتاجه هو الناس، سواء صدقت نيتهم أم ساءت، ولو خففوا عني أعباء العمل؛ فقد كنت ممتناً لأن وقتي قد صار ثميناً وله معني.

أحيانا كنت أجلس في المطبخ مع البيرة في المساء، بعدما وضعت "ميشيل" في فراشه، كانت غسالة الصحون منهمكة في عملها، والجريدة في مكانها أمامي دون أن أتصفحها، وبغتة راودني إحساس بالخفة. لا أعرف كيف أصف لك هذا الشعور: ولكنها الخفة، الخفة الشديدة؛ حتى تخيلت أنه لو كان أحد معي الآن ونفخ في نفخة لكنت قد طرت في الهواء بلا شك، وكأنني ريشة من وسادة. نعم، كان هذا حالي؛ انعدام الوزن، وأنا أتعمد عدم استخدام كلمات مثل السعادة، أو حتى الارتياح. في بعض الأحيان كنت أسمع آباء رفاق "ميشيل" وهم يتنهدون متحسرين حول أنهم يكونون، وبعد يوم حافل، بحاجة حقا "للحظة يختلون فيها بأنفسهم". فالأطفال في فراشهم، وعندئذ تأتي اللحظة السحرية، عندئذ فحسب.

لقد اعتقدت دائما أن هذا أمر غريب، لأن تلك اللحظة واتتني قبل ذلك بكثير. عندما يعود "ميشيل" من المدرسة مثلاً، ويكون كل شيء على ما ينبغي أن يكون. وأسمع صوتي وأنا أسأله عما يريدني أن أضعه في الشطيرة، فأجده الصوت الذي ينبغي أن يكون. كانت الثلاجة ممتلئة، فقد اشتريت البقالة في صباح ذلك اليوم. وأعتني بنفسي كذلك، وأنظر في المرآة قبل مغادرة المنزل، وأحرص على أن تكون ملابسي نظيفة، وأنني حليق الذقن، وشعري ليس أبداً بشعر رجل لم ينظر في المرآة، ولن يلاحظ الناس في السوبر ماركت أي شيء غير عادي، فلست ذاك الأب المطلق الذي تفوح منه رائحة الكحول، ولا ذاك الأب الذي لا يستطيع التعامل مع الأشياء. وإنني لأتذكر بوضوح الهدف الذي وضعته لنفسي، كنت أرغب في الحفاظ على المظهر الطبيعي. فلابد، وإلى أقصى حد ممكن، أن يبقي كل شيء كما هو في نظر "ميشيل" طيلة غياب والدته. وجبة ساخنة كل يوم. يتحتم ألا يكون هناك عدد كبير من التغييرات الظاهرة.

Twitter: @alqareah

ليس من عادتي أن أحلق ذقني كل يوم، فأنا لا أمانع أن أخرج وذقني "منبتة". و"كلير" لا تعترض على ذلك كثيراً، ولكنني كنت خلال تلك الأسابيع أحلق ذقني كل صباح. شعرت أن لابني الحق في الجلوس إلى المائدة بصحبة أب نظيف، رائحته حلوة، وحليق الذقن. فمن شأن هذا الأب أن يبث الطمأنينة في نفسه، فلا يبدأ في القلق والشك في الطابع المؤقت لعائلتنا ذات العائل الوحيد.

كلا، من ينظر إلينا من الخارج لا يلاحظ أي تغيير. بقيت عموداً من ضمن ثلاثة أعمدة، فهناك عمود آخر يرقد مؤقتا فحسب (مؤقتا! مؤقتا! مؤقتا!) في المستشفي، وكنت أنا قائد طائرة ذات ثلاثة محركات، توقف واحد من محركاتها. لا يوجد سبب للذعر، فهذا ليس بهبوط كارثي، فالطيار خبير وطار من قبل آلافًا من ساعات الطيران، وسوف تهبط الطائرة بسلام على الأرض.

Twitter: @alqareah

35

ذات ليلة، حضر "سيرجي" و"بابيت". كانت "كلير" ستخضع لعملية أخري في اليوم التالي. أتذكر ذلك جيدا، ففي ذلك المساء كنت قد طهوت المكرونة، "ماكاروني ألا كاربونارا"، وحتى أكون صادقاً معك فقد كان الطبق الوحيد الذي أتقنه تمام الإتقان. وهو، بالإضافة إلي الريش التي يطهوها المطعم والمقهي الشعبي، كان الطبق المفضل "لميشيل"، ولهذا كنت أقوم بإعداده في كل يوم خلال الأسابيع التي كانت "كلير" فيها في المستشفي.

كنت على وشك وضع الطعام على المائدة عندما رن الجرس. لم يستأذن "سيرجي" و"بابيت" قبل الحضور؛ فوجدتهما في غرفة المعيشة من دون أن أنتبه. ولاحظت كيف أن "بابيت" تتأمل جميع أنحاء الغرفة، ثم في البيت كله. خلال تلك الأسابيع لم نكن نأكل في المطبخ، كما اعتدنا أن نفعل؛ فوضعت صينية في غرفة المعيشة، أمام التلفزيون. نظرت "بابيت" إلي الصينية وإلي الأدراج والسكاكين، ثم إلي التلفزيون الذي كان على وشك أن يعرض الأخبار الرياضية الأسبوعية. ثم حدقت في وجهي، بنظرة خاصة، ولا أجد وصفاً آخر أصف به هذه النظرة.

مازلت أذكر أن تلك النظرة جعلتني أشعر أنني مضطر إلي الشرح والتوضيح. قلت شيئا عن الجانب الاحتفالي للوجبات، والذي نحتفي بها سوياً؛ فهناك مناسبات أخرج خلالها عن الإطار الطبيعي للأمور، فلا يتحتم أن يكون المنزل نسخة كربونية من الطريقة التي كانت "كلير" تديره بها، طالما لا توجد

Twitter: @alqareah

آثار واضحة لتدهور. وأعتقد أنني وأنا أشرح هذا لـ"بابيت" استخدمت عبارة "منزل ذكوري"، وحتى "إحساس بالعطلة".

كان هذا غباء شديدًا؛ جعلني أوبخ نفسي توبيخاً شديداً. أنا لا أدين لأحد بأي تفسير. ولكن بحلول ذلك الوقت كانت "بابيت" قد قفزت الدرج وتقف عند مدخل غرفة "ميشيل". كان "ميشيل" يجلس على الأرض وسط ألعابه، كان يرص مئات من قطع الدومينو، في محاكاة لليوم العالمي للدومينو، ولكنه عندما رأي عمته قفز واقفاً ومن ثم إلي ذراعيها المدودتين.

حماس مبالغ فيه، لو سألتني. كان مولعا جدا بعمته، وهذا حقيقي، ولكن الطريقة التي يلف بها ذراعيه حول فخذيها، ولدت عندي انطباعًا أنه لا يزال يفتقد إلي وجود امرأة في المنزل؛ أم. مررت "بابيت" أصابعها خلال خصلات شعره. وفي الوقت نفسه كانت تتطلع في جميع أنحاء الغرفة، وكنت أتطلع معها.

لم تكن أرضية الغرفة ممتلئة بالكامل بقطع الدومينو. وكانت هناك ألعاب في كل مكان، وأخري متدلية في جميع أنحاء الغرفة، ولعل هذا لم يترك أي موضع لقدم في الغرفة. ولو وصفت غرفة "ميشيل" بأنها الفوضي بعينها لكنت مجاملاً، وأنا رأيت ذلك بنفسي، والآن أنظر إليها بعيني "بابيت". ولم يكن الأمر ينحصر في هذا الكم الضخم من اللعب المتناثرة. فقد كان المقعدان والأريكة وفراش "ميشيل" جميعها مغطاة بالملابس، النظيفة والمتسخة، وعلي مكتبه الصغير وعلي مقعده جوار فراشه غير المرتب كانت هناك أطباق بها بقايا طعام وأكواب نصف ممتلئة بالحليب والكولا.

والأسوأ من ذلك كله، ربما، كانت بقية التفاح التي لم تكن في طبق، بل مستقرة فوق تي شيرت "أياكس" الذي يحمل اسم النجم "كلويفرت". وكان قلب التفاحة، مثل أي قلب تفاحة تعرض لأكثر من بضع دقائق لأشعة الشمس وللهواء، بنيًّا داكن اللون. تذكرت أنني قدمت لـ"ميشيل" تفاحة وكوبًا من الكولا بعد ظهر ذلك اليوم، ولكنك لا يمكن أن تقول بأنه لم يمض عليها سوي ساعات، بل بدت التفاحة وكأنها فوق التي شيرت منذ عدة أيام؛ متعفنة تماماً.

Twitter: @alqareah

كما أتذكر أيضا أنني قد قلت لـ"ميشيل" في صباح ذلك اليوم إننا سننظف الغرفة معا. ولكن ـ ولأسباب عدة، أو بالأحري بسبب اطمئنانا إلي وجود متسع من الوقت للتنظيف ـ هذا لم يحدث.

بينما وقفت هي هناك، وهي ما زالت تحمل ابني وتربت على ظهره بمودة، نظرت إلي عيني "بابيت"، ومرة أخري رأيت تلك النظرة الخاصة. سوف أنظفها! شعرت كأني سأصرخ في وجهها. ولو عدتِ في الغد، لوجدتِ الغرفة نظيفة كما تحبين. ولكنني لم أفعل، واكتفيت بالنظر إليها وهز كتفي. كان كتفاي يقولان: إنها قليل من الفوضي، ولكن من يهتم؟ هناك أشياء أكثر أهمية في هذه اللحظات من كون الغرفة فوضوية أو مرتبة.

مرة أخري، الحاجة إلي شرح! لم أكن أريد أن أشرح، ولم تكن هناك حاجة إلي أي تفسيرات. هما من حضرا دون استئذان. قلت لنفسي، لأقلب الآية وأتخيل لو أنني أنا من حضر فجأة إلي منزل أخي وزوجة أخي، بينما كانت "بابيت" منشغلة بحلاقة شعر ساقيها، مثلا، أو بينما كان "سيرجي" يقلم أظافر قدميه. وعندئذ كنت بدوري سأشهد على أشياء خصوصية بالضرورة، عادة لا تعرض أمام عيون الغرباء. ما كان لا ينبغي لي السماح لهما بالدخول. كان ينبغي على تعريفهما بأن الوقت غير مناسب.

في الطريق إلي الطابق السفلي، وبعدما وعدت "بابيت" "ميشيل" أنها سوف تعود إليه، عندما ينتهي من رص الدومينو، لتشاهد تساقط أحجار الدومينو، وبعد أن كنت قد أعلنت أن العشاء جاهز تقريبا، وأننا سنتناول الطعام في غضون دقيقة واحدة، مررنا على الحمام وغرفة النوم، غرفة نومي أنا و"كلير". رمقتهما "بابيت" بسرعة، حاولت بالكاد إخفاء تلك النظرات، لا سيما إلي سلة الغسيل التي تفيض بالملابس وإلي السرير غير المترب الذي تتناثر فوقه الصحف. ولكنها هذه المرة لم تنظر إلي، وربما كان هذا أشد إيلاما، أكثر إذلالا، من تلك النظرة الخاصة. ولقد كنت واضحا جدا في أن أعرف "ميشيل"، وفقط "ميشيل"، أننا سنتناول الطعام خلال لحظات، فكنت أرغب في إرسال إشارة لا

Twitter: @alqareah

لبس فيها أن أخي وزوجته غير مدعوين لتناول الطعام معنا، وأنهما أساءا اختيار توقيت الزيارة، وأن هذا أوان مغادرتهما المنزل.

في الطابق السفلي، في غرفة المعيشة، كان "سيرجي" يقف أمام التلفزيون ويداه في جيبيه، وكانت أخبار الرياضة الأسبوعية قد بدأت بالفعل. أما أنا فأدركت أن خططي لهذا المساء قد فسدت – ليس بسبب تلك الطريقة الوقحة التي يقف بها أخي ويداه في جيبيه، وقدماه ثابتتان على السجادة، كما لو كانت غرفة معيشته وليست غرفتي، وليس بسبب نظرات زوجة أخي الخاصة إلي غرفة "ميشيل"، وإلي غرفتنا، وإلي سلة الغسيل، ولكن بسبب تلك اللقطات في الأخبار الرياضية، التي تعرض لمجموعة من لاعبي كرة القدم يركضون حول الملعب المشمس؛ انهارت تماما الخطة. أمسيتي بصحبة "ميشيل" أمام التلفزيون، مع طبقين من "الماكاروني ألا كاربونارا"؛ أمسية عادية، من دون والدته بالطبع، من دون زوجتي، ولكنها أمسية احتفالية على كل حال.

اقتربت "بابيت" من أخي ووضعت يدها على كتفه:

- "سيرجي"..

التفت "سيرجي" ونظر إلي، من دون أن يخرج يديه من جيبيه:

- "بول"..

ولكنه سكت بغتة، وهو ينظر بحيرة إلي زوجته.

تنهدت "بابيت" بعمق. ثم أخذت يدي بين أصابعها الجميلة، الطويلة الأنيقة. لم تعد هناك تلك النظرة الخاصة في عينيها. بل صارت نظراتها ودودة، ولكنها حازمة، كما لو أنني لم أعد السبب في تلك الفوضي العارمة التي تضرب أرجاء المنزل، بل تحولت أنا نفسي إلي سلة غسيل ممتلئة أو سرير غير مرتب؛ سلة غسيل ستفرغني في طرفة عين داخل غسالة، وفراش سترتبه في ثوان، ليكون على أفضل ما يرام. كأي فراش في فندق، أو في جناح ملكي.

Twitter: @alqareah

- "بول"، نحن نعلم مدي صعوبة هذا بالنسبة لك أنت و"ميشيل" مع وجود "كلير" في المستشفي. وبالطبع فنحن جميعا نأمل للأفضل، ولكن في هذه المرحلة لا أحد منا يعلم كم من الوقت قد يستغرق هذا الحال. وهذا هو سبب تفكيرنا في أن من الأفضل، لك ولـ"ميشيل"، أن نأخذ "ميشيل" ليمكث معنا لفترة من الوقت.

شعرت بشيء ما، حالة من الغضب العارم تعتريني كموجة من الحديد المنصهر، ومعها في الآن نفسه موجة ذعر باردة كالجليد. ومهما كانت تلك الحالة، فلابد أنها قد بدت على وجهي، لأن "بابيت" ضغطت على يدي بلطف وقالت:

- هون عليك، "بول". نحن هنا لنساعدك.

بادر "سيرجي" فقال:

- هذا صحيح

تقدم خطوة للأمام، وخيل لي للحظة أنه سيمد يده ليمسك بذراعي الأخري، أو يضع يده على كتفي، ولكنه تراجع عن هذا.

علقت "بابيت" مبتسمة، وهي تمر بإصبعها على ظهر يدي:

- إن عقلك منشغل بما فيه الكفاية بـ"كلير"، ولو أن "ميشيل" أتي معنا لفترة، سوف ترتاح أعصابك. كما أنه تغيير لـ"ميشيل" أيضاً. إنه يتكيف مع الوضع بشجاعة، وهو كطفل يدرك كل شيء، غير أن الأطفال قد لا يصرحون بما يشعرون به.

أخذت أتنفس بقوة، وأدركت أن أهم شيء الآن ألا يخرج صوتي ضعيفاً مرتعشاً.

- كم أود أن أدعوكما إلي تناول الطعام معنا، ولكنني لم أكن أتوقع مجيء ضيوف.

توقفت حركة إصبع "بابيت" على ظهر يدي، وإن بقيت الابتسامة على وجهها، ولكن التيار العاطفي انقطع عن هذه الابتسامة، هذا إن كانت مرتبطة بأي عاطفة من الأصل.

Twitter: @alqareah

- "بول"، نحن لم نأت لنأكل معك، بل فكرنا، خاصة وأن "كلير" ستخضع لعملية جراحية غدا، أنه سيكون من الأفضل بالنسبة إلي "ميشيل" أن يرافقنا هذه الليلة..

- لقد كنت على وشك الجلوس لتناول العشاء مع ابني. وزيارتكم جاءت في وقت غير مناسب. لذا أود منكما مغادرة المنزل الآن.

- "بول"..

كانت تضغط على يدي، وقد اختفت الابتسامة الآن، وحل محلها تعبير أكثر تسلية؛ تعبير لا يناسبها على الإطلاق.

تدخل أخي:

- "بول"، إنني متأكد من أنك تدرك أن هذا ليس الجو الأمثل لطفل في الرابعة من عمره.

سحبت يدي من قبضة "بابيت"، وسألته:

- ما الذي قلت؟

لم يكن صوتي مرتعشاً، بل كان هادئاً.. ربما شديد الهدوء.

- "بول"!

صارت "بابيت" منزعجة، ربما رأت شيئا لم أره. ربما رأت أن بوسعي الإقدام على فعل يؤذي "سيرجي"، ولكنني لم أكن لأمنحه هذه الراحة. صحيح أن موجة الذعر الباردة قد تبددت وأفسحت المجال لغضب ناري، ولكن القبضة التي أود أن ألكم بها هذا الوجه النبيل، المليء بالقلق على وعلي ابني، كانت ستصبح دليلًا حاسما على أنني لم أعد قادراً على السيطرة على مشاعري. والشخص الذي لا يستطيع السيطرة على انفعالاته ليس مؤهلاً لأن يكون مسئولاً وحده عن أسرة. وهكذا سمعت اسمي يتكرر في آخر دقيقة أكثر من

Twitter: @alqareah

خمس مرات. وعلمتني التجربة أن من يصر على تكرار اسمك بإلحاح فإنه يريد شيئا منك، وعادة ما يكون شيئاً لا ترغب في منحهم إياه.

- "سيرجي" يحاول فقط أن ينبهك إلي أن هذا حمل ثقيل عليك، "بول".

ست مرات.

- ونحن، من بين جميع الناس، نعرف أنك تبذل كل ما في وسعك لجعل الأمور تبدو طبيعية قدر الإمكان بالنسبة لـ"ميشيل"، ولكنها ليست طبيعية. الوضع ليس طبيعيا. عليك أن تكون مع "كلير"، ومع ابنك. وفي مثل هذا الوضع، لا يمكن أن تتوقع من أي شخص أن يدير شئون المنزل بصورة عادية.

كانت قد رفعت ذراعها، ويداها وأصابعها تشير نحو الطابق العلوي. نحو اللعب المتناثرة، وسلة الغسيل والسرير الذي تغطيه الصحف.

- والآن، صار "ميشيل" ينظر إلي والده على أنه أهم ما لديه. فوالدته مريضة. ومن الأفضل ألا يتولد لديه انطباع أن والده عاجز عن التعامل مع الوضع.

أردت أن أقول لهما إنني كنت على وشك البدء في تنظيف المنزل. ولو أنكما قد حضرتما متأخرين ساعة.. ولكنني سكت. لن أتخذ أمامهما موقفاً دفاعياً. فأنا و"ميشيل" لنا كل الحرية في تنظيف منزلنا وقتما يحلو لنا. قلت لهما:

- أريد منكما أن ترحلا الآن. سوف أتناول طعامي مع "ميشيل". ولقد تأخرنا عن ذلك ربع ساعة الآن، وأنا أهتم كثيراً بدقة المواعيد في موقف مثل هذا.

تنهدت "بابيت"، وللحظة خيل لي أنها ستناديني "بول" ثانيةً، ولكنها نظرت إلي ثم إلي "سيرجي"، ثم عادت تنظر إلي. ومن التلفزيون جاءت موسيقي تتر النهاية المميز للأخبار الرياضية الأسبوعية، فاغتمرني فجأة حزن عميق. لقد حضر أخي وزوجة أخي في أسوأ توقيت، ليدسا أنفيهما في الطريقة التي أدير بها بيتي، ولكن الآن حدث شيء لا يمكن تغييره بدا لي هراء، بل هو هراء، ولكن إدراكي أنني وابني لن نتفرج على الأخبار الرياضية هذا المساء جعل الدموع تملأ عينيّ.

Twitter: @alqareah

فكرت في "كلير" في غرفتها في المستشفي. كانت في الأيام القليلة الماضية، والحمد للرب، قد حظيت بغرفة وحدها، وقبل ذلك كانت قد شاركت غرفة مع بقرة عجوز بلهاء تخرج ريحًا مع صوت هادر هائل. وخلال ساعات الزيارة كنا نبذل قصاري جهدنا للتظاهر بعدم سماع صوت خروج ريحها، ولكن بعد بضعة أيام كانت "كلير" قد سئمت؛ ففي كل مرة تخرج فيها تلك المرأة ريحًا كانت تبادر بالرش من بخاخة مزيل العرق خاصتها في الفراغ من حولها. موقف مضحك مبكٍ. ولكنني بعد الزيارة في ذلك اليوم توجهت إلي رئيسة الممرضات وأنا مصر على أن تنتقل "كلير" إلي غرفة خاصة بها. كانت الغرفة الجديدة تطل على جناح جانبي من المستشفي، وعندما يحل الظلام وتنار الأضواء يمكنك أن تري المرضي في هذا الجناح وهم في أسرتهم، يعتدلون ويستندون إلي وسائدهم قبل البدء في تناول وجبة المساء. كنا قد اتفقنا في تلك الليلة، الليلة السابقة على العملية، على أنني لن آتي لزيارتها، ولكن سوف أبقي في المنزل مع "ميشيل". كل شيء طبيعي قدر الإمكان. ولكنني الآن أفكر في "كلير"، في زوجتي وهي وحدها في غرفتها، في الظلام الذي يحل ومنظر النوافذ المضاءة والمرضي الآخرين، وأتساءل عما إذا كنا قد فعلنا الشيء الصحيح، ربما كان على أن أستدعي جليسة الأطفال حتى يتسني لي في هذا المساء، وفي كل مساء، أن أكون مع زوجتي.

أصررت على أن أتصل بها في أسرع وقت، لاحقاً. بعد أن يكون "سيرجي" و"بابيت" قد انصرفا، ونام "ميشيل". هذا هو الوقت المناسب لهما ليذهبا، حتى أتمكن أنا و"ميشيل" من تناول العشاء معا، ونجلس معاً في هذا المساء، الذي فسدت أجواؤه تماما الآن على أية حال.

ثم، فجأة، خطرت لي فكرة جديدة، كابوسية، من النوع الذي تستيقظ فيه وأنت تتصبب عرقاً، لتجد اللحاف ملقي على الأرض، والوسادة غارقة في عرقك، وقلبك ينبض بقوة، ولكنك تجد ضوءاً يتسلل من خلال نافذة غرفة النوم، فتدرك أنه قد كان مجرد حلم.

سألتهما:

Twitter: @alqareah

- هل قمتما اليوم بزيارة "كلير"؟

تحليت بنبرة ودودة مبتهجة؛ فقد كنت مصراً على ألا يتبينا حقيقة نفسيتي.

نظر "سيرجي" و"بابيت" إلي؛ أخبرتني تعبيرات وجهيهما أن سؤالي قد باغتهما. ولكن هذا لا يعني أي شيء، فربما فوجئا بهذا الانقلاب المزاجي المفاجئ، فقد كنت وقبل لحظات قليلة أطلب منهما أن يغادرا المنزل.

قالت "بابيت" وهي تنظر إلي أخي طلباً لدعمه:

- كلا.. أقصد.. لقد هاتفتها هذه الظهيرة.

إذن فقد حدث هذا حقا. ما لا يمكن تصوره حدث فعلا. لم يكن حلما. إذن كانت فكرة إبعاد "ميشيل" عن هنا فكرة زوجتي. تحدثت إلي "بابيت" بعد ظهر اليوم، وولدت الفكرة في ذلك الحين. ربما لم تكن فكرة "كلير" نفسها، ربما تطوعت "بابيت" بها، ولكن "كلير"، المنهكة بسبب مرضها، وافقتها فقط حتى تتجنب مجادلتها، ومن دون أن تتحدث معي أولا.

في هذه الحالة أكون أسوأ مما تصورت. فإذا كانت زوجتي تظن أن من الجيد أن تقوم هي باتخاذ قرارات مهمة بشأن ابننا من دون أن تأخذ رأيي، فلربما كنت أنا من أعطاها سبباً وجيهاً للتفكير بهذه الطريقة.

تمنيت لو أنني رتبت غرفة "ميشيل". تمنيت لو أنني أفرغت سلة الغسيل، وأدرت الغسالة وقت أن رن "سيرجي" و"بابيت" الجرس، وتمنيت لو أنني جمعت الصحف من على السرير ووضعتها في أكياس بلاستيك، وأن أضع تلك الأكياس البلاستيكية جوار الباب الأمامي، وكأنني كنت أهم بأخذها إلي سلة القمامة.

ولكن فات الأوان. وأدركت أن الأوان قد فات مهما فعلت، وأن "سيرجي" و"بابيت" قد حضرا لتنفيذ أمر متفق عليه من قبل؛ حتى ولو وجداني أنا و"ميشيل" جالسين إلي المائدة ونحن نرتدي بدلة كاملة، وقد فرشنا المائدة بالمفرش الدمشقي ورصصنا عليها الفضيات، فحتماً كانا سيجدان عذراً آخر لأخذ ابني بعيدا عني.

Twitter: @alqareah

وهل تحدث أي منكما إلي "ميشيل" هذه الظهيرة؟ لم أطرح عليهما هذا السؤال، بل تركته هكذا معلقاً في الهواء. وانتهزت "بابيت" فرصة سكوتي:

– لماذا لا تصطحب "ميشيل" معك إلي المستشفي؟

– ماذا؟

– لماذا لا تصطحب "ميشيل" معك إلي المستشفي؟ كم مضي علي "كلير" وهي هناك؟ هذا ليس طبيعيًّا، أن تجد ابناً لا يرغب في رؤية والدته.

– لقد تحدثت مع "كلير" في هذا الأمر. هي لم ترغب في أن تراه هناك. لم تكن تريد لـ"ميشيل" أن يراها في هذه الحالة.

– كان هذا في البداية. ولكن فيما بعد. فيما بعد لابد أن يأتي وقت يلزم فيه ذلك، أليس كذلك؟ ما أود قوله هو أن "كلير" لم تعد تفهم ما يجري. فهي تظن أن ابنها قد نسيها.

– لا تكوني سخيفة، "ميشيل" بالطبع لم ينس والدته. هو..

كنت سأقول إنه يتحدث عنها باستمرار، ولكن هذا لم يكن صحيحاً.

– هو لا يرغب في رؤيتها هناك. لا يريد الذهاب إلي المستشفي. أسأله كثيراً: "هلا ذهبنا في الغد إلي المستشفي لنزور ماما؟". وعندئذ ينظر إلي في شك ويقول لي: "ربما..."، وحينما أسأله مجدداً في اليوم التالي أجده يهز رأسه ويقول: "ربما في الغد". أعني أنني لا يمكن أن أجبره، هل يمكنني ذلك؟ كلا، هذا ليس الصواب؛ أنا لا أريد أن أجبره على شيء. ليس في هذا الوضع. أنا لن أجره جراً إلي المستشفي رغما عنه. يبدو لي أن هذا سيخلف لديه ذكري سيئة. وأنا متأكد من أن لديه أسبابه. إنه في الرابعة من عمره، وربما يعلم بنفسه أفضل وسيلة للتعامل مع موقف كهذا. وإن كانت الطريقة هي أن يكبت حقيقة أن والدته في المستشفي، في هذه اللحظة، فليكن. هذا ما أتصوره. وإنها تبدو لي طريقة أكبر من سنه. فالناضجون هم من يقدرون على كبت كل شيء.

Twitter: @alqareah

أخذت "بابيت" تتشمم الهواء وهي ترفع حاجبيها في دهشة.

- هل هذه هي..؟

وفي تلك اللحظة شممت أنا أيضاً الرائحة. وهرعت إلي المطبخ، لأجده متشبعاً بالدخان الذي امتد عبر الطرقات.

- سحقاً!

أغلقت الموقد أسفل "الماكاروني" وفتحت الباب المفضي إلي الحديقة. وجدتني أكاد أبكي.

- سحقاً! سحقاً!

أخذت أطرد الدخان بيدي ولكنه بدا جاثماً على المطبخ ولن يتحرك.

حدقت في الإناء بعينين دامعتين. التقطت الملعقة الخشبية من على الكاونتر وحاولت تقليب هذه الكتلة الصلبة السوداء أمامي.

- "بول"..

كانا واقفين عند الباب؛ "سيرجي" ومن ورائه "بابيت".

صرخت فيهما:

- انظرا إلي هذا. هلا نظرتما إلي هذا!

ألقيت بالملعقة الخشبية على الكاونتر بقوة. كنت أغالب دموعي، ولكنني عجزت.

دخل أخي المطبخ الآن، وجدت يده تمتد إلي، فانتحيت جانباً:

- "بول".. الأمر ظاهر أمامك بوضوح. أولاً عملك، والآن "كلير". لا سبب لديك يمنعك من الإقرار بذلك لنفسك.

أتذكر وأنا أحكي لك هذا أنني سمعت صوت هسيس حينما أمسكت بمقابض الإناء الملتهبة، وأصابعي تحترق. لم أشعر بألم، ليس في تلك اللحظات على الأقل.

Twitter: @alqareah

صرخت "بابيت". وحاول "سيرجي" أن يتفاداه، ولكن الحافة السفلية للإناء أصابت وجهه بكل دقة. ترنح للخلف، وحينما ضربته الضربة الثانية، سقط على "بابيت". سمعت صوت شيء ما يتهشم، وتدفق الدم. أصاب الدم القيشاني الأبيض على جدار المطبخ، والبرطمانات الصغيرة في رف البهارات جوار الموقد.

- بابا.

كان "سيرجي" مسجي على الأرض، والدم يتدفق من أنفه وفمه. أما أنا فكنت أهم بأن أهوي بالإناء فوق وجهه الذي استحال كتلة من لحم ودم.

وجدت "ميشيل" واقفاً عند باب المطبخ، ولم يكن ينظر إلي عمه الممدد على الأرض، بل إلي.

- "ميشيل".. "ميشيل"!

حاولت أن أبتسم وأنا ألقي بالإناء على الأرض.

Twitter: @alqareah

36

قال لنا مدير المطعم:

– هذا التوت الأسود من حديقتنا. أما "البارفيه" فمصنوع من شوكولاته بيتي، وهذا لوز مقشر ممزوج بالجوز المبشور.

يشير بإصبعه الصغير إلي بعض الكتل المبهمة في صلصة بنية اللون، صلصة بدت لي خفيفة جداً – أخف من أن تكون "بارفيه" – وهي تتسرب من بين حبات التوت إلي قاع الوعاء.

رأيت "بابيت" تنظر إلي الوعاء بخيبة أمل سرعان ما تبددت خلال شرح المدير ليحل محلها اشمئزاز محض.

قالت حينما سكت:

– لا أرغب في هذا.

– معذرة؟

– قلت لك لا أريد هذا. أعده رجاءً.

Twitter: @alqareah

اعتقدت للحظة أنها ستدفع الوعاء بعيدا، ولكنها تراجعت بجسدها للوراء في مقعدها، وكأنما تريد أن تكون على أبعد مسافة بينها وبين طبق الحلو.

- ولكن هذا هو ما طلبتِه.

لأول مرة منذ أن وضع المدير أطباق الحلو أمامنا، وجدتها ترفع رأسها إليه وتقول:

- أعلم أن هذا هو ما طلبته ولكنني لم أعد أريده. وأريد منك أن ترفعه من أمامي.

بدأ "سيرجي" يتململ، كان يضغط بطرف منديله على ركن شفتيه ويمسح شيئاً ما غير موجود، وفي الوقت نفسه، كان يحاول أن يلفت انتباه زوجته. وكان "سيرجي" بدوره قد اختار طبق "دام بلانشيه". ربما أحرجه سلوك "بابيت"؛ وربما لم يعد يطيق تأخيراً آخر. كان عليه أن يأكل الحلو الآن. ودائماً ما يختار أخي طبق حلو عادي من القائمة؛ آيس كريم الفانيليا مع القشدة، كريب محلي، وحسب. وكنت أعتقد أحيانا أن للأمر علاقة بمستوي السكر في دمه، نفس مستوي السكر الذي يجعله حائراً عصبياً خلال الأوقات غير المواتية. ولكن كان للأمر علاقة أيضا بافتقاره للخيال؛ وبقدر ما أرى فإن اختياره "لدام بلانشيه" يشبه اختياره "للتورنيدوس". بل أصارحك أنني تعجبت من وجود طبق حلو صريح جداً كهذا الطبق في مكان مثل هذا المكان.

- ولكن هذه هي أطيب ثمار التوت على الإطلاق.

قلت، من دون أن أفتح فمي:

- تباً، يا رجل، خذ طبقك واغرب عن وجوهنا به!

وكان ذلك شيئًا آخر. ففي أي مكان عادي - أو ينبغي أن أقول في أي مطعم محترم في أي مكان في أوروبا، باستثناء هولندا – لا يحاول النادل والمديرون أن يجادلوك، فهم يرفعون شعار: "طالما أن الزبون غير راض فعليك العودة إلي المطبخ!". وبطبيعة الحال يكون هناك زبائن يصعب إرضاؤهم في أي مكان، حثالة مدللون يريدون وصفا مفصلاً لكل طبق في القائمة، ولا يضايقهم أن يعرفوا تفاصيل التفاصيل. يسألونك بهدوء: "ما الفرق بين "التالياتيلي" و"السباجيتي"؟".

Twitter: @alqareah

وعندئذ يكون للنادل، مع أمثال هؤلاء، كل الحق في أن يهوي بقبضته على أفواههم الفضولية المدللة، ليحطم جميع أسنانهم الأمامية. وعليهم أن يغيروا القوانين، بحيث تعتبر هذه الفعلة من أفراد المطعم دفاعاً عن النفس. ولكنني أعرف أن الأمر في المعتاد على خلاف ذلك. حيث يخشي الناس أن يسألوا عن أي شيء. ويعتذرون ألف مرة، حتى لو كانوا يطلبون ملحاً. ويضطرون إلي تناول فاصوليا خضراء استحال لونها بنياً داكناً وطعمها أقرب إلي طعم العرق سوس، ولحم مطهو صار أشبه بكتل من المطاط، وشطيرة جبن خبزها مقدد وتظهر بقع خضراء على الجبن. فتجد الهولندي يطحنها بين أسنانه ويبتلعها دون أن يتفوه بحرف. وعندما يأتي النادل ويسأل عما إذا كان يتمتع بوجبته، فإنه يسارع بالإيماء برأسه معجباً، بينما يتحرك لسانه على بقايا الطعام التي علقت بين أسنانه.

كنا قد عدنا إلي مقاعدنا وبنفس الترتيب؛ "بابيت" إلي يساري، قبالة "سيرجي"، و"كلير" قبالتي. فكنت أنظر إليها كلما رفعت وجهي بعيدا عن طبقي. وكانت "كلير" تبادلني النظرات وهي تحرك حاجبيها.

قال "سيرجي" وهو يربت على معدته ويبتسم للمدير ثم لزوجته:

- أوه، لا مشكلة. بوسعي أن أتناول طبق التوت الأسود هذا أيضاً.

خيمت ثانية كاملة من الصمت. ثانية كنت أحدق خلالها في صحني؛ ففي مثل هذه اللحظة يكون من الحكمة ألا أنظر إلي أحد، وهكذا كنت أنظر في صحني إلي ثلاث قطع من الجبن، بالضبط، كانت لا تزال ترقد في مكانها لم تمس. كان خنصر المدير قد حام فوق القطع الثلاث، وسمعته وهو يسمي كل قطعة منها باسم ولم أحفل بتذكر تلك الأسماء. كان حجم الصحن لا يزيد عن نصف حجم تلك الصحون التي تقدم فيها المقبلات والأطباق الرئيسية، ولكن أكثر ما شدني فيه هو هذا الكم من الفراغ. لقد رصوا القطع الثلاثة بحيث تشير إلي بعضها، ربما لكي يخيل للعين أن أحجامها أكبر مما هي عليه في الحقيقة.

Twitter: @alqareah

كنت قد طلبت الجبن لأني لا أحب الحلو، وهكذا كنت منذ الصغر، ولكنني وأنا أحدق في الصحن – الجزء الفارغ منه – اعتراني بغتة ذلك الشعور بالإنهاك الذي كنت أحاول أن أبعده عني طيلة الأمسية.

كل ما أوده هو أن أعود للمنزل مع "كلير"، أو ربما وحدي أفضل. أجل، إنني على استعداد لأن أدفع نصف مالي مقابل أن ألقي بجسدي فوق أريكة منزلي. وبوسعي أن أفكر أفضل وأنا مستلق عليها، أفكر في أحداث هذا المساء، فأضع النقاط فوق الحروف، كما يقولون.

قالت "بابيت" لـ"سيرجي":

– لا تقترب من هذا الطبق. ربما علينا أن نطلب "تونيو" كي يأتي، إذا كان من الصعب علينا أن نطلب طبق حلو غيره.

فهمت أن "تونيو" هو ذاك الرجل صاحب التي شيرت، مالك المطعم الذي رحب بهما شخصياً عند دخولهما، لأنه سعيد جداً بأن يكون "آل لومان" من بين رواد مطعمه.

بادرها المدير:

– لن يكون هذا ضرورياً. يمكنني أن أتحدث مع "تونيو" بنفسي، وأنا متأكد من أن المطبخ سيقدم لكما طبق حلو آخر.

– حبيبتي..

ولكن على ما يبدو أن "سيرجي" لم يجد شيئاً يقوله، فقد اكتفي بأن ابتسم للمدير مجدداً وهو يشير بيديه في تسليم، وهو يعقب:

– النساء؟ هيا تصرف.

سألته "بابيت":

– ما هي حكاية هذه الابتسامة البلهاء؟

Twitter: @alqareah

خفض "سيرجي" يديه، هناك شيء يبعث على الأسي في الطريقة التي نظر بها إلي "بابيت":

- حبيبتي..

كان "ميشيل" أيضاً يكره أطباق الحلو، وقد أدركت هذا عندما كان طفلا، فعندما كان أي نادل يحاول مداعبته بتقديم الآيس كريم أو المصاصة، كان يهز رأسه رافضاً بحزم. ونحن لم نحاول التأثير عليه، ونتركه يختار الطبق الذي يريده، لذلك لا يمكنك أن تقول لي إن السبب هو أننا عودناه على ذلك. فهذه وراثة. أجل، فللوراثة دورها، وقد أكسبتنا هذه الوراثة ذلك النفور المشترك من الحلويات.

وأخيراً، رفع المدير طبق التوت الأسود من فوق الطاولة. وكان يتمتم بكلمات وهو يبتعد. فقالت "بابيت":

- يا ربي، ياله من أحمق!

مسحت يدها بغضب على مفرش الطاولة، فوق البقعة التي كان يحتلها طبق الحلو منذ ثوان، وكأنها تحاول أن تمسح أي أثر للطبق.

ترجاها "سيرجي" أن تهدأ، ولكنه بدوره كان متضايقًا. فقالت له "بابيت":

- هل رأيت تلك النظرة على وجهه؟

مدت يدها عبر الطاولة لتمسك بيد "كلير". وهي تردف:

- هل رأيت كيف تراجع بسرعة حينما سمع اسم صاحب المطعم؟ سيده، هاه هاه!

ضحكت "كلير" بدورها، ولكنها ليست ضحكة من القلب، وأنا أدري بذلك.

تدخل "سيرجي" قائلاً:

- "بابيت"! أرجوك! أعتقد أنك تتمادين. أعني أننا قد جئنا هنا كثيراً من قبل، ولم يحدث أبداً أن..

Twitter: @alqareah

– أوه، هل هذا ما تخشاه؟ ألا يمنحوك في المرة المقبلة طاولة مخصوصة؟

نظر "سيرجي" إلي، ولكنني أشحت بوجهي بسرعة. ما الذي يعرفه أخي عن الوراثة؟ حسنا، ربما فيما ينحصر في أطفاله، لحمه ودمه. ولكن ماذا عن "بيو"؟ متي يكون عليك أن تعترف وببساطة أن هناك شيئًا ما قد ورثه عن غيره؟ عن والديه البيولوجيين اللذين بقيا في أفريقيا، إلي أي مدي يمكن لـ"سيرجي"، من جانبه، أن ينأي بنفسه عن تصرفات ابنه بالتبني؟

– أنا لا أخشي أي شيء. أنا فقط مندهش من الطريقة التي تحدثتِ بها معه. وهذا تحديداً ما لا نود أن نتعامل به مع الناس. هذا الرجل يقوم بعمله وحسب.

– ومن الذي بدأ التحدث بهذه النبرة؟ هاه؟ من الذي بدأ؟

كان صوتها قد علا قليلاً. فتطلعت حولي؛ إلي الطاولات المجاورة، كانت جميع الرؤوس تنظر في اتجاهنا. كان هذا، بالطبع، مشهداً مثيراً للاهتمام؛ امرأة ترفع صوتها وهي جالسة إلي طاولة رئيس وزراء المستقبل.

وكان "سيرجي" كذلك يدرك الخطر المحدق. فمال عبر الطاولة، وهو يقول بهدوء:

– "بابيت"، أرجوك. لنتوقف عن هذا. ولنتحدث فيما بعد.

في جميع المشادات – كما في كل المعارك بالأيدي والنزاعات المسلحة – تأتي لحظة يتراجع خلالها أحد الطرفين أو كلاهما منعاً لتدهور الوضع. وكنا في تلك اللحظة. كنت أتساءل عما كنت أتمناه الآن. كأسرة ورفقاء طاولة واحدة، فإن دورنا هو أن نتدخل، وأن نتحدث بكلمات تضع الأمور في نصابها، وحتى نصلح بين الطرفين.

ولكن، هل أشعر بداخلي برغبة في القيام بذلك؟ هل يشعر كلانا برغبة في فعل ذلك؟ نظرت إلي "كلير"، وفي نفس اللحظة نظرت "كلير" إلي. كانت قد ثبتت فمها على وضعية ابتسام؛ يراها أي غريب فيخيل له أنها تبتسم، أما أنا فأدرك أنها ليست ابتسامة. وأدرك الآن أن "كلير" لا تشعر أبداً برغبة في التدخل كحكم. فعلي النقيض من ذلك، سنبذل قصاري جهدنا حتى " نزيد الموقف اشتعالا. فهذا سيسعدنا أيما سعادة في هذه اللحظة.

Twitter: @alqareah

غمزت لزوجتي، فغمزت لي بدورها.

- "بابيت"، أرجوكِ..

لم يكن "سيرجي" هذه المرة، بل كانت "بابيت" نفسها. كانت تقلده، بنبرة مبالغ فيها، وكأنه طفل شكاء يريد آيس كريم. فليس لديه سبب للشكوي، وهكذا قلت لنفسي، وأنا أنظر إلي صحن "الدام بلانشيه" أمامه. لقد حظي بالآيس كريم بالفعل. وكدت أنفجر ضاحكاً. ولابد أن "كلير" قد قرأت ذلك على وجهي، لأنها هزت رأسها وهي تغمز لي مجدداً. عيناها تقولان لي: لا تضحك الآن! سوف يفسد هذا كل شيء. وعندئذ سيتحولان إلينا.

صرخت "بابيت":

- يالك من جبان! ينبغي عليك أن تقف بجانبي بدلا من التفكير في صورتك ومظهرك. كل ما يهمك هو رأي الناس إن عرفوا أن زوجتك تشتكي من طبق الحلو. كل ما يهمك هو ما قد يقوله صديقك القصير عنك "تونيو"! ربما يليق به توني أو أنطون أكثر! أما اسمه هذا فهو أنسب لطبق كرنب أو حساء البازلاء!

ألقت بمنديلها على الطاولة بقوة، حتى إنه ارتطم بكأس النبيذ فأسقطه.

- أنا لا أريد أن آتي إلي هذا المكان مرة أخري!

كانت قد توقفت عن الصراخ، ولكن صوتها مازال مسموعاً من على بعد أربع طاولات على الأقل. لقد نحي الزبائن السكاكين والأشواك جانباً. وصارت نظراتهم نحونا جريئة الآن. فمن المستحيل بالنسبة لهم ألا يتفرجوا. قالت "بابيت" بصوت أهدأ كثيراً ويكاد يكون طبيعيا:

- أريد العودة إلي المنزل.

فقالت "كلير" وهي تمسك بيدها:

- "بابيت".. عزيزتي..

Twitter: @alqareah

كان توقيت "كلير" مثالياً. فابتسمت معجباً بزوجتي. كان النبيذ الأحمر قد انسكب فوق الطاولة، وينسال أغلبه على الأرض من جهة "سيرجي".

نهض أخي عن مقعده. اعتقدت في البداية أنه كان خائفا من أن ينسال النبيذ على سرواله، ولكنه تراجع بالمقعد ونهض:

- لقد سئمت كل هذا.

نظر ثلاثتنا إليه. كان قد التقط المنديل من على حجره ووضعه على الطاولة. رأيت أن الآيس كريم قد بدأ في الذوبان، وقليل من الفانيليا يتساقط من عند الحافة (ماذا يسمون هذا؟ إناء أم قدح؟) ويصل إلي قاعدته.

- سأخرج لدقيقة. أنا في الخارج.

خطي خطوة للجانب، بعيداً عن طاولتنا، ثم عاد خطوة للوراء. وقال وهو ينظر إلي "كلير" أولاً ثم إلي:

- أنا آسف. آسف لأن هذا قد حدث. وأتمني عندما أعود أن نتحدث بهدوء عن الأمور التي ينبغي علينا التحدث عنها.

كنت أتوقع أن تعاود "بابيت" الصراخ مرة أخري. "أجل، هيا اهرب! هيا اهرب! ما أسهل الهروب!". لكنها لم تتفوه بشيء. وأصارحك أن رد الفعل هذا لم يعجبني. كانت الفضيحة على وشك أن تكون كاملة؛ سياسي شهير يغادر المطعم مطأطئ الرأس، بينما تصرخ زوجته فيه وتنعته بالأحمق أو الجبان. وحتى لو لم تصل الفضيحة إلي الصحف، إلا أنها سوف تنتشر كالنار في الهشيم، من فم إلي فم، وعشرات، بل مئات، ومن يدري فربما حتى آلاف من الناخبين المحتملين سيدركون أن رجلاً عادياً مثل "سيرجي لومان" يعاني أيضا من المشاكل الزوجية العادية جدا. مثل أي شخص آخر، مثلنا، واحد منا.

حتى إنك قد تتساءل عما إذا كان شجار بين زوج وزوجته، إذا تسربت تفاصيله، سيكلفه أصواتاً، أم أنه، وكما أدركت أنا الآن، سيكسبه المزيد من الناخبين. فمثل هذه المشاجرة قد تجعل منه "بشراً" بالفعل في نظرهم، وزواجه

Twitter: @alqareah

التعيس قد يقربه أكثر إلي الناخبين. نظرت إلي "البلانشيه". كان خط آخر من الآيس كريم يتجاوز قاعدة القدح ليمتد على مفرش الطاولة.

قلت وأنا أشير ناحية "حلو أخي"، وقد ظننت أنني أحاول تلطيف الأجواء:

- إن العالم يعاني بالفعل من الاحتباس الحراري. انظرا، أتريان؟ إن ما يقولونه صحيح.

- "بول"..

نظرت "كلير" إلي وهي تقلب عينيها تجاه "بابيت". تتبعت نظرة زوجتي، فوجدت أن "بابيت" قد بدأت تبكي. بصوت غير مسموع في البداية، فأنت لا تري سوي اهتزاز ظهرها وكتفيها، ولكن سرعان ما تسمع أول نحيب.

توقف زبائن بضع طاولات عن تناول الطعام مجدداً. بينما مال رجل يرتدي قميصاً أحمر نحو سيدة عجوز – ربما تكون أمه – وهمس لها بشيء. لا تنظري الآن ولكنها تبكي – لابد أنها كذلك – إنها زوجة "سيرجي لومان"..

لم يكن "سيرجي" قد غادر بعد؛ بل كان يقف هناك ويداه على ظهر المقعد، وكأنه قد صار متردداً بعد بكاء زوجته، ولا يستطيع أن يخرج.

قالت له "كلير" دون أن تنظر إليه، بل دون حتى أن ترفع رأسها:

- "سيرجي".. اجلس.

ثم التفتت إلي:

- "بول".

كانت ممسكة بيدي، تضغط عليها، وتطلب الأمر مني لحظات قبل أن أدرك ما كانت تقوله. كانت تريد مني أن أنهض، حتى تجلس مكاني وتكون جوار "بابيت".

نهضنا في نفس الوقت. وبينما كنا نعدل من جلستنا، أمسكت "كلير" بيدي مرة أخري؛ وأصابعها تقبض على معصمي بحزم وتضغط عليه. يكاد وجهها

Twitter: @alqareah

يلامس وجهي، فقاومت رغبة في أن أميل براسي فأدفن وجهي في شعرها. كانت رغبة قوية في تلك اللحظة أكثر من أي وقت مضي.

تمتمت "كلير":

- لدينا مشكلة.

لم أرد، ولكني أومأت برأسي إيماءة خفيفة.

- مع أخيك.

انتظرت تحسباً لأن تقول أي شيء آخر، ولكن بدا لي أنها لاحظت أن وقوفنا قد طال؛ فاجتازتني وجلست في مقعدي، بجوار "بابيت" التي تبكي.

- كيف تجري الأمور هنا؟

استدرت ونظرت إلي وجه الرجل ذي الياقة المدورة البيضاء "تونيو". كان "سيرجي" منشغلاً بالجلوس مرة أخري، لذلك رأي صاحب المطعم أن يخاطبني أولاً. وربما كان ذلك الاختلاف في الطول – فهو أقصر مني بمقدار رأس كاملة – هو الذي جعلني أشعر أنه يتذلل؛ فقد كان جسده مائلاً بعض الشيء، يشبك يديه أمامه، ورأسه مائل إلي ناحية، وهو ما جعله ينظر إلي وجهي بشكل غير مباشر ومن أسفل، بدرجة أدني من اللازم.

- سمعت بأن هناك مشكلات تتعلق باختيار طبق الحلو. ونود أن نقدم لكم طبق حلو مختلفًا وحسب اختياركم.

سألته:

- حلو المطعم المخصوص؟

- معذرة؟

Twitter: @alqareah

صاحب المطعم أصلع تقريبا، وحول أذنيه بعض الشعر الأشيب الذي يبدو أنه يعتني به، ورأسه الذي اكتسب الكثير من سمرة الشمس يخرج من رقبة السترة البيضاء مثل رأس سلحفاة خارجة من قوقعتها.

كان قد خطر لي، عندما جاء "سيرجي" و"بابيت"، أنه يذكرني بشيء ما أو شخص ما، والآن أدركت فجأة ما قصدته. فمنذ سنوات، وفي منزل يبعد عن منزلنا بعدة منازل، كان هناك رجل يعيش بنفس هذه السمات الذليلة. ربما كان أقصر من "تونيو"، وكان أعزب. وذات مساء، عاد "ميشيل" إلي المنزل، وكان في عامه الثامن في ذلك الوقت، ومعه كومة من الأسطوانات وسألني عما إذا كان لدينا جهاز تشغيل أسطوانات.

سألته:

- من أين أتيت بهذه الأسطوانات؟

- من السيد "بريدفيلد". فلديه خمسمائة منها على الأقل! وأعطاني هذه.

بعد برهة ربطت بين الاسم "بريدفيلد" وذلك الرجل الضئيل الأعزب الذي يعيش بالجوار. إنهم يذهبون إلي منزله دوماً، هكذا أخبرني "ميشيل"، مجموعة من صبية الحي، ليستمعوا إلي ألبومات السيد "بريدفيلد" القديمة.

أنا أعرف جيداً كيف تتهدم المعابد، بالخوف أولاً، ثم بالغضب. حاولت أن أحافظ على هدوء صوتي قدر الإمكان وأنا أسأل "ميشيل" عما يفعله السيد "بريدفيلد" والصبية يستمعون إلي أسطواناته.

- أوه، كما تعلم. نجلس على الأريكة. ويقدم لنا أطباق الفول السوداني والبطاطس والكولا.

في ذلك المساء، بعدما حل الظلام، كنت أرن جرس منزل السيد "بريدفيلد". لم أستأذن قبل أن أدخل، بل دفعته جانباً ودخلت مباشرة إلي غرفة المعيشة. لاحظت أنه كان قد أسدل الستائر.

Twitter: @alqareah

بعد هذه الواقعة بأسابيع، رحل السيد "بريدفيلد" عن الحي. وبقيت صورة واحدة في عقلي منذ ذلك الحين؛ صبية الحي جميعهم وهم يقلبون في صناديق الأسطوانات التي هشمتها، بحثاً عن أية أسطوانة قد بقيت سليمة. وكان السيد "بريدفيلد" قد وضع الصناديق على الرصيف أمام منزله في اليوم الذي غادر فيه الحي.

نظرت إلي "تونيو" وأمسكت بذراع المقعد بيد واحدة. وقلت له:

- اغرب عن وجوهنا، أيها المنحرف! هيا، قبل أن تخرج الأمور عن سيطرتي.

Twitter: @alqareah

37

تنحنح "سيرجي"، وأسند مرفقيه إلي الطاولة فصار طبق "البلانشيه" بينهما، وشبك أصابعه.

- نحن جميعا نعرف الآن بما حدث. أربعتنا على دراية بالحقائق.

تطلع إلي "كلير"، ثم إلي "بابيت"، التي كانت قد توقفت عن البكاء ولكنها لا تزال تضغط بطرف المنديل على خدها، تحت عينها، خلف العدسة الملونة لنظارتها.

- "بول"؟

التفت نحوي. كانت نظرة قلق، ولكنني كنت أتساءل عما إذا كان قلق الإنسان "سيرجي لومان" أم قلق السياسي "سيرجي لومان".

- ما الأمر؟

- فهمت أنك على دراية بكل الحقائق، أليس كذلك؟

كل الحقائق. لم أستطع منع نفسي من الابتسام. نظرت إلي "كلير"، فألغيت فكرة الابتسامة تماماً.

- نعم، بالطبع. على الرغم من أن هذا يعتمد على ما تعنيه بالحقائق.

- سأتحدث عن هذا لاحقا. ما يهم هو كيف نتعامل مع هذا الوضع. كيف نتحدث عن كل شيء بصراحة ونخرج به إلي العلن.

Twitter: @alqareah

في البداية لم أكن متأكدا من أنني سمعت ما قاله بشكل صحيح. عدت أنظر إلي "كلير". لدينا مشكلة، هذا ما كانت عيناها تقولانه. هذه هي المشكلة، كانت عيناها تقولان ذلك الآن. فقلت:

- مهلاً.

فوضع "سيرجي" يده على ساعدي مترجياً:

- "بول"، دعني أكمل. وحينئذ سيأتي دورك. فقط حينما أكمل.

كان "جيراننا" من زبائن الطاولات الأخري قد عادوا إلي الطعام، ولكن كانت هناك حركة لا تهدأ في المطبخ المفتوح. رأيت ثلاث نادلات متحلقات حول "تونيو" والمدير، ولم تنظرن ولو مرة نحونا، ولكني أراهن بطبق الجبن هذا على أنهم كانوا يتحدثون عنا، عني أنا، أصدقك القول.

- لقد تحدثت و"بابيت" مع "ريك" بعد ظهر هذا اليوم. انطباعنا هو أن "ريك" يعاني بشدة من كل هذا. يعتقد أن الأمر فظيع، أعني ما اقترفاه هما الاثنان. إنه عاجز عن النوم في الليل، بكل معني الكلمة. بدا شارداً مذهولاً. من شأن هذه الواقعة أن تؤثر بشدة على مسيرته الدراسية.

أردت أن أقول شيئا، ولكنني أمسكت نفسي. إنه شيء ما في لهجة "سيرجي"؛ كما لو أنه، حتى في هذه المرحلة المبكرة، يحاول أن يقارن ابنه بابننا، بحيث تصب المقارنة في صالحه. "ريك" الذي لا ينام. "ريك" الشارد المذهول. "ريك" النادم على الفعلة الفظيعة. وجدت أن على أنا و"كلير" أن ندافع عن "ميشيل"، ولكن ما الذي يفترض أن نقول؟ نزايد على ما قال، فنقول إن "ميشيل" يعتقد أن الأمر فظيع "جدا"؟ إنه لا ينام، سواء بالليل أو بالنهار؟

أنا أعلم – وأنت تعلم – أن هذا غير صحيح. فقد كان "ميشيل" منشغلاً بأمور أخري أهم من كونه قد أحرق متشردة داخل كابينة صراف آلي. وما هذا الأنين حول "المسيرة الدراسية"؟ حتى التعبير نفسه مثير للاشمئزاز، لو أنك تمعنت فيه.

Twitter: @alqareah

قررت أن أؤيد "كلير" في كل ما ستقوله. فإذا قالت "كلير" إن من غير الملائم، في ضوء ما حدث، أن نتحدث عن "المسيرة الدراسية"، كنت سأبادر وأؤيدها قائلاً بأننا نريد إخراج مسألة المدرسة هذه من الموضوع.

وهل تأثرت دراسة "ميشيل"؟ كان هذا السؤال الذي طرحته على نفسي. فلم أجد لدي أي دليل على هذا التأثر. فهو وفي هذه المسألة تحديداً أشد استقراراً من ابن عمه.

واستطرد "سيرجي":

- كما أنني ومنذ البداية حاولت أن أنظر إلي هذه المشكلة بصورة منفصلة عن مستقبلي السياسي. وهذا لا يعني أني لم أفكر في تأثير هذا الذي حدث عليه.

أدركت من منظر "بابيت" أنها قد عادت تبكي مجدداً. بلا صوت. راودني شعور مستتر بأنني كنت حاضرا في نقاش لم يكن من المفترض أن أكون حاضرا فيه. ووجدتني أفكر في "بيل وهيلاري كلينتون"، وفي "أوبرا وينفري".

هل سيتخذ النقاش هذا المسار؟ هل هذه هي بروفة للمؤتمر الصحفي الذي سيعلن "سيرجي لومان" خلاله أن الصبي الذي ظهر في الكاميرا في برنامج Opsporing Verzocht كان ابنه، ولكنه يأمل من الناخبين أن يبقوا على العهد معه؟ لا يمكن أن يكون بهذا العبط، هل يمكن أن يكون؟

- بالنسبة لي، فإن أهم شيء هو مستقبل "ريك". بطبيعة الحال، فإن من الممكن جدا ألا يتوصلوا إلي أي شيء في هذه القضية. ولكن هل يمكننا أن نواصل حياتنا هكذا؟ هل يمكن لـ"ريك" أن يتعايش معه؟ هل يمكننا جميعاً أن نتعايش مع هذا؟

نظر إلي "كلير" أولا، ثم إلي وجهي. وأردف:

- هل يمكنكما التعايش مع ذلك؟ أنا لا أستطيع. كل ما أستطيع أن أراه هو وقفتي على سلالم القصر مع الملكة ووزراء الحكومة. وأنا أعلم أنه في أي لحظة،

Twitter: @alqareah

وفي أي مؤتمر صحفي، سيرفع صحفي إصبعه ويسأل: "سيد لومان، هل هناك أي حقيقة وراء شائعة تورط ابنك في قتل امرأة متشردة؟".

صاحت "كلير":

- قتل؟ إذن فهي جريمة قتل الآن؟ من أين أتيت بهذه المعلومة؟

خيم صمت قصير؛ لابد أن كل "الجيران" قد سمعوا الكلمة.. "قتل". تطلع "سيرجي" حوله، ثم حدج "كلير" بنظراته.

- أنا آسفة. كان صوتي عالياً جداً. ولكن هذا ليس مهماً. فاستخدامك كلمة "قتل" ينحو بالمشكلة منحي آخر مغايرًا تماما. تماما!

نظرت إلي زوجتي في إعجاب. الغضب يجعلها أجمل، وخاصة عينيها؛ إنها نظرات تجعل الرجال يخجلون من أنفسهم، الرجال الآخرين.

- إذن ماذا نسمي هذه الجريمة، "كلير"؟

التقط "سيرجي" ملعقة الحلو، وأخذ يقلب الآيس كريم الذي ذاب. كانت واحدة من تلك الملاعق ذات المقبض الطويل جدا، ولكنه رغم ذلك نجح في أن تتسخ أصابعه بالآيس كريم.

قالت له "كلير":

- حادث. سلسلة أحداث مشؤومة. لا يوجد عاقل يمكنه أن يزعم أنهما قد توجها في تلك الليلة عازمين على قتل امرأة متشردة.

- ولكن هذا ما عرضته الكاميرا الأمنية. هذا ما رأته هولندا كلها. أعني أن بوسعك ألا تسميها جريمة قتل، يمكنك أن تسميها قتلا بالخطأ، ولكن تلك المرأة لم ترفع حتى إصبعًا ضدهما، بل تلقت مصباحاً ثم مقعداً ثم جركن وقود على رأسها.

- وما الذي كانت تفعله داخل كابينة صراف آلي؟

Twitter: @alqareah

- وهل هذا يهم؟ هناك متشردون في كل مكان. وهذا مؤسف. وهم ينامون في أي مكان دافئ يلجئون إليه. ربما كان المكان هناك جافًا ودافئًا.

- ولكنها كانت راقدة في طريقهما، "سيرجي". أقصد أنه كان بوسعها أن تذهب لتنام داخل منزلك. فمن المؤكد أنه جاف ودافئ أيضاً.

بادرت "بابيت" قائلة:

- دعونا لا نخرج عن صلب الموضوع. إنني لا أعتقد أن..

أسكتتها "كلير" بأن وضعت يدها على ساعدها:

- بل هذا هو صلب الموضوع، عزيزتي. اعذريني، ولكنني عندما أسمع "سيرجي" يتحدث بهذه الطريقة، يخيل لي أننا نتحدث عن طائر مسكين، طائر وليد سقط من عشه. ولكننا نتحدث عن امرأة كبيرة ناضجة، امرأة كبيرة مدركة تمام الإدراك، ولكنها رغم ذلك تذهب لتنام في كابينة الصراف الآلي. لا تسيئوا فهمي؛ أنا أحاول فقط أن أضع نفسي في مكان شخص آخر. ليست تلك المرأة، ولكن "ميشيل" و"ريك". إنهما لم يكونا في حالة سكر، ولم يتعاطيا المخدرات. كل ما أرادوه هو سحب بعض المال. ولكنهما وجدا امرأة ترقد في الكابينة، نتنة الرائحة. ألن يكون أول رد فعل لأي منكم هو التعبير عن الاستياء من المنظر المقرف، ثم تطلبون منها أن ترحل من هنا؟

- ولكن كان بوسعهما التوجه إلي ماكينة أخري، أليس كذلك؟

بدأت "كلير" تضحك وهي ترد:

- ماكينة أخري؟ ماكينة أخري؟ نعم، بالطبع. يمكنك دائما المضي قدماً في طريقك وتجنب المواجهة. أعني، كيف كنت ستتصرف، "سيرجي"؟ لو أنك فتحت باب منزلك، ووجدت أن عليك أن تخطو فوق متشرد نائم. ماذا كنت ستفعل؟ هل ستعود أدراجك إلي الداخل؟ أو لنفترض أن شخصاً كان واقفاً يتبول على بابك. هل تكتفي بإغلاق الباب وحسب؟ هل تحزم أمتعتك وتنتقل للعيش في منزل آخر؟

Twitter: @alqareah

- "كلير"..

فقال "سيرجي":

- حسنا، لا بأس. أنا أفهم مقصدك. ولكن لم يكن هذا ما كنت أحاول أن أقول. بالطبع لا يجب علينا أن نهرب من المشاكل أو المواقف الصعبة. ولكن يمكن، بل ينبغي علينا، أن نحاول إيجاد حلول لتلك المشاكل. لـ.. لكن قتل شخص بلا مأوي لا يجعلك قريبة من هذا الحل.

- "سيرجي"! أنا لا أتحدث عن حل لمشكلة المشردين. بل أتحدث عن امرأة متشردة واحدة. وأعتقد أن علينا أن نركز في الحديث عن "ريك" و"ميشيل". أنا لا أنكر ما حدث. ولا أحاول أن أقول إنه ليس هناك من خطأ وقع. ولكن علينا أن نضع الأمور في نصابها. إنه حادث وليس جريمة مخططًا لها. حادث يمكن أن يكون له تأثير كبير على حياة الولدين، وعلي مستقبلهما.

تنهد "سيرجي" وأراح يديه على الطاولة، على جانبي طبق الحلو؛ كان يحاول أن ينظر إلي عيني "بابيت"، هكذا لاحظت، ولكنها كانت قد وضعت حقيبتها على حجرها وهي تبحث فيها عن شيء ما، أو تتظاهر بذلك.

- بالضبط. المستقبل. هذا هو بالضبط ما كنت أريد أن أتحدث عنه. لا تفهميني خطأ، "كلير"، فأنا قلق تماما إزاء مستقبل الولدين مثلك. الفارق الوحيد هو أنني لا أصدق أن بوسعهما المضي قدماً في حياتهما في ظل حادث كهذا، سيعجزان حتماً عن تحمل هذا السر على عاتقهما. سوف يمزق حياتهما إرباً إن عاجلاً أو آجلاً. ولقد صار "ريك" ممزقاً بالفعل.

تنهد، قبل أن يردف:

- وهذا يمزقني تمزيقاً.

مرة أخري، يراودني شعور بأنني أشهد أداءً ليس له أدني علاقة بالواقع. واقعنا نحن على الأقل، واقع أربعتنا – الأخين وزوجتيهما - الذين خرجوا لتناول العشاء معا والحديث عن مأزق ولديهم.

Twitter: @alqareah

– لقد حسمت أمري بشأن مستقبل ابني. لاحقاً، وحينما يصبح ما نحن فيه الآن من الماضي، أريد له أن يمضي قدماً في حياته. واسمحوا لي أن أؤكد لكم أنني اتخذت قراراً بمفردي. فزوجتي.. "بابيت".. لا تتفق معي. ولكنني حسمت الأمر، وقد عرفتها بقراري بعد ظهر هذا اليوم.

كانت "بابيت" قد أخرجت علبة "مارلبورو لايتس" من حقيبتها، علبة جديدة، وهي الآن تفتح غلافها السوليفان.

تنهد بعمق. ثم نظر إلي كل واحد منا. حينئذ رأيتِ أن في عينيه دموعًا.

– فلمصلحة ابني، ولمصلحة هذه البلاد، قررت أن أنسحب من الانتخابات.

دست "بابيت" السيجارة في فمها، وسرعان ما أبعدتها. كانت تنظر إلي "كلير" وإلي. قالت:

– عزيزتي "كلير"، عزيزي "بول".. أريد أن أسمع رأيكما. أرجوكما أن تطلبا منه التراجع عن هذا القرار. عرفاه بأن هذا القرار جنون.. هو الجنون بعينه.

Twitter: @alqareah

38

قالت له "كلير":

- لا يمكنك أن تفعل هذا.

أمنت "بابيت" على كلامها:

- أجل، لا يستطيع، أليس كذلك؟ أرأيت، "سيرجي"؟ وما رأيك، "بول"؟ ألا تري أنها فكرة سخيفة؟ لا يوجد داع للإقدام على ذلك، ألا توافقني؟

بالنسبة لي، شخصيا، بدت لي فكرة ممتازة حتى يضع أخي كلمة النهاية لحياته السياسية، هنا والآن، بل يمكن أن يكون هذا أفضل شيء بالنسبة للجميع - بالنسبة لنا جميعا، وبالنسبة لبلادنا – وهكذا ستنجو البلاد من أربع سنوات تحت إدارة "سيرجي لومان". أربع سنوات ستكبدها الكثير. فكرت في ما لا يمكن تصوره، في أشياء تمكنت وإلي حد كبير من كبتها. فكرت في "سيرجي لومان" واقفا بجوار الملكة على عتبات القصر الملكي، حتى يتسني للمصورين التقاط الصورة الرسمية للحكومة الجديدة؛ وفكرت فيه جالساً جوار "جورج بوش" وبينهما مدفأة؛ ومع "بوتين" على متن قارب في نهر الفولجا.. بعد "اختتام القمة الأوروبية"، يرفع رئيس الوزراء "لومان" نخب النجاح مع الرئيس الفرنسي..

كنت محرجاً بالنيابة عنه، وتعتريني فكرة لا أحتملها وهي أن يعتاد قادة حكومات العالم على وجود أخي بينهم. كيف سيتسني له، حتى في البيت

Twitter: @alqareah

الأبيض أو في قصر الإليزيه، أن يلتهم طبق "التورنيدوس" في ثلاث قضمات كما فعل هنا. من المؤكد أن القادة من حوله يتبادلون النظر إلي بعضهم ويراقبونه وهو يلتهم الطعام: "إنه من هولندا"، أو ربما يحتفظون برأيهم فيه لأنفسهم، وهذا أسوأ. لا يفارقني شعوري بالإحراج بالنيابة عنه. وجدت أن ما بقي يربط بيننا نحن عامة الشعب وبين رؤساء الوزراء الذين تعاقبوا علينا هو إحساسنا بالخجل نيابةً عنهم، طالما أنهم لا يخجلون من أنفسهم بأنفسهم.

هززت كتفي وقلت لـ"بابيت":

- ربما عليه أن يأخذ وقته في التفكير.

أكثر صورة ضايقتني هي صورة "سيرجي" وهو جالس إلي مائدة العشاء في منزلنا، في وقت ما من المستقبل القريب – الذي لا يبدو الآن قريبا، بل أجده ولحسن الحظ يتلاشي بسرعة – وهو يروي لنا حكايات لقاءاته مع حكام العالم. ستكون حكايات عرجاء مبتذلة. سأتمكن أنا و"كلير" من رؤية الحقيقة خلفها. ولكن "ميشيل"؟ سواء أحبها أم لا، ستفتنه الحكايات، وسيذهله أن يجد عمه وقد تكرم برفع الستار بعض الشيء ليكشف لنا عن كل هذا الشرف والمجد، عن كواليس الشؤون الدولية التي خولت له أن يجد لنفسه مكاناً على مائدتنا. "ما هذا التزمت، "بول"؟ إن ابنك يجدها حكايات مشوقة، ألا تري بعينيك؟".

ابني، "ميشيل". نسيت أنني أتحدث عن مستقبل من دون أن أتوقف لأسأل نفسي: وهل سيكون هناك مستقبل لنا بالفعل؟

قالت له "بابيت":

- فكر في الأمر ملياً. هذا ما أعنيه تحديداً. لو أنه تمهل وفكر في الأمور من جميع جوانبها!

فقالت "كلير":

- ليس هذا ما قصدته. أعني أن "سيرجي" ليس حراً حتى يبت في هذا الأمر وحده.

Twitter: @alqareah

- ولكنني زوجته!

بدأت "بابيت" تبكي من جديد.

فقالت "كلير" وهي تنظر إلي "سيرجي":

- وأنا لم أقصد هذا أيضاً، "بابيت". أقصد أننا كلنا مشاركون في هذا. جميعنا معاً، أربعتنا.

فقال "سيرجي":

- لهذا رغبت في أن ألتقيكما، حتى نتحدث سوياً حول الكيفية التي سنتصرف بها.

جاوبته "كلير":

- أية كيفية؟

- كيف نصارح الكل بحقيقة ما حدث. بطريقة تكفل لولدينا فرصة عادلة.

- ولكنك لا تمنحهما أية فرصة، "سيرجي". فما تخطط لتعريف الكل به هو انسحابك من الحياة السياسية، وأنك لم تعد ترغب في أن تكون رئيس الوزراء؛ لأنك لا يمكن أن تتعايش مع ما حدث، هذا ما قلته.

- وهل يمكنك أن تتعايشي معه؟

- الأمر لا يتعلق بما إذا كنت قادرة على التعايش أم لا. بل يتعلق بـ"ميشيل". "ميشيل" هو من ينبغي عليه أن يكون قادراً على التعايش معه.

- وهل يقدر؟

- "سيرجي"، لا تكن متحجر الحس. أنت اتخذت قراراً. وأنت بهذا القرار تقرر مستقبل ابنك. وهذا متروك لكما. على الرغم من أنني أتساءل عما إذا كنت تدرك أي ضرر ستلحقه بعائلتك. ولكن قرارك هذا سيدمر مستقبل ابني أيضاً.

Twitter: @alqareah

ابني. "كلير" قالت ابني، كان بوسعها أن ترمقني بنظرة في تلك اللحظة، طلباً لمساندتي، حتى ولو بنظرة، ثم تقول ابننا، ولكنها لم تفعل، ولم تنظر حتى إلي، بل أبقت عينيها ثابتة على "سيرجي". الذي قال لها:

- هوني عليك، "كلير". لقد وقع الضرر بالمستقبل بالفعل، مهما حدث. ولم يعد لهذا علاقة بما اتخذته من قرار.

- كلا، "سيرجي". سوف يدمر ذلك المستقبل لو أنك استسلمت لرغبتك في أن تلعب دور السياسي النبيل، ولأنك عاجز عن أن تتعايش مع ما حدث، فإنك تفترض أن ذلك ينطبق على ابني أيضا. ربما أمكنك أن تعوض "ريك"؛ وأنا أتمنى لأجلك أن توضح لابنك ما أنت على وشك القيام به وبحياته، ولكن أرجوك أن تخرج "ميشيل" من الموضوع.

- كيف يمكن أن أخرج "ميشيل" من الموضوع، "كلير"؟ كيف يفترض بي أن أفعل ذلك؟ اشرحي لي ذلك أولا. أعني أنهما كانا هناك معاً، حسب معلوماتي، أم أنك تحاولين إنكار ذلك أيضا

سكت للحظة، كما لو أن فكرته هذه قد صدمته هو قبل أي أحد:

- هل هذا ما تحاولين أن تفعليه؟

- "سيرجي"، حاول أن تكون واقعياً. لم يستجد جديد. ولم يتم القبض على أحد. بل ليست هناك حتى أي شبهة. نحن فقط الذين نعرف بما حدث. وليس هناك ما يبرر التضحية بمستقبل صبيين لم يتجاوزا الخمسة عشر عاما. وأنا لا أتحدث الآن عن مستقبلك، بل عليك القيام بما تعتقد أن عليك القيام به. ولكن لا يمكنك سحب أشخاص آخرين معك وأنت تفعل، وخصوصا ابنك. ناهيك عن ابني. أنت تطرح الأمر وكأنه تضحية ذاتية بحتة: "سيرجي لومان"، السياسي الطموح، رئيس الوزراء المقبل، يتخلى عن حياته السياسية لأنه لا يمكن أن يعيش مع وجود سر مثل هذا. والحقيقة أنه لا يقصد أنه سر بل فضيحة. فالقرار في ظاهره نبيل، ولكنه في باطنه أناني بحت.

Twitter: @alqareah

بادرتها "بابيت":

- "كلير"..

فأسكت "سيرجي" زوجته بإشارة منه:

- مهلاً، مهلاً. دعوني أكمل كلامي، فأنا لم أنتهِ بعد. هل من الأنانية أن تمنحي ابنك فرصة عادلة؟ هل من الأنانية أن يتخلى أب عن مستقبله لصالح مستقبل ابنه؟ عليكِ على الأقل أن توضحي لي أين تلك الأنانية.

- وما هي صورة ذلك المستقبل الذي تتحدث عنه؟ ما الذي سيفعله بمستقبل يضعه فيه والده بيديه أمام القاضي؟ كيف سيبرر والده له أنه هو من وضعه وراء القضبان؟

- ولكن الحكم لن يتعدى بضع سنوات. هذه هي عقوبة القتل غير العمد في هذا البلد. أنا لا أنكر أن الأمر صعب، ولكنهما وبعد بضع سنوات سيخرجان ويمكنهما بعد ذلك اختيار حياتهما بعناية والمضي قدما فيها من جديد. أعني، ماذا تقترحين خلاف ذلك، "كلير"؟

- لا شيء.

- لا شيء.

كرر "سيرجي" الكلمة كخاتمة محايدة، وليس سؤالاً.

- حوادث مثل هذه تكبر وتكبر ثم تتلاشي. وهذا يحدث الآن. لقد انفعل الناس مع ما حدث، ولكنهم في النهاية ينشغلون بشؤون حياتهم. وخلال شهرين أو ثلاثة، لن تجد أحداً يتذكر ما حدث.

- ولكنني أقصد شيئاً آخر، "كلير". أنا.. نحن لاحظنا أن ما حدث قد أثر في "ريك" أشد تأثير. وقد ينسي الناس، ولكنه لن ينسي.

Twitter: @alqareah

- ولكن يمكننا مساعدته في ذلك، "سيرجي". حتى يجتاز مرحلة النسيان. أنا أقول فقط إنه لا يجب عليك أن تتعجل في قرارات من هذا القبيل. فقد يتغير كل شيء في غضون أشهر قليلة، وربما حتى بضعة أسابيع. وعندئذ يمكننا مناقشة الأمر بهدوء؛ نحن، أربعتنا، مع "ريك" ومع "ميشيل".

وددت أن أضيف اسم "بيو"، ولكنني سكت.

قال لها "سيرجي":

- أخشي أنني غير مقتنع بذلك.

خيم الصمت علينا، إلا من صوت نحيب "بابيت" الهادئ.

- في الغد سينعقد مؤتمر صحفي، حيث سأعلن انسحابي. غدا عند الظهر. وسوف يكون على الهواء مباشرة. وستبثه أخبار الساعة الثانية عشرة.

ألقي نظرة على ساعته، ثم قال بلا مبالاة:

- أوه، هل تأخرنا إلي هذا الحد بالفعل؟ يجب أن.. عندي موعد آخر، في غضون أقل من نصف ساعة.

فقالت "كلير":

- موعد؟ ولكن علينا أن.. من هذا الذي ستلتقيه؟

- يريد المخرج أن يؤكد معي على موقع المؤتمر الصحفي، ويراجع معي بعض الأشياء مسبقا. لم يبد لي أن من المناسب أن أعقد هذا المؤتمر في لاهاي، وخاصة مؤتمرًا صحفيًّا مثل هذا. ليست بالفكرة الجيدة بالنسبة لي. لذلك كنت أفكر في مكان أقل رسمية..

فقالت "كلير":

- أين؟ أتمني ألا يكون هنا؟

Twitter: @alqareah

- كلا. أتعرفان ذلك المقهي الذي يقدم الوجبات في الجانب الآخر من الشارع، حيث دعوتمانا منذ بضعة أشهر؟ نحن نرتاده أيضاً. اسمه..

كان يتظاهر بأنه يحاول تذكر اسمه؛ ثم سماه.

- حينما كنت أفكر في مكان مناسب خطر لي ذلك المكان. مقهي عادي، وسط أناس عاديين. سأكون على سجيتي هناك، وبصورة أفضل من وجودي في قاعة مؤتمرات. وقد اقترحت على "بول" أن نتناول البيرة هناك الليلة قبل أن نجيء إلي هنا، ولكن الفكرة لم تعجبه.

Twitter: @alqareah

39

- هلا تسمحون لي بأن أقدم لكم القهوة؟

ظهر لنا المدير بغتة، فلم نشعر به إلا وهو واقف عند طاولتنا، ويداه خلف ظهره وجذعه مائل قليلاً نحونا. تعلقت عيناه للحظة بطبق "سيرجي" الحلو الذي تدهور به الحال، ثم نظر إلي كل منا متسائلاً.

قد أكون مخطئاً، ولكنني أعتقد أنني لاحظت تعجلاً في حركات المدير وتعبيرات الوجه. هكذا تسير الأمور غالباً في مطاعم كهذه. بمجرد أن تنتهي من طعامك، وتنعدم أية فرصة حقيقية في أن تطلب زجاجة نبيذ أخرى، فليس أمامك سوى أن تنصرف.

حتى ولو كنت ستصبح رئيس الوزراء في غضون سبعة أشهر، فكما أتيت عليك أن تذهب.

تفقد "سيرجي" ساعته مجدداً.

نظر إلي "بابيت" أولاً، ثم إلي "كلير":

- حسناً، ما رأيكم أن نتناول قهوتنا في المقهي؟

كنت أصحح لنفسي؛ سابق؛ رئيس وزراء سابق. ولكن لا.. ما الاسم الذي يطلقونه على شخص لم يسبق له أن كان رئيساً للوزراء، ولكنه قرر أن يسحب من انتخابات رئيس الوزراء؟ مرشح سابق؟

Twitter: @alqareah

إذن لا معني للوصف "سابق" هنا. فلاعبو كرة القدم السابقون والدراجون السابقون خاضوا التجربة من قبل. وإنني لأشك في أن يتمكن أخي، بعد المؤتمر الصحفي في الغد، من أن يحجز لنفسه طاولة في هذا المطعم. في نفس اليوم. يبدو لي من المرجح أن يضطر المرشح السابق إلي وضع اسمه على قائمة انتظار طولها ثلاثة أشهر، على أقل تقدير.

- هلا أتيتنا بالحساب إذن؟

ربما فاتني شيء، ولكني لا أذكر أنه قد عمد من قبل إلي أن ينتظر ليأخذ رأي "بابيت" و"كلير" في الذهاب إلي المقهي.

قلت:

- أريد قهوة؛ "اسبريسو"، وأي شيء معها.

فكرت للحظة، لقد كنت معتدلاً طوال الليلة، ولكنني لم أعرف حالتي بعد الشراب.

بينما قالت "كلير":

- سآخذ "اسبريسو" أنا أيضاً، و"جرابا".

إنها زوجتي. شعرت بدفء، وتمنيت لو أنني جالس جوارها الآن وجسدي يلامس جسدها. قلت:

- "جرابا" لي أنا أيضاً.

- وأنت سيدي؟

بدا المدير مرتبكاً قليلاً في البداية، ونظر إلي أخي. ولكن "سيرجي" هز رأسه نفياً:

- أريد الحساب فقط. أنا وزوجتي.. علينا أن..

ألقي نظرة على زوجته، نظرة مذعورة، أستطيع رؤيتها حتى من زاويتي هذه. ولن أتفاجأ لو قامت "بابيت" بطلب "اسبريسو" هي أيضاً.

Twitter: @alqareah

لكن "بابيت" كانت قد توقفت عن الانتحاب، وقالت للمدير وهي تضع المنديل على أنفها:

- لا شيء بالنسبة لي، شكرا لك.

- إذن اثنين "اسبريسو" واثنين "جرابا". أي "جرابا" تودان؟ لدينا سبعة أنواع مختلفة..

قاطعته "كلير":

- النوع العادي غير الممزوج.

انحني المدير انحناءة لا تكاد تري بالعين المجردة:

- "جرابا" صغير للسيدة. وأنت سيدي؟

- نفس الشيء.

وكرر "سيرجي":

- والحساب.

بعدما ابتعد المدير، التفتت "بابيت" إلي، وهي تحاول أن ترسم ابتسامة:

- وأنت يا "بول"؟ لم نسمع رأيك على الإطلاق. ما رأيك أنت؟

- أعتقد أنه أمر مثير للسخرية أن يختار "سيرجي" مقهانا ليقيم فيه المؤتمر.

اختفت الابتسامة، أو على الأقل محاولة الابتسامة، من وجه "بابيت". فقال "سيرجي" وهو ينظر إلي "كلير":

- "بول"، أرجوك.

- أجل، أعتقد أنه أمر مثير للسخرية. فنحن من عرفكما بهذا المقهي. وهو المكان الذي أذهب إليه مع "كلير" دوماً، لتناول أطباقهم اليومية المخصوصة. فلا يمكنك أن تتوجه إلي هناك ببساطة وتعقد مؤتمراً صحفيًّا.

Twitter: @alqareah

- "بول"، أنا أشك في كونك تدرك مدي جدية الـ..

قاطعته "بابيت":

- دعه يكمل.

- بل لقد انتهيت، فلن يمكنني أن أشرح أمراً كهذا طالما أن من أمامي لا يفهمه.

فقالت "بابيت":

- ظننا أنه مقهي لطيف. فليس لدينا سوي ذكريات لطيفة عن تلك الأمسية.

علق "سيرجي":

- طبق الرّيش!

انتظرت حتى أتأكد من أنه لن يقول أي شيء آخر، ولكنه سكت.

- هذا ما أقصده على وجه التحديد، ذكريات لطيفة. فأي نوع من الذكريات ستبقي معي أنا و"كلير" بعد هذا؟

- "بول"، لا تكون سخيفاً. نحن نتحدث عن مستقبل الولدين. ناهيك عن مستقبل بلدي.

فقالت "كلير":

- ولكنه على حق.

- أوه لا، من فضلك.

- لا، أرجوك أنت. المشكلة أنك توائم كل شيء يتعلق بنا. هذا ما يقوله "بول". تتحدث عن مستقبل الولدين، ولكنك غير مهتم حقا به، "سيرجي". لقد قمت باستغلال ذلك المستقبل. فقط كما تقوم باستغلال مقهي ليكون خلفية مؤتمرك الصحفي. فقط كي يبدو الأمر أكثر واقعية وأصالة. بل لم يخطر ببالك من الأصل أن تعرف رأينا.

قالت "بابيت":

Twitter: @alqareah

– ما الذي تتحدثان عنه؟ تتحدثان عن المؤتمر الصحفي وكأنه قد صار أمراً واقعًا. كنت أتوقع ما هو أكثر من ذلك منكما، كنت أتوقع أن تثنياه عن هذا الجنون. وخاصة أنتِ، "كلير". بعد هذا الذي قلته لي في الحديقة.

بينما قال "سيرجي":

– هل هذه هي المشكلة؟ المشكلة في المقهي؟ لم أكن أعلم أنه مقهاكما. ظننت أنه مكان عام، مفتوح للكل. اغفرا لي إذن.

جاوبته "كلير":

– إنه ابننا. وأجل، إنه أيضا مقهانا. ربما ليست لنا سيطرة على إدارته، ولكننا مرتبطان به، و"بول" محق عندما يقول بأن شرح هذا غير ممكن. فإما أن تفهم أو لا تفهم.

أخرج "سيرجي" هاتفه من جيبه وألقي نظرة على شاشته.

– معذرة، على أن أرد على هذه المكالمة.

وضع الهاتف عند أذنه، وتراجع بالمقعد وهم بالنهوض:

– مرحبا، هذا "سيرجي لومان".. مرحبا.

فألقت "بابيت" بالمنديل على الطاولة، وهي تردد:

– تباً له! تباً له!

ابتعد "سيرجي" بضع خطوات عن طاولتنا، يميل بجذعه قليلاً، ويسد أذنه الأخري بإصبعين. سمعته يقول: "لا، الأمر ليس كذلك. بل هو أشد تعقيدا". ثم مرق عبر بقية الطاولات، متوجها إما إلي دورة المياه أو إلي المدخل الأمامي.

التقطت "كلير" هاتفها من حقيبتها، وهي تنظر إلي وتقول:

– أريد أن أتحدث مع "ميشيل". كم الساعة الآن؟ لا أريد أن أوقظه.

Twitter: @alqareah

أنا لا أرتدي ساعة أبداً. منذ أن أحالوني إلي التقاعد قررت أن لا أربط حياتي بأوضاع الشمس المتغيرة، وبحركة دوران الأرض، أو شدة ضوء النهار.

و"كلير" تعرف أنني قد توقفت عن ارتداء الساعة.

- لا أدري.

شعرت بوخز في الجزء الخلفي من رقبتي، بسبب الطريقة التي كانت تنظر بها زوجتي إلي – تحدق في وجهي، هذا أقرب وصف – تجعلني أشعر بأنني مساق إلي شيء مجهول، وحتى ونحن في هذه المرحلة أجد أنه ليس لدي أدني فكرة عنه.

هذا أفضل من أن أنساق إلي اللا شيء. أفضل كثيراً من "والدك لا يعرف أي شيء عن هذا".

مالت "كلير" على "بابيت".

سألتها "بابيت":

- ما الأمر؟

أخرجت "بابيت" هاتفها من حقيبتها ونظرت إلي الشاشة. ثم أخبرتها بالوقت. ولكنها لم تعد الهاتف إلي مكانه، بل وضعته على الطاولة أمام عينيها. كما أنها لم ترد الرد المنطقي على "كلير": بوسعك أن تعرفي الوقت من هاتفك، أليس كذلك؟

قالت لها "كلير":

- حبيبي المسكين مكث وحده في المنزل طوال الليل. ورغم أنه لم يبلغ السادسة عشرة إلا أنه يتصرف كالكبار، ولكن..

- ولكن هناك أشياء لا يمكننا أن نعتبرهم صغاراً بشأنها.

سكتت "كلير" للحظة، ومررت لسانها عبر شفتها السفلي. هي تفعل هذا دائما عندما ينتابها الغضب:

Twitter: @alqareah

- في بعض الأحيان أعتقد أن هذا بالضبط مكمن خطئنا. ربما كنا لا نأخذ ما يجري بجدية كافية، "بابيت"، خاصة وأنهم صغار. ولكنهم أمام العالم الخارجي أضحوا فجأة كبارًا بالغين، ولأنهم اقترفوا شيئا نراه، نحن الكبار، جريمة. ولكني أشعر أنهما تعاملا مع ما حدث تعامل الأطفال. هذا هو بالضبط ما كنت أحاول أن أخبر به "سيرجي". ليس لنا الحق في حرمانهما من طفولتهما، لمجرد أن قواعدنا نحن الكبار تعتبر ما فعلاه جريمة يجب أن يدفعا ثمنها بقية حياتهما.

تنهدت "بابيت" بعمق:

- أخشي أنك على حق، "كلير". لقد صار الولد يفتقد إلي تلقائيته. ولقد كان دوماً هكذا.. حسنا، أنتما الاثنان تعرفان "ريك" جيداً. ولكن "ريك" الذي تعرفانه تغير. فلم يبارح غرفته على مدي الأسابيع القليلة الماضية. ولا ينطق بكلمة طوال جلوسه إلي المائدة. تغيرت نظراته، صارت بائسة، كما لو أن القلق تملكه في كل وقت. لم يكن هكذا أبداً، ولم يعرف ذلك القلق من قبل.

- ولكن الأهم هو طريقة تعاملكما مع هذه الحالة؛ أن تجيدا التعامل معها. فربما كان قلقاً بسبب أنه يظن أنكما تريدانه أن يكون هكذا.

بقيت "بابيت" صامتة. وضعت يدها على الطاولة، باسطة أصابعها، ودفعت هاتفها بعيدا عنها.

- لا أعرف، "كلير". والده.. أعتقد أن والده يتوقع منه أن يكون قلقاً أكثر مما أفعل أنا، على الرغم من أن رأيي هذا قد يكون فيه شيء من الظلم له. لكن "ريك" غالبا ما يجد صعوبة في التعامل مع والده. وبسبب والده ومكانته، يجد صعوبة في التعامل سواء في المدرسة أو في صداقاته. أعني أنه لا يزال في الخامسة عشرة، ورغم ذلك يعاني من حقيقة أنه ابن رجل مهم، ابن شخصية يتابعها الجميع في كل وقت على شاشة التلفزيون. وأحياناً ما يلمح إلي أن هذا يؤثر على صداقاته. يظن أن الناس لطفاء معه بسبب والده المشهور. أو العكس من ذلك؛ فالمعلمون يعاملونه معاملة غير عادلة في بعض الأحيان لأنهم غير مرتاحين لتلك الحقيقة. وأتذكر أنه عندما التحق بالمدرسة الثانوية قال لي:

Twitter: @alqareah

"ماما، سوف تكون بداية جديدة!" فقد كان سعيدا جداً. ولكن ما هو إلا أسبوع حتى كان الجميع في المدرسة قد عرفوا ابن من هو.

- وسرعان ما ستعرف المدرسة كلها شيئاً آخر عنه، إذا تركنا "سيرجي" ينفذ قراره.

- هذا ما أقوله له مراراً وتكراراً. إن "ريك" قد عاني بالفعل الكثير بسببه، وبطريقة أثرت سلباً عليه. والآن يريد "سيرجي" أن يقحمه في ورطة كهذه، ورطة ستدمره بالتأكيد.

تذكرت "بيو"، طفلهم الأفريقي بالتبني، والذي تظنه "بابيت" ملاكاً.

- إن "ميشيل" ما يزال على سجيته وعفويته. فهو بالطبع لم يحظ بأب مشهور، ولكن.. أمراً كهذا لا يشغل باله. حتى إنني أحيانا أقلق بشأن ذلك، لأنه لا يبدو لي محيطاً بخطورة ما حدث، وما قد يعنيه لمستقبله. هو في هذا الصدد يتصرف وكأنه طفل، طفل خالي البال، وليس كبيراً قلقا، ليس كمن كبر قبل الميعاد. كانت تلك معضلة حقيقية بالنسبة لي ولـ"بول"؛ أن نجعله يدرك حجم المسؤولية، ولكن من دون أن ندمر براءة طفولته.

نظرت إلي زوجتي. بالنسبة لي ولـ"بول".. منذ متي كنت و"كلير" نظن أن الآخر لا يعرف شيئا؟ منذ ساعة؟ خمسين دقيقة؟ نظرت إلي طبق "البلانشيه" الذي لم يمسسه "سيرجي". من الناحية الفنية، وتماما مثلما نفعل مع حلقات جذع شجرة أو الكربون 14، فإن من الممكن قياس الزمن عن طريق درجة ذوبان آيس كريم الفانيليا.

نظرت في عيني "كلير"، عيني المرأة التي تمثل السعادة بالنسبة لي. تجد رجلا يقول لك بكل عاطفة الدنيا: سأكون "كالضائع" من دون زوجتي، "تائه"، "معدوم الحيلة". وبالفعل، فما يقصده هو أن زوجته موجودة لتنظف وراءه ولتقدم له أقداح القهوة في كل ساعة من النهار. وأنا لست هذا الرجل؛ فمن دون "كلير" ما كنت سأضيع، ولكنني كنت سأصير في مكان آخر وحسب. قلت لهما:

Twitter: @alqareah

- أنا و"كلير" نري أن على "ميشيل" المضي قدماً في حياته. نحن لا نريد أن نتحدث معه من منطلق عقدة الذنب. أعني أنه مذنب بطريقة ما، ولكن هذا لا يعني في ذات الوقت أن أي متشرد يرقد داخل كابينة الصراف الآلي ينبغي أن يصبح مثالاً للبراءة فجأة. هذا هو القرار الذي ستسمعه إذا كنا سنخضعه إلى معيار العدالة المهيمن هنا. وهذا ما تسمعانه من حولكما طوال الوقت: ما الذي جري لشبابنا الضال، ولن تسمعا ولو كلمة واحدة عن المتشردين والصبع الذين يظهرون أمامك فجأة من العدم، وينامون أينما شاءوا. لا، إنهم يريدون إعطاءنا درساً، فقط عليكما أن تنتظرا وتريا؛ إن أي قاضٍ يكون قلقاً على أبنائه. فهو لم يعد قادراً على السيطرة عليهم. ونحن لا نريد أن نسلم "ميشيل" لبعض الغوغاء الذين لا يرتوون بغير الدم، وهم نفس الغوغاء الذين يطالبون بإعادة عقوبة الإعدام. ولهذا فإننا نري في "ميشيل" أثمن ما نملك، ولا يمكن أن نضحي به أمام رد فعل غوغائي كهذا. وما هو أكثر من ذلك أنه أذكي من الموقف، بل ويتعامل معه بما يليق به.

أخذت "كلير" تحدق في طوال كلمتي القصيرة، بتلك النظرة والابتسامة اللتين مثلتا جزءاً من سعادتنا، سعادة بمقدورها أن تواجه الكثير وتتغلب عليه، سعادة لا يمكن لأي غريب أن يتدخل فيها بسهولة.

ولكنها قالت بغتة، وهي ترفع هاتفها:

- أوه، كدت أنسي. كنت سأتصل بـ"ميشيل". كم هي الساعة؟

سألت "بابيت" وهي تضغط أول زر، ولكنها كانت تنظر إلي أنا.

مجدداً، ألقت "بابيت" نظرة على الشاشة وأخبرت "كلير" بالوقت.

وأنا لن أخبرك كم كانت الساعة بالضبط؛ فالأوقات المضبوطة تكون شوكة في ظهرك لاحقاً.

- هاي، حبيبي. كيف حالك؟ ألم يصبك الملل؟

Twitter: @alqareah

نظرت إلي وجه زوجتي. هناك دائما شيء غامض في ذلك الوجه، في عينيها، اللتين تتألقان كلما تحدثت إلي ابننا على الهاتف. لا، إنها تبتسم وتتحدث بمرح، لكنها لم تكن مبتهجة.

- أوكيه.. إننا سنتناول القهوة، وسنكون في المنزل في غضون ساعة، حتى تجد وقتاً لترتيب كل الفوضي. ماذا تناولت على العشاء..؟

سمعته، وأومأت برأسها، وقالت "نعم" و"لا" عدة مرات، ثم أغلقت الخط بعدما ودعت ابنها وعرفته أنها تحبه.

وأنا أحكي لك عن هذا، أتذكر أنني أدركت في تلك اللحظات، ربما بسبب وجهها الذي لم يكن مبتهجاً، أو ربما لأنها لم تأت على ذكر التقائنا بابننا في حديقة المطعم، أنني كنت أتفرج على مشهد تمثيلي قدير.

ولكن على من كانت تمثل؟ علي؟ هذا مستبعد. على "بابيت"؟ ولكن ما الهدف؟ لكني لاحظت أن "كلير" قد طلبت مرتين من "بابيت" وبشكل قاطع أن تخبرها كم الساعة، كما لو أنها تريد من "بابيت" ألا تنسي توقيت هذه المكالمة.

والدك لا يعرف أي شيء عن هذا.

وفجأة، عرف والده.

- الـ"أسبريسو" لمن؟

كانت فتاة من المتشحات بالسواد تحمل صينية فضية عليها قدحا "اسبريسو" ووكأسان صغيرتان من "الجرابا".

وخلال انهماكها في وضع القدحين والكأسين، وجدت زوجتي تضم شفتيها وكأنها تقبل الهواء.

نظرت إلي، وأرسلت إلي قبلة عبر الأثير.

Twitter: @alqareah

40

لم تمر فترة طويلة منذ أن كتب "ميشيل" مقالا عن عقوبة الإعدام، مقالا لمادة التاريخ. وكان أساسه فيلما وثائقيا عن قتلة أمضوا مدة عقوبتهم، وعادوا إلي المجتمع، ولكنهم سرعان ما ارتكبوا جريمة قتل أخري. وأورد الفيلم آراء مؤيدي ومعارضي عقوبة الإعدام. وكانت هناك مقابلة مع طبيب نفسي أمريكي أصر على أن بعض الناس لا ينبغي أبدا إطلاق سراحهم مرة أخري؛ "علينا أن نقبل بأن هناك وحوشًا حقيقية في المجتمع، وحوشًا لا ينبغي أبدا، وتحت أي ظرف، أن نطلق سراحهم".

وبعد بضعة أيام رأيت الصفحات الأولي من مقال "ميشيل" متروكة على مكتبه. وكان قد جلب صورة من الإنترنت لتكون غلافاً توضيحياً للمقال؛ صورة لسرير المستشفي الذي يرقد عليه المدان، في بعض الولايات الأمريكية، حتى يتم حقنه بالحقنة القاتلة.

قلت له:

- إذا كان من الممكن أن أساعدك في أي شيء..

وبعد بضعة أيام أخري عرض على المسودة الأولي، وقال لي:

Twitter: @alqareah

- أود أن أعرف منك ما إذا كان بوسعي أن أفعل هذا.

- تفعل ماذا؟

- لا أعرف. أحيانا أفكر في أمور.. ولكنني لا أعرف إذا كان من الطبيعي أن يفكر المرء في أشياء من هذا القبيل أم لا.

قرأت المسودة، وأعجبت بها. فبالنسبة لصبي في الخامسة عشرة، كانت لدي "ميشيل" نظرة جديدة لعدد من جوانب مفهوم الجريمة والعقاب. وقد تناول العديد من المعضلات الأخلاقية وحتى التبعات الأكثر تطرفا. فهمت ما كان يعنيه عندما تحدث عن أمور ليس من الطبيعي أن يفكر فيها.

قلت وأنا أعيد المقال إليه:

- جيد جدا. لو كنت مكانك لما قلقت على مستوي المقال. فقد منحت نفسك مساحة حرية تفكير كبيرة. وليس هناك من سبب يدفعك إلي التوقف في هذه المرحلة. ولقد دونت كل أفكارك بوضوح شديد. دع الآخرين يحاولون البحث عن ثغرات فيه، إن استطاعوا.

ومنذ ذلك الحين، سمح لي بأن أقرأ النسخ اللاحقة كذلك. تناقشنا حول المعضلات الأخلاقية. وإني لأتذكر تلك الأيام وأنا سعيد، سعيد.

بعد أقل من أسبوع من تقديمه مقالته، تم استدعائي إلي مكتب مدير المدرسة، أو، بالأحري تلقيت دعوة هاتفية للحضور، في يوم معين، وفي وقت معين، والموضوع هو ابني "ميشيل". وعلي الهاتف، سألت المدير عما إذا كان هناك أي شيء خاص يلزم أن أعرفه. وعلي الرغم من أنني كنت أشك في أن للأمر علاقة بمقالته عن عقوبة الإعدام، إلا أنني أردت التيقن من ذلك من فم الرجل نفسه، ولكنه تجاهل السؤال: "هناك عدد من الأمور التي أود أن أتحدث إليك عنها، ولكن ليس عبر الهاتف".

في تلك الظهيرة كنت في مكتبه. دعاني المدير إلي الجلوس في مقعد قبالة مكتبه.

Twitter: @alqareah

- أود أن أتحدث معك عن "ميشيل".

وضعت ساقاً فوق الأخري، وأنا أقاوم رغبة في أن أرد قائلاً:

- بالطبع، ومن غيره؟

ولكنني اكتفيت بالجلوس جلسة المنصت.

علي الجدار من خلفه ملصق عملاق لإحدي مؤسسات الإغاثة، ولا أستطيع أن أتذكر الآن ما إذا كانت "أوكسفام نوفيب" أو "اليونيسيف": تري أمامك حقلا قاحلا جافًا؛ وفي أسفل اليسار طفل يرتدي خرقاً، رافعاً يديه الصغيرتين اللتين تجسدان المجاعة بعينها.

أثار هذا الملصق أعصابي. الأغلب أن مدير المدرسة من معارضي الاحتباس الحراري وأي ظلم بشكل عام. ربما لا يأكل لحوم الثدييات، وربما يكون معاديًا لأمريكا، أو مناهضا لـ"بوش". هذا الموقف الأخير يعطي صاحبه الحق الكامل في الاكتفاء بذلك وعدم التفكير في أي شيء أكثر من ذلك. فكل شخص كان ضد "بوش" على صواب، ومن حقه بعد ذلك التصرف مثل أي أحمق غير مثقف تجاه الناس من حوله.

قال المدير:

- حتى الآن، كنا راضين كل الرضا عن "ميشيل".

شممت رائحة غريبة، لم تكن رائحة عرق مثلاً، ولكنها أقرب إلي رائحة القمامة التي تم فصلها لأجل تجميعها - أو، على وجه الدقة، القمامة التي ينتهي بها المطاف في الحاوية الخضراء ـ لم أستطع أن أهرب من فكرة أن الرائحة قادمة من مدير المدرسة نفسه؛ ربما لم يستخدم مزيل العرق، من أجل حماية طبقة الأوزون، أو أن زوجته تغسل ملابسه بالمنظفات صديقة البيئة؛ وكما يعلم الجميع، فالمنظفات من هذا النوع تحول الملابس البيضاء إلي رمادية مع تكرار الغسيل، كما أن من المحال أن تعود نظيفة من جديد.

Twitter: @alqareah

استطرد المدير:

- ولكنه في الآونة الأخيرة كتب مقالاً لمادة التاريخ وجدنا فيه ما يبعث على القلق، أو على الأقل لفت انتباه مدرس التاريخ، السيد "هالسيما"، الذي حضر إلي ومعه المقال.

قلت له وأنا أضع حداً للف والدوران:

- عقوبة الإعدام.

نظر المدير إلي للحظة؛ في عينيه شيء ممل، وتبدوان خاليتين من أي تعبير، هناك نظرة ملول تعكس مستوي ذكاء دون المتوسط، ويفترض صاحبها - وهو مخطئ - أنه قد خبر الحياة من جميع جوانبها.

التقط شيئاً من فوق المكتب وأخذ يتصفحه:

- بالتأكيد.

(عقوبة الإعدام).

قرأت العبارة بأحرف بيضاء مألوفة على خلفية سوداء، وأسفلها تلك الصورة لسرير في مستشفي.

وتابع كلامه:

- وبالأخص تلك الفقرات؛ هنا مثلاً: "... بالنظر إلي عدم إنسانية عقوبة الإعدام على النحو الذي تنفذه الدولة، فقد يتساءل المرء عما إذا كان من الأفضل، بالنسبة لبعض المجرمين، وفي مرحلة مبكرة من حياتهم...".

- ليس عليك أن تقرأها بصوت عال، فأنا أعرف ما تقوله الفقرة.

تلك النظرة على وجه المدير تنم عن أنه لم يعتد أن يقاطعه أحد.

- حسنا. أنت إذن على دراية بمحتوي المقال.

Twitter: @alqareah

– ليس هذا فحسب، بل وساعدت ابني في بعض النقاط، بعض النصائح، ولكنه كتب السواد الأعظم منه بنفسه طبعاً.

– ولكنك على ما يبدو لم تجد أي ضرورة لتقديم مشورة له بشأن القسم الذي يتحدث فيه عن "تنفيذ الناس للقانون بأيديهم"؟

– لا. لكنني انتقدت اختياره لهذا التعبير.

– فماذا تسميه أنت إذن؟ إنه يتحدث وبوضوح عن تطبيق عقوبة الإعدام قبل أية محاكمة.

– ولكنه يتحدث أيضا عن عدم إنسانية عقوبة الإعدام. تلك العقوبة السريرية الباردة التي تنفذها الدولة بإبرة تحقن تحت الجلد، أو بالكرسي الكهربائي. وعن كل تلك التفاصيل المروعة حول الوجبة الأخيرة التي يسمح للمدان أن يختارها بنفسه. طبقك المفضل، للمرة الأخيرة، سواء كان ذلك الكافيار مع الشمبانيا أو شطيرة مزدوجة من "برجر كينج".

كانت المعضلة التي واجهتها هي تلك التي سيواجهها كل أب عاجلا أو آجلا؛ فأنت تريد أن تدافع عن طفلك، وتتصدر له كما يقولون، ولكن يجب عليك أن تفعل ذلك بحنكة، وألا تدعي البلاغة، فعليك ألا تدفع الشخص الذي أمامك إلي أن يكون حبيس زاوية ما أثناء الحوار. لا تبقيه في "خانة اليك". فهم – التربويين والمعلمين – سيتركونك تتكلم كما تشاء، ولكنهم سينتقمون منك فيما بعد في طفلك. ربما تكون وجهة نظرك أفضل منهم – وهذا أمر يسير عند أي حوار مع التربويين والمعلمين – ولكن ابنك سيدفع الثمن في النهاية، فسوف ينتصرون لأنفسهم من خلال ابنك وليس منك.

– نحن جميعا ننظر إلي الأمر هذه النظرة. أي إنسان طبيعي بعقل راجح يري عقوبة الإعدام لا إنسانية. وهذا ليس ما أتحدث عنه هنا، فقد عبر "ميشيل" عن هذا بشكل جيد للغاية. أنا أتحدث فقط عن الفقرة التي يحاول فيها تبرير قتل وتصفية المشتبه بهم، سواءً عن طريق الخطأ أم خلاف ذلك، قبل أن تتم محاكمتهم.

Twitter: @alqareah

– وأنا أعتبر نفسي طبيعيًّا وبعقل راجح. وأرى أيضا أن عقوبة الإعدام غير إنسانية. ولكننا وللأسف نحيا في هذا العالم مع بشر معدومي الإنسانية. فهل ينبغي لنا أن نسمح لأمثال هؤلاء، وبعد خروجهم مبكراً بضع سنوات بداعي حسن السير والسلوك، أن يعودوا للاندماج في المجتمع؟ أعتقد أن هذا ما كان "ميشيل" يتحدث عنه.

عاد يتصفح المقال وهو يقول:

– وهكذا يكون من حقك وببساطة أن ترديهم قتلى، أو كيف صاغ هو هذه الفكرة؟ "نلقيهم من النافذة"؟ نافذة الطابق العاشر لمركز الشرطة، هكذا قال. أرى أن هذا أمر يصعب الاقتناع به في ظل سيادة سلطة القانون.

– لا، ولكنك الآن تخرج العبارات من سياقها. نحن نتحدث هنا عن أسوأ نوع من البشر؛ "ميشيل" يتحدث عن أناس يغتصبون الأطفال، ويبقونهم سجناء لسنوات. وهناك عوامل أخري تلعب دورا كذلك. وخلال المحاكمة، تجد كل الأساليب القذرة تحت مظلة اسمها "عملية قانونية عادلة". ولكن من هذا الذي سيحتمل ذلك؟ آباء أولئك الأطفال؟ هذه هي النقطة الحاسمة التي تتهرب منها الآن. لا، الناس المتحضرة لا ترمي غيرها من النافذة. ولا تسمح بأن تنطلق رصاصة بطريق الخطأ والمجرم في الطريق من مركز للشرطة إلي السجن. ولكننا لا نتحدث هنا عن الأناس المتحضرين. بل عن أناس سيكون الجميع مرتاحًا لو أنهم اختفوا من فوق ظهر هذا الكوكب.

– أجل، هذا ما كتبه. إطلاق الرصاص على رأس مشتبه به، بطريقة تبدو وكأنها غير مقصودة؛ أثناء وجوده في عربة الشرطة. الآن تذكرت.

أعاد المدير المقال إلي مكانه فوق المكتب، وقال لي:

– أكانت هذه نصيحة من بين نصائحك له، سيد "لومان" أم أنها من بنات أفكار ابنك؟

Twitter: @alqareah

شيء ما في نبرة صوته جعل الشعر يقف في الجزء الخلفي من رقبتي؛ وفي الوقت نفسه، شعرت بوخز في أطراف أصابعي، أو هو "تنميل" بها. كنت متحفزاً. أردت أن أسدي كل فضل المقال إلي "ميشيل" – فهو على أي حال أكثر ذكاء من كومة السماد المغفلة التي تجلس قبالتي هنا – ولكنني راغب أيضاً في حمايته من التعرض لمضايقات في المستقبل. خطر لي أن الأمر قد يصل إلي حد الطرد من المدرسة. و"ميشيل" سعيد بهذه المدرسة، كما أن أصدقاءه فيها.

قلت له:

– على أن أعترف أنه قد انساق وراء آرائي الخاصة بشأن هذه المسائل. فقد صارحته بأفكاري حول الطريقة الأمثل للتعامل مع هؤلاء المشتبهين. وقد أكون، بقصد أو دون قصد ربما، ضغطت عليه بهذه الأفكار.

حدجني المدير بنظرة فضول؛ نظرة فضولية شبه ذكية.

– ولكنك قلت قبل قليل إن ابنك هو من كتب أغلب المقال بنفسه.

– هذا صحيح. وأنا قصدت الفقرات التي وصف فيها عقوبة الإعدام التي تنفذها الدولة بكونها غير إنسانية.

عندما تواجه صاحب الذكاء المحدود، فإن عليك أن تتبع الاستراتيجية الأشد فعالية في رأيي: الكذب السافر. فمع كل كذبة تمنح الأحمق الذي أمامك فرصة للتراجع دون إراقة ماء الوجه. وما هو أكثر من ذلك، فهل أنا أتذكر الآن حقا أي جزء من المقال كان فكرتي وأي فكرة كانت من بنات أفكار "ميشيل"؟ إنني لأتذكر حواراً، على مائدة العشاء، حول قاتل تم الإفراج عنه تحت الاختبار، قاتل لم يمر على إطلاق سراحه سوي بضعة أيام، وكان في الأغلب قد ارتكب خلالها جريمة قتل أخري.

قال لي "ميشيل" حينها:

– لا ينبغي عليهم أن يطلقوا سراح أمثال هؤلاء أبداً.

Twitter: @alqareah

سألته:

- لا يطلقوا سراحه أبداً، أم لا يعيدونه إلي السجن أبداً؟

فقد كان "ميشيل" في الخامسة عشرة، ونتحدث معه حول كل شيء، وهو مهتم بكل شيء: الحرب في العراق، الإرهاب، الشرق الأوسط، وهم في المدرسة لا يتناولون هذه القضايا، كما قال لي، بل يدورون حولها وحسب.

سألني:

- ما الذي تقصده من قولك لا يعيدونه إلي السجن أبداً؟

- ما قلته بالضبط.

نظرت إلي المدير. هذا "الفسل"، الذي يؤمن بالاحتباس الحراري وبالقضاء التام على كل الحروب والظلم، وربما كان يؤمن أيضا بإمكانية علاج المغتصبين والقتلة السفاحين؛ وأن الأمر لا يتطلب سوي سنوات مع طبيب نفسي، وبعدها يمكن إطلاقهم من جديد إلي العالم الحقيقي.

مدير المدرسة، الذي كان حتى هذه اللحظة يميل بجذعه إلي الوراء قليلا في كرسيه، ينحني الآن إلي الأمام، ويسند ساعديه على المكتب باسطًا كفيه وأصابعه.

- إذا لم أكن مخطئا، فأنت كنت تعمل من قبل في سلك التدريس؟

هكذا صرت أؤمن بصدق رد فعل ذلك الشعر القليل في الجزء الخلفي من رقبتي وذلك الوخز في أصابعي: فعندما يوشك معدوم الذكاء أن يخسر جدالاً، فإنه يتشبث بقشة أخري من أجل أن يجد مبرراً لخسارته.

- عملت في التدريس بضع سنوات.

- كان هذا في مدرسة [...]، أليس كذلك؟

Twitter: @alqareah

ذكر اسم المدرسة، وهو اسم لا يزال يبعث في أحاسيس متضاربة، وكأنه اسم مرض شفيت منه تماماً، ولكنك تدرك أن أعراضه قد تظهر عليك مجدداً في أي جزء آخر من أجزاء جسدك.

- أجل.

- وتم إحالتك إلي التقاعد.

- ليس بالضبط. أنا من اقترح أن أنقطع عن التدريس لفترة. وربما أعود إليه من جديد، حينما أجد الوقت مناسباً.

تنحنح المدير ونظر إلي ورقة كانت أمامه على المكتب.

- ولكنك لم تعد إلي التدريس. وقد مر على هذا الكلام عشر سنوات.

- ولكن بوسعي أن أعود إليه في الغد، في مدرسة أخري.

- ولكن معلوماتي تقول - وهي معلومات أرسلتها إلي مدرسة [...] - أن من يقرر أمر عودتك إلي التدريس من عدمها تقرير يصدر عن طبيب نفسي؛ أي إن القرار ليس قرارك.

مرة أخري، اسم تلك المدرسة! شعرت بالعضلات تحت عيني اليسري تختلج، لم تكن اختلاجة ظاهرة، ولكن البعض قد يفسر ذلك بأني قد انزعجت. ولهذا تظاهرت وكأن شيئًا ما أصاب عيني، وفركتها بأصابعي، ولكن هذا زاد من وقع تلك الاختلاجة.

- أوه، هذا لا يعني شيئًا. أؤكد لك، أنا لست بحاجة إلي توقيع من طبيب نفسي يسمح لي بممارسة مهنتي.

عاود مدير المدرسة النظر في الورقة.

- هذا ليس ما هو مكتوب هنا.. مكتوب هنا أن..

خرج صوتي حاداً، آمراً، بصورة لا تدع مجالاً لأي سوء فهم:

Twitter: @alqareah

- هلا أعطيتني هذه الورقة التي تحملق فيها؟

- لو تركتني أكمل؛ قبل أسابيع قليلة تصادف أن التقيت زميلا سابقًا يعمل في [...] هذه الأيام. أنا لا أتذكر بالضبط كيف وصل بنا الحديث إلى هذه النقطة، فقد كنا نتحدث، حسبما أذكر، عن الضغط الواقع على المعلمين بشكل عام. وعن حالات الانهيار العصبي. وذكر اسماً بدا مألوفاً لي. لم أكن أعرف السبب في البداية، ولكن بعد ذلك تذكرت "ميشيل". ثم تذكرتك.

- أنا لم أصب بأي انهيار عصبي، وهذا مصطلح فضفاض. أؤكد لك أن هذا لم يحدث.

التمعت عينا المدير، واختلجتا، كما لاحظت، فاعتبرت ذلك دليلا على ضعف مفاجئ. أو، في الواقع، هو الخوف. لم أكن لأحدد السبب، ولكن ربما كانت نبرة صوتي؛ فقد نطقت بتلك الجمل القليلة ببطء شديد، ببطء جعل إشارات التحذير تومض في عقل المدير.

- ولكنني لم أقل إنك قد أصبت بانهيار عصبي.

كان يطرق سطح المكتب بأصابعه. واختلجت عيناه مرة أخري! نعم، شيء ما قد تغير، واختفت تلك اللهجة المتحذلقة التي كان يحاول أن يقنعني بها بنظرياته الضعيفة حول عقوبة الإعدام.

يمكنني أن أشم تلك الرائحة بوضوح الآن، رائحة طغت على رائحة السماد التي تفوح منه؛ رائحة الخوف. الرائحة التي يشمها الكلب فيعرف أن الإنسان الذي أمامه خائف؛ تبينت وجود رائحة غامضة ولكنها مهيمنة، لم تكن موجودة من قبل.

أعتقد أنها كانت تلك اللحظة التي هممت فيها بالنهوض من مقعدي، لا أتذكر بالضبط، فهناك فجوة زمنية أعقبت تلك اللحظة، وأنا عاجز عن العودة إليها في ذاكرتي. لا أذكر أن حوارنا قد استمر. وعلي كل حال، وجدت نفسي واقفاً فجأة. كنت قد وقفت وبقيت أنظر إلي المدير.

Twitter: @alqareah

ما حدث بعد ذلك كان له علاقة كبيرة بهذا الفارق في الارتفاع، فقد بقي المدير جالسا وكنت أنظر إليه من فوقه، أحيط به، هذا هو الوصف الأقرب. إنه قانون غير مكتوب، بنفس الطريقة التي ينحدر بها الماء إلي المستوي الأدني، أو أقربه لك بتوصيف حيواني أفضل؛ فقد كان المدير في وضع لا يمنحه أي ميزة حركية وهو قابع في كرسيه، وكأنه وجد نفسه في موقف ضعف انقيادي تام. والكلاب تفعل الشيء نفسه؛ فهي تصبر لسنوات وتترك أصحابها تطعمهم وتدللهم، حتى تصير لطيفة كالحملان، وهي حيوانات جميلة حقا، ولكن يأتي يوم ويفقد صاحبها اتزانه فجأة، ويتعثر ويسقط. وفي غضون ثوان تجد هذه الكلاب وقد انقضت عليه، تنهش بأسنانها عنقه حتى الموت، ولا تتركه إلا وقد مزقته إرباً. إنها الغريزة؛ فمن يسقط ضعيف، ومن يقع فريسة.

- أنا أصر على أن تريني هذه الورقة.

كنت أشير بإصبعي إلي تلك الورقة أمام المدير، والتي غطاها الآن بكلتا يديه. كانت هذه حركة رسمية مبالغًا فيها مني، لأن أوان هذه الشكليات قد فات بالفعل.

- سيد "لومان"...

جاوبته بلكمة قوية في أنفه. تفجر الدم منه على الفور، الكثير من الدم. تناثر من منخاريه على قميصه ومكتبه، وعلي الأصابع التي تحاول الآن سد أنفه ومنع الدم.

درت حول المكتب وسددت لكمة جديدة إلي وجهه، استقرت هذه المرة على أسنانه التي آلمت أصابعي وهي تتهشم. صرخ، وصاح بكلام غير مفهوم، ولكنني كنت قد جذبته بالفعل من فوق كرسيه. ولا شك أن هناك من سمع صراخ المدير، وما هي إلا نصف دقيقة حتى يكونوا قد هرعوا جميعاً إلي هنا، ولكن بوسعك في ثلاثين ثانية أن تحدث الكثير والكثير من الضرر؛ ثلاثين ثانية تكفيني.

- أيها الخنزير القذر النتن الحقير.

Twitter: @alqareah

أتبعت كلامي بقبضة استقرت في وجهه وبركلة وجدت طريقها إلي أحشائه. وعندئذ اقترفت خطأ. فقد أيقنت أن قوي المدير قد خارت؛ وقلت لنفسي إني سأقضي عليه قبل حضور مدرسيه.

ولكنه، وبسرعة كبيرة، نجح في أن يضرب وجهي برأسه، ثم أحاط خصري بذراعيه وجذبني نحوه، مما أفقدني توازني فسقطت.

- تباً لك!

وهرب المدير، ليس نحو الباب، ولكن إلي النافذة. فتحها قبل أن أقف على قدمي مجدداً. وأخذ يصرخ طالباً النجدة.

ولكنني لحقت به. شددته من شعره فانجذب رأسه للخلف، وسرعان ما ضربت رأسه بإفريز النافذة. كنت أصيح في أذنه:

- نحن لم ننته بعد!

تجمع كثير من الناس في فناء المدرسة، أغلبهم من الطلاب، فلابد أنها الفسحة. كانوا يتابعون المشهد.

ميزت الصبي صاحب القبعة السوداء من بينهم على الفور؛ فشعرت ببعض الراحة، والطمأنينة، وأنا أجد وجهاً أعرفه من بين كل هذه الوجوه. كان يقف مع مجموعة صغيرة، منتحين جانباً، وقريبين من الدرج المفضي إلي المدخل الأمامي، ومعهم بضع فتيات وصبي معه سكوتر. كان الصبي ذو القبعة السوداء يضع سماعات الأذن حول رقبته.

لوحت له. أتذكر هذا بوضوح. لوحت إلي "ميشيل"، وأنا أحاول أن أبتسم. كنت أريده أن يري يدي تلوح له وأن يري وجهي يبتسم له. كنت أريده أن يعرف أني قد حضرت حسب طلب المدير، وأننا تحاورنا حول مقاله، وأننا على وشك أن نسوي هذه المسألة للأبد.

Twitter: @alqareah

41

عاد "سيرجي" إلي الطاولة، وقال لنا وهو يجلس واضعاً هاتفه في جيبه:

- لقد كان هذا رئيس الوزراء. كان يريد أن يعرف الغرض من المؤتمر الصحفي في الغد.

كان بوسع أي واحد منا نحن الثلاثة أن يسأله في هذه اللحظة: "حسنا؟ وماذا قلت له؟" ولكن أحداً لم ينبس ببنت شفة. وأحيانا ما يرتاح الناس لصمت مثل هذا، خاصة عندما يدركون أن ما يودون قوله بديهي لدرجة تمنع التفوه به. ولو كان "سيرجي" قد ألقي نكتة- نكتة من النوع الذي يبدأ بسؤال: لماذا لا يمكن لاثنين من الصينيين الذهاب إلي الحلاق في نفس الوقت؟ - لما نال سوي صمت مماثل.

نظر أخي إلي طبق الحلو الذي، ربما من باب الذوق، لم يرفعه أحد حتى الآن.

- قلت له إنني لا أود أن أعرّفه بأي شيء عنه، ليس الآن، وليس هذا المساء. فأعرب عن أمله ألا يتعلق الأمر بشيء خطير، من قبيل انسحابي من السباق. قال لي بالحرف: "ستكون خيبة أمل مريرة بالنسبة لي، لا يمكن أن تستسلم في هذه المرحلة، وقبل سبعة أشهر من الانتخابات".

كان "سيرجي" يحاكي صوت رئيس الوزراء، ولكنه كان تقليداً سيئاً فجاً، مثل من يأتي بقلم ويتتبع خطوط رسم كاريكاتوري؛ فلا هو رسم كاريكاتير جديدًا ولا هو قدم لنا حتى الكاريكاتير القديم.

Twitter: @alqareah

- قلت له الحقيقة، وأنني ما زلت أتشاور مع عائلتي. وأن الخيارات جميعها مفتوحة.

وقت انتخاب رئيس الوزراء هذا، انطلق سيل من النكات: عن مظهره، عن طريقته الخشبية وهو يتحدث في خطبه، وعن زلات لسانه التي لا حصر لها. ومنذ ذلك الحين، اعتاد الناس عليه واعتاد هو على الناس. فهي أمور تنتهي وتنحسر بالاعتياد، مثل أية بقعة تجد مستقراً لها على ورق الحائط، بقعة تبدو لك مع مرور الزمن أنها جزء لا يتجزأ من ديكور الجدار، حتى إنك تفتقدها لو حدث وقرر أحد أن ينظف مكانها ويزيلها للأبد.

قالت "كلير":

- أوه، هذا خبر جديد. لا تزال الخيارات جميعها مفتوحة. ظننت أنك قلت بأنك قد حسمت أمرك، وأمرنا.

حاول "سيرجي" أن ينظر إلي زوجته، ولكنها تظاهرت بالانشغال بالهاتف الملقي فوق الطاولة أمامها. فتنهد وهو يقول:

- أجل، أبقي الخيارات مفتوحة. أريد أن نقوم بهذا سوياً. مثل.. مثل عائلة.

قلت:

- كما اعتدنا دوماً أن نفعل.

تذكرت "الماكاروني ألا كاربوناري"، والمقلاة التي ضربت بها وجهه حينما حاول أن يأخذ ابني مني، ولكن من الواضح أن ذاكرة "سيرجي" ليست بقوة ذاكرتي، لأنني وجدته يبتسم لي بود.

- أجل. على أن.. علينا أن نذهب الآن. "بابيت".. لماذا تأخروا في إحضار فاتورة الحساب؟

نهضت "بابيت" وقالت وهي تلتفت إلي "كلير":

Twitter: @alqareah

- أجل، هيا بنا. هل سترافقاننا؟

رفعت "كلير" كأس "الجرابا" نصف الممتلئ:

- اسبقانا أنتما، وسوف نلحق بكما خلال دقائق.

مد "سيرجي" يده نحو زوجته. خيل لي أن "بابيت" ستتجاهله، ولكنها لم تفعل، بل لقد تركت ذراعها لـ"سيرجي".

- يمكننا أن..

كان يبتسم، مبتهجاً وهو يضع ذراع زوجته في ذراعه.

- سنتحدث عن كل هذا فيما بعد. ويمكننا الجلوس في المقهي لمزيد من النقاش.

قالت "كلير":

- لا بأس، "سيرجي". اسبقانا إلي هناك. سوف نفرغ أنا و"بول" من "الجرابا" ونلحق بكما إلي هناك.

- الحساب إذن.

أخذ يتحسس جيوبه، وكأنه يبحث عن محفظته أو بطاقته الائتمانية.

فقالت "كلير":

- لا تقلق. سوف نتولي نحن الحساب.

وبعد ذلك غادرا فعلا. راقبتهما وهما يتجهان صوب باب الخروج، وذراع أخي في ذراع زوجته. عدد محدود من ضيوف المطعم هو من رفع رؤوسه وراقبهما وهما ينصرفان. ويبدو أن آفة الاعتياد قد أصابتهم بدورهم؛ فلو أنك مكثت في مكان واحد لفترة كافية، فسرعان ما تصير وجها مثل بقية الوجوه.

Twitter: @alqareah

وبينما كانا يجتازان منطقة المطبخ المفتوح، هرع نحوهما صاحب المطعم: "تونيو" – لابد أن اسمه في جواز السفر "أنطون"– توقف "سيرجي" ومعه "بابيت". كانت الأيادي ترتعش. وهرعت النادلات نحوهما ومعهن المعطفان.

سألتني "كلير":

– هل انصرفا من المطعم؟

– على وشك.

جرعت زوجتي ما تبقي من "الجرابا". ووضعت يدها فوق يدي. وقالت لي وهي تضغط على أصابعي بلطف:

– لابد أن تفعل شيئاً.

– معك حق علينا أن نمنعه.

عندئذ رفعت "كلير" يدها.

– عليك أنت أن تمنعه.

حدجتها بنظرة.

– أنا؟

تساءلت، برغم أني كنت أشعر بأن هناك شيئًا ما؛ شيئًا لا يمكن أن أرفضه.

– عليك أن تتصرف معه.

بقيت أحدق في وجهها.

– افعل أي شيء يمنعه من عقد ذلك المؤتمر الصحفي في الغد.

في تلك اللحظة بالذات، انطلق رنين هاتف من مكان قريب. بدأت الرنة أولاً بصفير متقطع هادئ، ثم أخذ يعلو صانعاً نغمة.

نظرت "كلير" إلي في تساؤل، ونظرت إليها. هززنا رأسينا في اللحظة ذاتها.

Twitter: @alqareah

كان هاتف "بابيت" لا يزال في مكانة فوق الطاولة مختفيًا تحت منديل. نظرت بشكل غريزي نحو باب الخروج. كان "سيرجي" وبـ"يابيت" قد انصرفا. مددت يدي نحو الهاتف، ولكن "كلير" كانت أسرع مني.

فتحت غطاء الهاتف ونظرت إلي الشاشة ثم أغلقته، وتوقفت النغمة.

- إنه "بيو".

Twitter: @alqareah

42

قالت "كلير" وهي تعيد وضع هاتفها في مكانه، بل وتأكدت من تغطيته بالمنديل:

- إن أمه منشغلة لدرجة تمنعها من التحدث إليه الآن.

لم أعلق وانتظرت. انتظرت ما ستعقب به زوجتي.

تنهدت "كلير" بعمق:

- هل تعرف أنه.. أوه، "بول".. "بول"..

أزاحت شعرها بحركة من رأسها إلي الوراء. رأيت عينيها مغرورقتين بالدموع، ولكنها ليست بدموع أسف أو يأس؛ هي دموع غضب.

- إنه ماذا؟ ..

لم تكن "كلير" تعرف بأمر مقاطع الفيديو، هذا ما ظننته طوال تلك الليلة. وكنت أتمني أن أكون على صواب.

- إن "بيو" يبتزهم.

عاودني ذلك الشعور بوخز بارد في صدري. وأخذت أمسح بيدي على خدي، حتى إذا احمر وجهي لا تحدس هي شيئاً من وراء هذا الاحمرار.

- حقاً؟ ما الذي تقصدينه؟

تنهدت "كلير" مجدداً. وضربت بقبضتيها على سطح الطاولة.

Twitter: @alqareah

- أوه، "بول". كم كنت أود أن أبقيك بعيداً عن هذه المشكلة. لم أكن راضية عما حدث.. ولم أكن راغبة في أن تغضب بسببها. ولكن الأمور تغيرت تماما الآن. لقد فات الأوان على كل حال.

- ما الذي تعنينه بأنه يبتزهم؟ "بيو"؟ وبماذا؟

صدر صوت من أسفل المنديل. نغمة تنبيه واحدة هذه المرة. وكان هناك ضوء وامض أزرق يصدر عن هاتف "بابيت"، كما لو أن "بيو" قد ترك رسالة.

- لقد كان هناك. هذا ما يزعمه على الأقل. يقول بأنه كان ينتوي العودة إلي المنزل، ولكنه غير رأيه وقرر العودة إليهما. حين رأي ما رأي، وكانا خارجين من الكابينة.

تبددت البرودة من صدري. وراودني شعور جديد، أقرب إلي السعادة. وتوخيت ألا تبدر مني ابتسامة.

- والآن يسعي إلي المال. أوه، هذا الأحمق الصغير! لقد كنت دوماً.. وأنت كذلك أيضاً، أليس كذلك؟ كان رأيك أنه خبيث، قلتها لي ذات مرة. أنا أتذكر هذا جيداً.

- ولكن هل لديه إثبات؟ هل يمكنه أن يثبت أنه رآهما؟ هل بوسعه إثبات أن "ميشيل" و"ريك" قد ألقيا بذلك الجركن؟

قصدت أن أسألها هذا السؤال الأخير حتى أطمئن نفسي للأبد. أتأكد لآخر مرة. وبداخل عقلي، انفتح باب. ومن خلال فرجة الباب، انبعث ضوء ساطع، ضوء دافئ. ومن خلف الباب هناك غرفة، بها عائلة سعيدة.

- كلا، ليس لديه إثبات. ولكن ربما لا يكون بحاجة إليه. فلو أن "بيو" قصد الشرطة واتهم "ميشيل" و"ريك".. ومع أن تلك الصور من الكاميرا الأمنية غير واضحة، إلا أنه سيكون من السهل عليهم إيجاد رابط ما إن تتم المضاهاة بينها وبينهما.. أنا لست متيقنة من هذا.

والدك لا يعرف أي شيء. عليك أن تفعلها الليلة.

- ولكن "ميشيل" لم يكن هناك، أليس كذلك؟ حينما هاتفته الآن. حينما كنت تتعمدين أن تسألي "بابيت" عن الساعة.

Twitter: @alqareah

ظهرت ابتسامة على وجه "كلير". أمسكت بيدي ثانيةً وضغطت عليها بلطف.

- لقد حادثته. كلاكما سمعني. حادثته. و"بابيت" هي الشاهدة المحايدة التي سمعتني أتحدث مع ابني في توقيت محدد. وسيكون بوسعهم تفقد ذاكرة الهاتف ليتحققوا من أن المكالمة قد تمت ويتأكدوا من مدتها. وكل ما علينا هو أن نمحو رسائل جهاز الرد الآلي في هاتف منزلنا عندما نعود إليه.

بقيت أنظر إلي زوجتي. ولابد أنها كانت نظرة إعجاب. لم أكن مضطراً إلي تصنعها؛ كنت معجباً بها فعلاً.

- بينما هو الآن مع "بيو".

أومأت برأسها:

- ومعهما "ريك". ليس في بيت "بيو"، لقد تواعدا في مكان ما. بالخارج.

- وما الذي سيفعلانه مع "بيو"؟ هل سيحاولان دفعه إلي التراجع عن هذا الابتزاز؟

الآن وضعت يدها الأخري فوق يدي.

- "بول"، لقد أخبرتك أني أريدك أن تبقي بعيداً عن هذه المشكلة. ولكن أوان ذلك قد فات بالنسبة لك ولي. إنه مستقبل ابننا. طلبت من "ميشيل" أن يعمل على إقناع "بيو". وإذا لم يجد هذا نفعاً، فعليه أن يتصرف معه وفق ما يتراءي له. وأخبرته بأني لا أريد أن أعرف منه ما سيفعله مع "بيو". إنه سيبلغ السادسة عشرة الأسبوع القادم. وليس عليه أن ينتظر نصح والدته بعد الآن، فهو كبير راشد بما يكفي ليقرر شؤون حياته بنفسه.

بقيت أنظر إليها. ربما لا تزال النظرة نظرة إعجاب، ولكنه إعجاب يختلف عن ذلك الذي كان منذ بضع دقائق.

- وأياً كان ما سيحدث، فمن الأفضل لك ولي أن نقول بأن "ميشيل" كان في المنزل ولم يفارقه طوال الليل، وأن تؤمن "بابيت" على كلامنا.

Twitter: @alqareah

43

استدعيت المدير.

- مازلنا في انتظار الفاتورة.

- ولكن السيد "لومان" قد دفع الحساب، سيدي.

قد أكون متوهماً، ولكنني لاحظت أنه تعمد أن يخبرني بهذه المعلومة أنا بالذات، وأنه كان سعيداً بذلك.

شيء ما في عينيه، وكأنما يسخر مني بعينيه فقط.

كانت "كلير" تنقب في حقيبتها، حتى عثرت على هاتفها، وألقت عليه نظرة، ثم ألقت به ثانيةً إلي أعماق الحقيبة.

قلت لها بعدما غادرنا المدير:

- هذا أمر يفوق الاحتمال. ها هو ينسب لنفسه مقهانا، وابننا، والآن يدفع الحساب. وأسوأ ما في الأمر أنه كله عبث. أنا لا أجد أي معني في قدرته على أن يسدد الحساب عنا.

بادرت "كلير" بالإمساك بيدي اليمني، ثم اليسري.

Twitter: @alqareah

– كل ما عليك هو أن تؤذيه. فهو لن يتمكن من عقد مؤتمر صحفي ووجهه محطم، أو ذراعه مكسورة. لن يتمكن من تبرير ذلك للناس. لن يقتنع الناس هذه المرة، حتى ولو كان من يحدثهم هو "سيرجي".

نظرت إلي عيني زوجتي. لقد طلبت مني للتو أن أكسر ذراع أخي. أو أن أهشم وجهه. من أجل الحب؛ محبتنا لابننا، لأجل "ميشيل". في تلك اللحظة تذكرت تلك المرأة. أتعرف حكايتها؟ منذ سنوات في ألمانيا، أقدمت امرأة على قتل قاتل طفلها بالرصاص داخل قاعة المحكمة. وجدتني أرى صورة هذه المرأة في "كلير" الآن.

– أنا لم أتناول دوائي.

– بالفعل.

لم يبد عليها الاندهاش، بل مررت إصبعها برقة على ظهر يدي.

– أعني أنني لم أفعل ذلك منذ مدة طويلة، منذ أشهر.

كنت صادقاً. فقد توقفت عن تناول الدواء منذ أن عرضوا تلك الحلقة من البرنامج. شعرت أنني سأعجز عن الوقوف جوار ولدي لو بقيت أحاسيسي معطلة. أحاسيسي وردود أفعالي. فلو كنت أريد مساعدة "ميشيل" بكل طاقتي فلابد لي من استعادة ذاتي القديمة أولاً.

– أعرف هذا.

بقيت أنظر إليها، وقالت:

– ربما تعتقد أن الآخرين لا يلاحظون ذلك. ربما صح هذا مع الآخرين، ولكني زوجتك. وزوجتك تلاحظ هذا على الفور؛ ففيك شيء مختلف. تلك الطريقة التي تنظر بها إلي، وتبتسم بها لي. ثم وقت أن كنت تبحث عن جواز السفر. هل تتذكر؟ حينما كنت تغلق الأدراج بعصبية بل وتركلها؟ بدأت أراقبك منذ ذلك الموقف. تأخذ الدواء معك وأنت خارج، ثم تلقي بالجرعة اليومية في مكان ما،

Twitter: @alqareah

أليس كذلك؟ لقد أخرجت سروالك من الغسالة ذات مرة ووجدت أن جيبه قد استحال أزرق تماماً! بعدما ذابت فيه الأقراص التي نسيت أن تتخلص منها.

ضحكت "كلير" ضحكة قصيرة، ثم عادت إلي جديتها ثانية.

- ولم تخبريني بأي شيء.

- كنت في البداية أتساءل عن سبب إقدامك على ذلك. ولكنني وجدت "بول" الذي أحبه وأعرفه أمامي من جديد. وعندئذ أيقنت أنني أحب "بول" القديم. "بول" الذي يحطم الأدراج بعصبية، "بول" الذي ركض خلف الفيسبا التي اعترضت طريقه في الشارع ذات يوم..

خيل إلي أن "كلير" ستستطرد فتتحدث عن يوم أن خلصوا مدير مدرسة "ميشيل" من بين يدي بصعوبة، وهرعوا به إلي المستشفي. ولكنها أخبرتني بأمر آخر.

- كان هذا هو "بول" الذي أحبه، "بول" الذي أعشقه أكثر من أي شخص أو أي شيء آخر في هذا العالم.

رأيت الدموع في ركني عينيها، وأحسست بها في عيني أنا أيضاً.

- أنت، و"ميشيل"، طبعاً. أحبكما بالقدر نفسه. أنتما معاً تبعثان في السعادة.

- أجل.

خرج صوتي مبحوحاً، فتنحنحت. ثم كررت:

- أجل.

جلسنا قبالة بعضنا في صمت لبرهة من الوقت، ولا تزال يدا زوجتي تحضنان يدي. سألتها:

- ما الذي قلته لـ"بابيت"؟

- ماذا تقصد؟

Twitter: @alqareah

- في الحديقة، حينما كنتما تتمشيان. كانت "بابيت" سعيدة جداً لما رأتني، حتى إنها نادتني: عزيزي "بول". ما الذي قلته لها؟

أخذت "كلير" نفساً عميقاً:

- أخبرتها أنك ستفعل أي شيء، أي شيء من شأنه أن يوقف انعقاد ذلك المؤتمر الصحفي.

- ولم تمانع "بابيت"؟

- إنها تحلم بيوم أن يربح "سيرجي" الانتخابات. وقد شعرت بجرح غائر في مشاعرها لكونه لم يخبرها بما هو مقدم عليه إلا وهما في الطريق إلي المطعم، حتى لا تجد الوقت الكافي لإثنائه عن قراره العبثي.

- ولكنها قالت، هنا وعلي هذه الطاولة، إن..

- "بابيت" ذكية، "بول"، ولن يتسني لـ"سيرجي" أن يشك في أي شيء لاحقاً. وحينما تصير "بابيت" السيدة الأولي لن تمانع في أن تقوم بتوزيع قطع الصابون على المشردين. ولكنها الآن لا تلقي بالاً لأي مشرد، وبالأخص تلك المتشردة، فرأيها فيها لا يختلف عن رأيي ورأيك.

سحبت يدي من بين يدي "كلير":

- ولكن هذه ليست فكرة صائبة.

- "بول"..

- كلا، اسمعيني. أنا هو أنا ولم أتغير. لم أتعاط أدويتي. والآن لا أحد يعرف بذلك سواك. ولكن أمراً كهذا سينكشف، سيبحثون ويعرفون؛ الأخصائي النفسي في المدرسة، إحالتي إلي التقاعد القسري، ثم ما حدث مع مدير مدرسة "ميشيل".. ستنكشف كل الأوراق على عينك يا تاجر. ناهيك عن أخي. سيبادر أخي ويعلن بأنه لم يندهش من إقدام أخيه على فعلة مثل هذه. وهو لن ينسي أن أخاه قد أقدم على فعلة كهذه معه من

Twitter: @alqareah

قبل، أخاه الصغير الذي يعاني من مرض نفسي ويتعاطي أدوية لهذا السبب، أخاه الذي مرت فترة طويلة منذ آخر مرة تناول فيها الدواء ولم يلق به في المرحاض.

سكتت "كلير" ولم تعلق.

- إنه لن يسمح لي بأن أمنعه من تنفيذ ما هو مقدم عليه، "كلير". بل سينبهه أياً كان ما سأفعله إلي أن هناك شيئًا ما لا يعرفه.

سكت لحظة، حاولت خلالها أن أمنع اختلاج عيني.

- ستكون الإشارة الخطأ بالتأكيد.

Twitter: @alqareah

44

بعد أن غادرتني "كلير" بخمس دقائق، سمعت صوت تنبيه يصدر من تحت منديل "بابيت".

كنا قد نهضنا في نفس اللحظة، زوجتي وأنا. احتضنتها ودفنت وجهي في شعرها. وببطء، ومن دون صوت، كنت أتنفسها.

ثم عاودت الجلوس. وراقبتها وهي ترحل، إلي أن اختفت عن ناظري.

التقطت هاتف "بابيت"، وفتحته، وألقيت نظرة على شاشته.

"رسالتان جديدتان".

ضغطت للعرض. كانت الأولي نصية من "بيو". ليس بها سوي كلمة واحدة لا غير.. "ماما".

ضغطت لمحو الرسالة.

الرسالة الثانية تخبرني أن هناك رسالة صوتية في صندوق البريد الصوتي.

شبكة "بابيت" تختلف عن شبكتي، لذا لم أكن أعرف رقم البريد الصوتي لشبكتها. ولكن حدسي قادني إلي أن أبحث عن ذاك الرقم في دليل الهاتف، تحت الحرف V...Voicemail. ابتسمت إعجاباً بذكائي.

Twitter: @alqareah

بعدما أخبرتني سيدة البريد الصوتي أن هناك رسالة صوتية واحدة، سمعت صوت "بيو".

سمعت الرسالة الصوتية، وأثناءها أغلقت عيني مرة، ثم فتحتهما. أغلقت الهاتفولم أدسه ثانية تحت المنديل، بل وضعته في جيبي.

- ابنك لا يحب مثل هذه المطاعم؟

كانت مباغتة حقيقية لي، حتى إنني انزعجت، ونهضت من فوري.

كان مدير المطعم:

- أوه، المعذرة، لم أقصد أن أفزعك. ولكنني رأيتك تتحدث مع ابنك في الحديقة. أفترض أنه ابنك.

غاب عني ما يقصده للحظات، ولكنني سرعان ما فهمت.

ذلك المدخن. الرجل الذي كان يدخن بالخارج لم يكن سوي المدير، وقد رآني أنا و"ميشيل" في تلك الليلة، في الحديقة.

علي أن أصدقك القول هنا بأني لم أشعر بالجزع؛ لم أشعر بأي شيء.

وفي تلك اللحظة انتبهت إلي أن المدير يحمل صحناً صغيراً، فوقه فاتورة.

- لقد نسي السيد "لومان" أن يأخذها، فرأيت أن أعطيك إياها. ربما التقيته مجدداً هذه الليلة فتعطيه إياها.

- بالفعل.

- رأيتك واقفاً هناك مع ابنك. أنت تقف بطريقة مميزة، وكان هو يشبهك في وقفته، فخمنت أن هذا ابنك.

نظرت إلي الصحن وعليه الفاتورة. ما الذي ينتظره؟ لماذا لم يضعه ويذهب، بدلاً من هذه الثرثرة حول طريقة وقفتي؟

Twitter: @alqareah

- أجل.

لم أقصد التأكيد على كلامه، أو التأمين على تخمينه، بل أردت فقط أن أتحلي بالأدب معه. فليس لدي ما أقوله له على أي حال.

- أنا لدي ابن أيضاً، في الخامسة. ورغم ذلك أندهش أحياناً من مدي الشبه بيني وبينه. وكيف أنه يأتي بتصرفات تماثل أشياء أقوم بها، لمحات. فأنا مثلاً معتاد أن أمر بيدي على شعري بين الحين والآخر، وأن أداعب خصلاته بأصابعي حينما يصيبني الملل أو القلق.. أنا.. أنا لدي ابنة أيضاً، في الثالثة. هي وأمها مثل حبة فول انقسمت شطرين؛ مثلها في كل شيء.

تناولت الفاتورة من فوق الصحن ونظرت إلي المبلغ الإجمالي. وأنا لن أحكي لك عن أي رد فعل يمكنك أن تتخيل أن يقدم عليه أي إنسان عاقل أمام رقم مثل هذا الذي أمامي، وهو يربط بينه وبين عدد الأيام التي قد يكد ويكدح خلالها فقط ليتسني له أن يكسب مثل هذا المبلغ، هذا إن لم يجبره صاحب المطعم القزم على أن يغسل الصحون لأسابيع داخل المطبخ إن هو عجز عن سداد هذه الفاتورة. كما لن أخبرك بالمبلغ ذاته، فمحال ألا تضحك ما أن تسمعه. وهو تماماً ما فعلت أنا.

- أتمني أن تكونوا قد استمتعتم بوقتكم في مطعمنا هذه الليلة.

قالها المدير، ولكنه لم ينصرف. بل كانت أصابعه تمر على حافة الصحن ببطء، ثم يضعه ويدفعه بضع بوصات فوق مفرش الطاولة، ويعود ليلتقطه ثم يعود ليدفعه فوق المفرش.

Twitter: @alqareah

45

- "كلير"؟

للمرة الثانية في هذه الليلة، فتحت باب دورة مياه السيدات وناديت اسمها، ولكني لم أتلق أي رد. وأتاني من مكان ما بالخارج صوت سرينة الشرطة.

- "كلير"؟

تقدمت خطوات إلي الأمام، حتى تجاوزت المزهرية الكبيرة، وبعدها أيقنت من أن المكان خال. سمعت السرينة الثانية وأنا أجتاز غرفة المعاطف إلي الخارج. يمكنني الآن أن أرى عبر الأشجار تلك الأضواء الوامضة أمام المقهي الشعبي.

رد الفعل الطبيعي أن أسارع الخطي وأن أبدأ في الركض، ولكني لم أفعل. صحيح أني شعرت بشيء ثقيل معتم يجثم على قلبي، ولكنه كان ثقلاً مريحاً. ولهذا الإحساس المبهم في صدري علاقة بما شعرت به من أن لا حيلة لي.

فكرت في زوجتي.

عاودني هذا الدافع القوي إلي أن أركض، وأن أصل إلي المقهي وقد تقطعت أنفاسي، حيث سيكون من المؤكد ألا يسمحوا لي بالدخول.

سوف ألهث وأنا أنادي على زوجتي. زوجتي بالداخل!

Twitter: @alqareah

وكان هذا المشهد الذي جري في مخيلة عقلي هو ما دفعني إلي أن أبطئ الخطي. وصلت إلي المشي المفروش بالحصي والمفضي إلي الجسر. وعندما وصلت إليه لم أكن أمشي ببطء طبيعي، بل أؤكد لك، من صوت حذائي فوق الحصي، ومن تلك الوقفات بين الخطوات، أنني كنت أمشي أبطأ من أي مشهد سينمائي يعرض بالتصوير البطيء.

وضعت يدي على الدرابزين وتوقفت. كانت أضواء الشرطة تنعكس على ذلك السطح المعتم تحت قدمي. صرت الآن أرى المقهي وبكل وضوح عبر الفرجات بين الأشجار على الجانب القصي. كانت هناك ثلاث سيارات شرطة – طراز "فولكس فاجن" – وسيارة إسعاف رابضة عند الرصيف أمام طاولات المقهي بالخارج.

سيارة إسعاف واحدة، وليس اثنتين.

كم هو جميل أن تشعر بهذه السكينة، وأن تراقب المشهد وأنت على هذا الحال – بكل استقلال وحيادية – وأن تتمكن من استخلاص استنتاجك. أشعر الآن بنفس شعوري في أوقات الأزمات؛ مثل وجود "كلير" في المستشفي؛ محاولة "سيرجي" و"بابيت" الفاشلة أن يأخذا ابني مني؛ مشاهدة لقطات كاميرا الأمن. أشعر أن سكينتي هذه هي مبعث التصرف السليم، في الوقت المناسب وبكل كفاءة.

عدت أنظر إلي مدخل المطعم، حيث تجمعت النادلات الآن، بعد أن اجتذبتهن أصوات السرينة وأضواء السيارات. خيل لي أني أرى المدير بصحبتهن، أو هو رجل يرتدي بدلة ويدخن سيجارة.

ربما لا يمكنهم رؤيتي من مكانهم هناك، ولكني تذكرت أني ومنذ ساعات قليلة كنت أراقب من نفس المكان "ميشيل" وهو يعبر بدراجته هذا الجسر الذي أقف عليه.

علي أن أبتعد إذن. لا يمكن أن أبقي واقفاً هنا. لا يمكن أن أخاطر باحتمال أن تشهد إحدي النادلات بأنها قد رأتني عند الجسر. "غريب، كان يقف في مكانه وحسب. هل تعتقدون أن هذه ملاحظة مهمة؟".

Twitter: @alqareah

أخرجت هاتف "بابيت" من جيبي وأمسكت به فوق الماء. ومع صوت ارتطامه بالماء، وجدت بطة تبتعد سابحة. بعدها ابتعدت عن الدرابزين ومشيت. ليس بالسرعة البطيئة، ولكن بخطوات طبيعية؛ ليست بالبطيئة جداً، ولا السريعة جداً. وعلي الجانب الآخر من الجسر عبرت مسار الدراجات، ونظرت إلي يساري، ومشيت حتى محطة الترام. كان هناك حشد من الفضوليين، ليس بالكبير بالنظر إلي هذه الساعة، لا يتجاوز عددهم العشرين. إلي اليسار من المقهي توجد حارة. فتوجهت إلي تلك الحارة.

ما إن وصلت إلي الرصيف حتى انفتح باب المقهي، بكل قوة وصخب. خرجت نقالة بعجلات ومعها اثنان من المسعفين. أحدهما يحمل كيس الأوكسجين. ومن خلفه ظهرت "بابيت"، لم تكن ترتدي نظارتها وتخفي عينيها بمنديل.

لم يكن يظهر من جسد الشخص المسجي فوق النقالة والمغطي بغطاء أخضر خفيف سوي رأسه. ورغم أني كنت أعرف، إلا أنني تنفست الصعداء. كانت الرأس ملفوفة بضمادات اصطبغت بلون الدم.

دفع المسعفان النقالة إلي داخل سيارة الإسعاف، التي كانت أبوابها مفتوحة تنتظر. اتجه اثنان إلي الأمام للقيادة، وبقي اثنان معه في الخلف، ومعهما "بابيت". انطلقت السيارة ثم انعطفت عند أول يمين، إلي وسط المدينة.

كانت تطلق صوتها المميز، وهذا دليل على أنه لا يزال هناك أمل.

أو لم يعد هناك أمل، حسب وجهة نظرك التي تميل إليها.

لم يكن لدي كثير من وقت للتفكير في المستقبل المنظور، هذا لأن باب المقهي انفتح من جديد.

أخذت "كلير" طريقها بين شرطيين؛ لم تكن مكبلة بالأصفاد، بل لم يكونا ممسكين بها. نظرت حولها، وبحثت في الوجوه، عن ذلك الوجه الذي تعرفه وتألفه.

حتى وجدته.

Twitter: @alqareah

نظرت إليها ونظرت إلي. تقدمت نحوها، أو خيل إلي أن جسدي يود أن يتقدم نحوها.

عندئذ هزت "كلير" رأسها بقوة؛ أن لا تفعل.

لا تقترب. صارت الآن داخل سيارة الدورية، بعدما فتح الباب لها شرطي ثالث. تطلعت حولي حتى أتأكد من أن أحداً لم يلحظ ما دار بيني وبين "كلير"، ولكني وجدت الكل ينظر إليها هي، وهي تدلف إلي داخل سيارة الشرطة.

قبل أن تدخل توقفت للحظة. بحثت عني حتى وجدتني ثانيةً. وبرأسها أومأت إلي بحركة من يراها يعتقد أنها تحاول حماية رأسها وهي تدخل السيارة، ولكني فهمت أنها ترشدني إلي اتجاه بعينه.

إنها الحارة، أقصر طريق إلي منزلنا.

"عد إلي المنزل.. منزلنا".

لم أنتظر رحيل سيارة الشرطة، بل درت على عقبي وابتعدت.

Twitter: @alqareah

46

ما هو قدر البقشيش الذي يمكن أن تتركه في مطعم يصدمك إلى حد الضحك من مبلغ فاتورة الطعام الذي تناولته فيه؟ أتذكر أننا قد تحدثنا عن ذلك من قبل، كثيراً، ليس مع "سيرجي" و"بابيت" فقط، ولكن كذلك مع أصدقاء لنا شاركونا تناول الطعام في المطاعم الهولندية. ولنفرض أنك وجدت نفسك وبعد تناول العشاء مع أربعة أشخاص مطالباً بدفع أربعمائة يورو – لاحظ أنني لا أقول هنا بأن عشاءنا قد تكلف أربعمائة يورو – وينتظرون منك أن تدفع بقشيشاً قدره ما بين عشرة إلى خمسة عشر في المائة من هذا المبلغ. أي إنك وبحسبة بسيطة ستترك مع قيمة الفاتورة ما لا يقل عن أربعين ولا يزيد عن ستين يورو فوق الفاتورة.

ستون يورو بقشيش؟! ولا تريد مني أن أضحك؟! إنني أمسك نفسي في مواقف من هذا القبيل، وإلا انفجرت ضاحكاً بين الحين والآخر. إنه ضحك قسري، من النوع الذي تجد نفسك مدفوعاً إليه دفعاً خلال حضورك أي عزاء، أو في الكنيسة، وقت أن يفترض منك أن تكون صامتاً.

لكن أصدقاءنا لم يضحكوا أبداً. "رزق هؤلاء الناس من البقشيش، أليس كذلك؟"، هكذا قال لي صديق خلال تناولنا للغداء بمطعم شبيه بهذا المطعم.

كنت قد سحبت في صباح ذلك اليوم خمسمائة يورو من ماكينة نقود. وقد أقسمت أن أدفع أنا الفاتورة، والبقشيش. سأفعل ذلك بسرعة، وسأضع الأوراق

Twitter: @alqareah

العشرة فئة الخمسين يورو فوق صحن الفاتورة قبل أن يخرج أخي بطاقته الائتمانية من جيبه.

وفي نهاية الليلة، وحينما وضعت الأربعمائة وخمسين يورو المتبقية فوق الصحن، ظن المدير في البداية أني قد أسأت الفهم. وهم بأن يقول لي شيئاً. فمن يدري، فربما كان يود أن يعرفني بأن بقشيشاً قيمته مائة في المائة من الفاتورة كرم مبالغ فيه مني، ولكنني وجهت له القاضية:

– هذا المبلغ لك. وأنت لم ترني لا أنا ولا ابني في الحديقة، أبداً، لو سألك أحد عن هذا اليوم، أو بعد أسبوع، أو بعد عام من الآن.

لم أقل لك إن "سيرجي" خسر الانتخابات. في البداية، تعاطف الناخبون مع هذا المرشح الذي تهشم وجهه. وأصارحك القول بأن كأس النبيذ الأبيض تلك قد أحدثت جراحاً لا يستهان بها إطلاقاً. وحتى بعد شفاء الجراح، خلفت تلك الكأس وشظايها ندبات وآثارًا، ولا يعود الوجه كما كان البتة. أجروا له ثلاث جراحات خلال أول شهرين. وبعد الجراحة الأخيرة اضطر إلى تربية لحيته لفترة من الزمن. وأتذكر وأنا أحكي لك عن هذا الآن أنني اعتبرت تلك اللحية نقطة تحول. ولن أنسى منظره وهو واقف في السوق، وفي مواقع البناء، وخارج بوابات المصانع، يوزع المنشورات الدعائية مرتدياً سترته الخفيفة ولحيته كثيفة.

بدأت أسهم "سيرجي لومان" في التراجع في جميع استطلاعات الرأي. وما بدا أنه نصر مضمون منذ بضعة أشهر صار سقوطاً كارثياً. حلق "سيرجي" لحيته قبل الانتخابات بشهر. وكان تصرفاً يائساً أخيراً. ورأي الناخبون الوجه الممتلئ بالندبات، ورأوا كذلك المناطق الخالية فيه. لم أكن أعرف أن الوجه المشوه قد يسيء إلى صاحبه كل تلك الإساءة؛ إنه لأمر مذهل، وظالم في نفس الوقت. تتأمل تلك البقاع الفارغة فلا يسعك سوي التفكير في ما كان موجودًا مكان هذه الفراغات.

كانت اللحية هي القشة التي قصمت ظهره. أو بالأحري تربيته لها ثم حلاقته لها. فقد كان الأوان قد فات. وأدرك الناخبون أن "سيرجي لومان" لا يدري من الأصل ماذا يريد؛ وهكذا قرروا أن "اللي نعرفه أحسن من اللي ما

Twitter: @alqareah

نعرفوش"، واختاروا رئيس الوزراء الحالي، اختاروا تلك البقعة التي اعتادوها على ورق الحائط، خشية أن يفتقدوها.

وبطبيعة الحال، لم يرفع "سيرجي" أية دعاوي تعويض. فمن غير المنطقي أن يفعل ذلك ضد زوجة أخيه في ظل هذا الصراع الانتخابي.

قالت لي "كلير"، بعد ذلك بعدة أسابيع ونحن في المقهي:

- أظن أنه قد فهم الآن. لقد قالها بنفسه من قبل: أريد أن أحل هذه المشكلة كعائلة. وأعتقد أنه قد فهم الآن أن هناك من الأسرار ما لا يصح أن يخرج إلي العلن.

عليك أن تعرف أيضاً أن "سيرجي" و"بابيت" قد انشغلا طويلاً بأمور أخري. ومنها اختفاء ابنهما بالتبني، "بيو". وقد بذلا في البحث عنه جهداً حقيقياً، حملة إعلانات في الصحف والمجلات، وملصقات في طول البلاد وعرضها، بل وظهرا في إحدي حلقات برنامج "مفقود" التلفزيوني.

خلال تلك الحلقة، أذاعا تلك الرسالة الصوتية التي تركها "بيو" في هاتف أمه، قبل أن يختفي. لم يعثر أحد على هاتف "بابيت"، ولكنهم توصلوا إلي الرسالة، التي صار لها الآن غرض مختلف عن غرضها الأصلي ليلة العشاء.

"ماما، مهما حصل.. أريدك أن تعرفي.. أنا أحبك..".

يمكنك أن تتخيل ما وصلا إليه في سعيهما الحثيث نحو العثور على "بيو"، ولكن الشكوك كانت موجودة. أحد الكتاب الصحفيين قال بأن "بيو" قد سئم أبويه بالتبني، وأنه قد عاد إلي بلده الأم. "خلال السنوات الأولي الصعبة يميل الطفل المتبني إلي البحث عن والديه الأصليين. أو على الأقل يبحث عن البلد الأصلي الذي ولد فيه".

وخصصت صحيفة صفحة كاملة عن القضية، حيث طرحت ولأول مرة تساؤلاً حول ما إذا كان الأبوان البيولوجيان على استعداد لبذل مزيد من الجهد للعثور على ابنهما مقارنة بأبويه بالتبني. وأوردت أمثلة عن آباء بالتبني قرروا في النهاية أن ينأوا بأنفسهم عن هؤلاء الأطفال ما إن يبدءوا في التسبب في أزمات. وأرجعت المشاكل المصاحبة لتربية مثل هؤلاء الأطفال إلي مجموعة من

Twitter: @alqareah

العوامل. أولها العجز عن التأقلم مع الثقافة الأجنبية، ويلي ذلك العوامل البيولوجية: "النقائص" التي ورثها هؤلاء الأطفال عن آبائهم الأصليين. وكذلك، وخاصة حينما يتم التبني من قبل آباء متقدمين في العمر، الأمور التي قد تحدث للطفل قبل أن تستوعبه عائلته الجديدة.

تذكرت الفترة التي أمضيناها في فرنسا، وذلك الحفل في حديقة أخي. حينما أمسك المزارعون الفرنسيون بـ"بيو" وهو يسرق دجاجة، وزعم "سيرجي" أن أولاده لا يمكن أن يقترفوا فعلة كهذه. قالها "أولاده" دون تمييز.

وتذكرت مأوي الحيوانات. فهناك أيضاً لا تعرف ما الذي جري من قبل في حياة كلب أو قط قبل أن تصطحبه معك إلي المنزل، ولا تعرف إن كان قد تعرض للضرب أو الحبس لأيام في قبو مظلم. فالأمر لا يهم كثيراً في تلك الحالة. فلو وجدت صعوبة في التعامل مع القط أو الكلب، فكل ما عليك هو أن تعيده من حيث جلبته.

وفي نهاية المقال، تساءل الكاتب عما إذا كان الآباء الأصليون سيقومون أيضاً بالابتعاد عن أطفالهم في حال وجدوا صعوبة في السيطرة عليهم.

كنت أعرف الإجابة، ولكني ناولت المقال لـ"كلير" لتقرأه أولاً.

وسألتها حينما انتهت من قراءته:

- ما رأيك؟

كنا جالسين إلي طاولة المطبخ الصغيرة، بعد أن تناولنا الإفطار. كان ضوء الشمس ينسدل فوق الحديقة وعلي كاونتر المطبخ، وكان "ميشيل" قد ذهب إلي تدريب كرة القدم.

- لقد بقيت أتساءل عما إذا كان "بيو" سيقدم على ابتزاز أخيه وابن عمه لو أنه كان بالفعل من العائلة. لا أقول بأن الإخوة والأخوات الطبيعيين لا يتشاجرون أحياناً، وأحياناً ما يصل الخصام بينهم إلي حد القطيعة التامة. ولكنك تجدهم وعند أول شدة في كتف بعضهم.

Twitter: @alqareah

سكتت لحظة، ثم أخذت تضحك.

- ما الأمر؟

- لا شيء.

ثم أردفت وهي لا تزال تضحك:

- لقد وجدتني أتحدث عن الإخوة والأخوات. ونسيت من أوجه إليه هذا الكلام!

ضحكت بدوري وقد فهمت قصدها.

بقينا صامتين لبرهة من الوقت. واكتفينا بتبادل النظرات بين الحين والآخر، مثل رجل وامرأة، شطري العائلة السعيدة. ما حدث قد حدث، ولكنني بقيت أذكر نفسي بمثال السفينة الغارقة. فالأسرة السعيدة تنجو من أية سفينة تغرق. لا أقول بأنها تكون أسعد بعدئذ، ولكن المؤكد أنها لن تكون تعيسة.

"كلير" وأنا. "كلير" و"ميشيل" وأنا. بيننا شيء مشترك. شيء لم يكن بيننا من قبل. أعرف أنك تود أن تقول لي إننا لا نتشارك في الشيء نفسه بالقدر نفسه، ولكن ربما أجد هذه الملحوظة هامشية. فلا لزوم ليعرف كل واحد منا كل شيء عن الآخر، ولا يمكن للأسرار أن تقف في طريق السعادة.

تذكرت تلك الليلة، بعد العشاء. بقيت وحدي في المنزل لفترة قبل أن يعود "ميشيل". في غرفة المعيشة خزانة أنتيكة ذات أدراج تحتفظ فيها "كلير" بأشياء تخصها. وكنت أشعر، حتى وأنا أفتح أول درج، بأني مقدم على فعلة سأندم عليها فيما بعد.

تذكرت في تلك اللحظة أيام كانت "كلير" في المستشفي. كانوا قد أجروا لها فحصاً باطنياً وقت أن كنت بصحبتها. جلست إلي كرسي جوار سريرها ممسكاً يدها. ودعاني الطبيب لأنظر إلي الشاشة وهم يدخلون منظاراً مزودًا بكاميرا إلي باطنها. نظرت لحظات قبل أن أشيح بوجهي. لم أفعل هذا بسبب عدم احتمالي

Twitter: @alqareah

النظر إلي المشهد، أو خشية أن يغمي علي، لا، بل لسبب آخر. فقد قلت لنفسي إنه لا يحق لي النظر إلي ما في داخلها.

كدت أنتهي من بحثي حينما عثرت على ما كنت أبحث عنه. كان الدرج العلوي يحوي نظارات شمسية قديمة، وقبعات بيريه، وأقراطا، وجميعها أشياء لم تعد ترتديها. ولكن الدرج الثاني حوي مجموعة من الأوراق؛ بطاقة عضوية نادي التنس، بوليصة التأمين على دراجتها، تصريح موقف السيارات وقد انتهت صلاحيته، ومظروف عليه اسم مستشفي.

إنه المستشفي الذي تلقت فيه "كلير" العلاج، وهو أيضاً نفس المستشفي الذي وضعت فيه "ميشيل".

"اختبار السائل الأمنيوسي". كان هذا عنوان الورقة التي أخرجتها من المظروف، وأسفله مربعان صغيران؛ أحدهما مخصص للبنين والآخر للبنات.

علامة "صح" موضوعة في المربع الخاص بالبنين.

كانت "كلير" تعرف أننا سنرزق بولد، هذا أول ما خطر لي. ولكنها لم تخبرني. بل لقد بقينا نبحث عن أفضل اسم لبنت ونتجادل حوله، حتى يوم ذهبت لتضع مولودها. أما اسم الولد فلم نختلف حوله، فقد كنا اخترنا الاسم "ميشيل" حتى من قبل أن تصير "كلير" حاملاً. ولكننا اختلفنا حول اسم البنت، في حال رزقنا ببنت، بين "لورا" و"جوليا".

كان هناك عمود من الأرقام المكتوبة بخط اليد في الاستمارة. وقرأت كذلك كلمة "جيد" عدة مرات.

وقرب النهاية، وتحت العنوان "التفاصيل"، كان هناك مربع مقاسه بوصتان في أربع بوصات. كان المربع ممتلئًا بكلمات بخط غير مقروء؛ نفس اليد التي دونت الأرقام أعلاه، ووضعت علامة "صح" أمام (ولد).

بدأت أقرأ. ولكني سرعان ما توقفت.

Twitter: @alqareah

هذه المرة لم يكن السبب هو أنني أدركت أنه ليس من حقي ذلك، بل لسبب آخر. هل على أن أعرف هذا؟ هل أريد أن أعرف هذا؟ هل سيزيد هذا من سعادة أسرتنا؟

أسفل هذا المربع مربعان أصغر، جوار أحدهما عبارة "قرار الطبيب/ المستشفي"، وجوار الآخر "قرار الأبوين".

كانت هناك علامة "صح" عند "قرار الأبوين".

قرار الأبوين. لم يكتبوا "قرار الأم"، بل "قرار الأبوين".

سأحمل على كاهلي سر هاتين الكلمتين ما حييت، هكذا أيقنت وأنا أطوي الورقة ثانية وأضعها داخل المظروف، ثم أدسه أسفل تصريح موقف السيارات.

- قرار الأبوين.

قلتها لنفسي بصوت عال وأنا أغلق الدرج.

لما ولد "ميشيل"، قال الجميع، بما في ذلك والدا "كلير" وبقية أفراد عائلتها، إنه نسخة مني. "نسخة منه!"، هكذا كانوا يتصايحون وهم يراقبونه في غرفة المواليد بالمستشفي.

وكانت "كلير" تضحك. كان الشبه أقوي من أن ينكره أحد. وفيما بعد تغيرت الأمور بعض الشيء؛ ومع تقدمه في العمر صار من الممكن – بقليل من التمعن بالنظر وكثير من النية السليمة – أن تجد فيه شبهاً من أمه، وخصوصا عينيه، وتلك المساحة الصغيرة بين أنفه وشفته العلوية.

نسخة. أغلقت الدرج، واتجهت لأستمع إلي رسائل الأنسر ماشين.

سمعت صوت زوجتي:

- هاي، حبيبي! كيف حالك؟ هل أصابك الملل؟

في خلفية سكوتها الذي أعقب هذه العبارة أسمع صخب المطعم بوضوح؛ الثرثرة، صحنًا يوضع فوق صحن.

Twitter: @alqareah

- حسنا، سوف نتناول قهوتنا، وسنعود إلي المنزل خلال ساعة. ولديك وقت لتنظف فيه ما أحدثته من فوضي. ماذا تناولت على العشاء..؟

ثم سكوت.

"أجل.."، سكوت. "كلا.."، سكوت. "هذا صحيح".

كنت أعرف أن الأنسر ماشين لدينا لا يسجل سوي آخر ثلاث رسائل.

وكان إصبعي على وشك أن يضغط على الثالثة.

- مع السلامة، حبيبي، أحبك.

وضغطت.

عاد "ميشيل" بعد نصف الساعة. قبلني على خدي وسأل عن ماما. أخبرته أنها ستتأخر قليلاً، وأنني سأشرح له كل شيء. كانت مفاصل أصابع يد "ميشيل" اليسري متورمة، هكذا لاحظت، وهو أعسر مثلي، وعلي ظهرها آثار دماء جفت. عندئذ نظرت إليه من أعلي رأسه إلي أخمص قدميه. وجدت دماً فوق حاجبه الأيسر، وطينًا جافًا على سترته، والمزيد منه على حذائه الأبيض.

سألته عما حدث معه.

أخبرني بكل شيء. وأكد لي أن مقاطع *Men in Black III* قد اختفت من على يوتيوب.

كنا واقفين في الردهة. وسكت "ميشيل" في وسط استرساله في الحكي، ونظر إلي.

- بابا!

- ما الأمر؟

- هأنتذا تفعل ذلك ثانيةً!

- أفعل ماذا؟

Twitter: @alqareah

- تضحك! فعلت ذلك يوم أن أخبرتك عن الحادث لأول مرة، أتذكر؟ هناك في غرفتي؟ فحينما حكيت لك عن مصباح المكتب أخذت تضحك، وحينما أخبرتك عن الجركن كنت تضحك.

حدق في وجهي، فحدقت في وجهه. نظرت إلي عيني ابني.

- وهأنتذا تضحك من جديد. هل تريدني أن أكمل؟ هل ترغب فعلاً في سماع هذا؟

لم أفتح فمي بكلمة. بقيت أنظر إليه.

في تلك اللحظة، اقترب "ميشيل" مني، واحتضنني بكل ما فيه من قوة.

كان كل ما فيه ينطقها.. "بابا.. حبيبي".

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

#كتب_مختلفة #هولندا

تُرجِمَتْ إلى 34 لغة

"إلى أي مدى قد تصل لتحمي أولادك؟"

لقطات كاميرا الأمن غيرت كل ذلك، فقد منحت الشابان - المعتديان - وجهًا (...) ولكن ما تعرَّف عليه المشاهدون كان شيئًا آخر، لقد تبيَّن لهم بوضوح أن الولدين يتسليان، وأنهما كان يقهقهان بالضحك وهما يرشقان ضحيتهما العاجزة - أو غير الظاهرة في اللقطات على الأقل، أولاً بمقعد مكتب، ثم كيسين قمامة، ثم مصباح، وأخيرًا جركن فارغ. تراهما - عبر لقطات مهتزة بالأبيض والأسود - وهما يتصافحان "هاي فايف" بعدما رميا كيسي القمامة عليها، وكيف أنهما يسبَّانها، ويعتديان عليها بلا شك، على امرأة بلا مأوى لا تظهر في الكادر، حتى ولو لم يكن هناك صوت للقطات.

هيرمان كوخ

وُلد "هيرمان كوخ" في الخامس من سبتمبر عام 1953، وهو كاتبٌ هولندي وممثل كوميدي. يكتب القصص القصيرة، والروايات، والأعمدة الصحفية. ويمثل أيضًا في الراديو، والتلفزيون، والسينما. له مجموعة قصص قصيرة بعنوان "المارّة"، نُشرت عام 1985. نُشرتْ أول رواية له عام 1989، وكانت بعنوان "أنقذينا يا ماريا مونتانيللي". وأمَّا عن روايته "العشاء"، التي نُشرت عام 2009، فقد وصلت إلى قائمة الأكثر مبيعًا، وفازت في نفس العام بجائزة "NS Audience award".كما تُرجمت الرواية إلى أربعة وثلاثين لغة. وتم تحويلها إلى مسرحية تم تمثيلها على المسارح الهولندية عام 2012، وقد تم عمل فيلم هولندي عام 2013، وآخر إيطالي عام 2014 عن الرواية، وحاليًا جاري العمل على النسخة الأمريكية من الفيلم، والذي ستقوم بإخراجه الممثلة الشهيرة الفائزة بجائزة الأوسكار "كيت بلانشيت".

ISBN 978-977-319-227-3
9 789773 192273

العربي للنشر والتوزيع
60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

تصميم الغلاف: محمد سيد